اللطيف

اللطيف: "من أسمائه الحسنى، وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر. وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف نوعين:

الأول: أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور ، وما لطف ودقّ من كل شيء.

الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتمَّ عليه إحسانه، ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية فييسره لليسرى ويجنبه العسرى"[١].

اللطيف: "إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف"[٢].

اللطيف من أسماء الله الحسنى الدالة على اللين والمقاربة من المخلوق بالعفو والتسامح والتواد، ولذا اللطيف هو من يملك القوة المطلقة ويملك العفو والرحمة ويفعل ذلك متى ما يريد وهو العليم الخبير.

اللطيف مالك العذاب والحساب والعقاب لمن يشاء وفقا لما تقدمه الأيدي وهو المسامح بالعفو والمغفرة والرحمة والعطاء، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ

---

[١] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٦٠.

[٢] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠١.

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٣].

الحمد لله الذي لا تحيط به الأوهام، ولا تحويه الأقطار، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

أحمده على آلائه، وأشكره على نعمائه، وأستهديه من القول والعمل لما يقربني منه ويرضيه، وكيف لا يرجى حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته وقد سبق وجود العباد لطفه ورأفته، إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بنا قبل وجود ضعفنا أفتمنعنا منهما بعد وجود ضعفنا، إلهنا وصفت نفسك في كتابك العزيز الذي أنزلته إلينا باللطف والرأفة فقلت فيه: {الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز}[٤]. اللطيف هو الذي بيده كل شيء ويعفوا عن كثير ويتجاوز عن الأخطاء استجابة لمن دعاه طاعة وإخلاصا، ولأنه يعلم السراء والضراء، ولا تُخفى عليه خافية، فهو لا يستجيب إلا عند الوجوب، وفي ذلك لطفا بالعباد الذين لو أدركوا العاقبة لكانت الطاعة مع الصبر من أجل المستقبل الأفضل الذي لا يعلمه إلا هو جل جلاله، ولذلك قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٥]. الأنفس متعددة الطباع، تضعف وتقوى حسب درجة الإيمان ومستوى الخلافة، فعندما تضعف تهوى في غير محل وعندما تقوى تصبر حتى تنال أجرا، ولذا فاللطف بالعباد في الأقوال والأفعال التي يقدمون عليها وهم لا يدركون العاقبة، فيتيح لهم الله لطفا يحول بينهم وبين العاقبة غير المحمودة.

---

[٣] التوبة ١٠٣ . ١٠٦.

[٤] الشورى، ١٩.

[٥] البقرة، ٢١٦.

وعليه فاللطيف بعباده كما قال ابن عباس: "حفي بهم. وقال عكرمة: بارّ بهم. وقال السدى: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطف بالبَرّ والفاجر. وقال القُرَظيّ: لطيف بهم في العرض والمحاسبة"[٦].

إنَّ اتصاف الله تعالى باللطف والرأفة دليل إثبات على أنه الأكبر والأعظم والمهيمن جل جلاله، سبحانك ما أعظم شأنك لطفت بنا ونحن للطف محتاجون، افتمنعنا لاحتياجنا إليه وأنت أرحم الراحمين؟ سبحانك لا إله إلا أنت بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا أليك فارحمنا يا خير الراحمين.

فاللطيف اسم إنما يستحقه من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف وشرح ذلك يستدعي تطويلا ثم لا يتصور أن يفي بعُشر عَشرة مجلدات كثيرة .

جاء في اللغة : لَطُفَ بهِ ولَه، كنَصَرَ، يَلْطُفُ لُطْفاً (بالضمِّ): إِذا رَفَقَ به، وأَنا أَلْطُفُ بهِ: إِذا أَرَيْتَهُ مَوَدَّةً ورِفْقاً في مُعامَلَةٍ، وهو لَطِيفٌ بهذا الأَمْرِ رَفيقٌ بمُداراتِه، والمَشْهُورُ تعدِيَتُه بالباءِ، كقولهِ تَعالى: (اللهُ لَطِيفٌ بعِبادِهِ)، وجاءَ مُعَدًّى باللامِ كقوله تعالى: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ). ولَطافَةً على القياس، فمَعْناه: صَغُرَ ودَقَّ فهو لَطِيفٌ.

واللَّطِيفُ: صفَةٌ من صفات الله تَعالَى واسمٌ من أَسمائه ومَعْناه: البَرُّ بعباده المُحْسُن إلى خَلْقه بإيصال المنافعِ إِلَيْهم برفْقٍ ولُطْفٍ، وهو من لَطُفَ ككَرُمَ لُطْفاً ولَطافَةً بمعنَى دَقَّ، وقال الفَيُّوميُّ: إِنَّهما متقاربان.

---

[٦] القرطبي، مصدر سابق، الجزء السادس عشر، ص ١٩.

واللَّطِيفُ: هو الَّذي اجْتَمَعَ له الرِّفْقُ في الفعْلِ، والعلْمُ بدَقائق المَصالحِ، وإيصالها إلى من قَدَّرَها لَهُ من خَلْقِه. واللُّطْفُ المطلق لا يجمع لأنه واحد، أمّا الأَلاطِفُ: الأَحِبَّةُ، جمعُ الأَلْطَفِ أَفْعَل من اللُّطْفِ بمعنى الرِّفْقِ. وهذه من صفات المستخلفين في الأرض، الذين ميزهم الله بالقيم والفضائل التي بها تُدرك الأمور ويتم التوفيق فيها بلطفٍ. وفي ذلك يقول تاج العروس: "تَلاطَفُوا: تَواصَلُوا"[٧].

واللطائف: جمع لطيفة، وكل شيء دقيق محكم وغامض خفي، يحتاج إلى الرفق والتأني في إدراكه، فهو لطيف. واللطيف مستعار من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة من الشيء الخفي. وقيل: اللطيف العليم بالغوامض والدقائق من المعاني والحقائق، ولذا يقال للحاذق في صنعته لطيف.

اللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق الذي يجل عن إدراك البصائر، فضلاً عن الأبصار، ويعز عن شعور الأسرار فضلاً عن الأفكار، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال، وينزه عن حلول الألوان والأشكال، فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق بل بالقياس إلى ما هو دونه في اللطافة[٨].

والأصل في اللطيف التدبير، ثم حذف واجريت الصفة للمدبر على جهة المبالغة، وفلان لطيف الحيلة إذا كان يتوصل إلى بغيته بالرفق والسهولة، ويكون اللطف حسن العشرة فيُحب، والعصمة هي اللطيفة التي يمتنع بها عن المعصية اختيارا. ويسمى الله تعالى لطيفا لأنه يواصل نعمه إلى عباده. وتختلف عن المداراة لأنها ضرب من الاحتيال والختل.

أمور تستوجب اللطف:

الأمر الأول:

---

[٧] تاج العروس، ج ١، ص ٦١٢٠.

[٨] تفسير الألوسي، ج ٥، ص ٤٦٧.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}[٩]، وقال تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا}[١٠]. أي: وأيّ شيء يَكرثُهم لو سلكوا الطريقة الحميدة، وعَدَلُوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملا وأنفق مما رزقه الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها.

في الآية السابقة استغراب استفساري يستوجب استجواب من الذين يتعلق الأمر بهم، ولكن لأنهم لا يدركوا أمرهم والعاقبة المترتبة عليه، فكانت المعرفة للذين أمنوا وعملوا الصالحات حتى جاء وصفهم بالخلفاء في الأرض دون غيرهم، ولهذا كان القول الاستغرابي موجه للمؤمنين العارفين والمستخلفين فيها، وذلك بأسباب إدراكهم إياه. أما غيرهم من غير المستخلفين فيها فهم أولئك المستغرب من أجلهم مصداقا لقوله تعالى: (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ).

الأمر الثاني:

وقوله: (وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا) أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة، اللهم ألطف بنا إنك تعلم مالا نعلم سبحانك إنك ترى مالا نرى وتسمع مالا نسمع.

استدلالات على لطفه تعالى:

الإنسان بين ظروف الطرب والغضب يتأرجح، وبين ساعات الشدة والفرج يتأرجح، ومع وسوسة الخناس الوسواس يخنس ويوسوس فيمتد وينكمش، والخليفة في مقابل ذلك بإيمانه يزداد قوة، وبين هذا وذاك قد أوهم إبليس خلقا كثيرا أنه لا إله ولا صانع وأن هذه الأشياء

---

[٩] النساء ٣٨.

[١٠] النساء، ٣٩.

اللطيفة كانت بلا مكون، وهؤلاء ومن على أمثالهم لم يدركوا الصانع بالحس ولم يستعملوا في معرفته العقل فجحدوه، دون أن يعقلوا ويتساءلوا:

. هل يشك ذو عقل في وجود صانع لطيف لهذه الأشياء اللطيفة؟.

. ألا يكون وراء كل مخلوق خالق؟.

. ألا يكون الخالق أفضل من المخلوق؟.

. ألا يكون المخلوق مسبوقا بخالق لا سابق عليه؟.

. ألا يكون من يأتي بالشمس من المشرق ويتحكم في أمرها مع أمر النجوم والكواكب دون أن يحدث تماس أو صدام، ودون أن يأتي أحد غيره قادر على أن يأتي بالشمس من المغرب ألا يكون هو الأول والآخر الذي لم يكن من قبله أول ولا من ورائه آخر؟. ولأنه كذلك جل جلاله: ألا ينبغي علينا الشهادة به واحداً أحداً لا شريك له؟ ولأنه كذلك سبحانه وتعالى: ألا يكون من الأفضل لنا أن نصلي ونسلم على من أمرنا بالصلاة والسلام عليهم دون أن نفرق بين أحد منهم؟.

من يدرك ما تدل عليه هذه التساؤلات يكتشف فيها لطف من لطيف خبير، فهذا المهاد الموضوع وهذا السقف المرفوع وهذه الأبنية العجيبة والقوانين الجارية على وجه الحكمة أما تدل على صانع بديع.

وإذا كانت البعرة كما تقول العرب: تدل على البعير؟ ألا يكون البعير يدل على خالق البعير؟.

وعليه:

لماذا لا ننظر إلى الإبل حتى نتمكن من معرفة الإجابة على الكيفية التي بها خلقها؟.

ولماذا لا ننظر إلى السماء حتى نتمكن من معرفة الكيفية التي بها رُفعت؟.

ولماذا لا ننظر إلى الجبال حتى نتمكن من معرفة الكيفية التي بها نُصبت؟.

ولماذا لا ننظر إلى الأرض حتى نتمكن من معرفة الكيفية التي بها بُسطت؟.

ولماذا لا يُذكِّر بعضنا البعض بالمعجزات حتى يتم التمكن من الاستخلاف في الأرض بقوة الإرادة لا بقوة السيطرة؟.

ولذا، فإذا فكّر الإنسان وتذكّر عرف أنّ وراء كل مخلوق خالق، ووراء كل كيفية لطيف خبير.

لو تأمل الإنسان نفسه لكفت دليلا ولشفت غليلا فإن في هذا الجسد من الحكم ما لا يسع ذكره في كتاب، ومن تأمل تحديد الأسنان لتقطيع وتقريض الأضراس لتطحن واللسان يقلب الممضوغ وتسليط الكبد على الطعام ينضجه ثم ينفذ إلى كل جارحة قدر ما تحتاج إليه من الغذاء. لو نظر لعقله وهو يفكر، وهو يتحايل وهو يتدبر وهو يشطح وهو يتأمّر، وهو يتأمل وهو يُحب ويستنبط ألا يحس بأن من ورائه قوة تدفعه لأن يعرف ويؤمن؟.

وهذه الأصابع التي هيأت فيها العقد لتطوي وتنفتح فيمكن العمل بها ولم تجوف لكثرة عملها إذ لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكسرها وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي إذا ضمت.

وأخفى النفس في البدن التي فيها قوامه وهي التي إذا ذهبت فسد العقل الذي يرشد إلى المصالح.

ولذا فالنفس لا أحدا يراها بالرغم من وجودها والاتفاق عليها بين الناس في مختلف أديانهم وأعراقهم وأعرافهم ومعتقداتهم وعلومهم، النفس هي النفس وإن تنوعت بين ضالة ومهتدية، وبين أمّارة بالسوء ومطمئنة، وبالرغم من أن كل موجود وبالعينين يُرى يُصوَّر، إلا أن الموجود الذي لا تراها العينين لا يصور، وإلا هل هناك من يصور لنا النفس أو الابتسامة أو الغضب أو السعادة، كل هذه موجودة ويُحس بها وترتسم على الوجوه حتى تلحظها العقول المدركة للحقيقة. ومن يحاول قول غير ذلك ندعوه لأن يرسم لنا ابتسامة أو يرسم لنا نفس أو يرسم لنا سعادة، وعليه أن يفكر قبل أن يحاول الرسم في الفارق الكبير بين الابتسامة وبين المبتسم، وبين النفس والروح والبدن، وبين السعادة ومن تجول السعادة في نفسه حتى ترتسم عليه.

ومع أنَّ النفس ذائقة للموت، فهي التي تموت دون أن نراها، وإلا هل هناك من يرى النفس بأم عينيه في حالتيها في الحياة والممات؟.

بالتأكيد النفس بالرغم من وجودها فهي لا تخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر ألا يكون عدم رؤية الموجود معجزة أمام من لم يفقدوا أبصارهم؟. وبما أنها موجودة وهي لا تُرى مُعطية صادقة، إذن ألا يكون من ورائها خالق لا يمكن رؤيته بالقوة التي جعلت عدم التمكن من رؤية النفس بالرغم من وجودها؟.

كل شيء من هذه الأشياء ينادي أفي لطف الله شك؟ وإنما يتخبط الجاحد لأنه طلبه من حيث الحس، ومن الناس من جحده لأنه لما أثبت وجوده من حيث الجملة لم يدركه من حيث التفصيل[١١].

فأخبر أنه يلطف لِما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ومنه التلطف كما قال أهل الكهف وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا، وهكذا كان ظاهرا ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه والقائه في السجن وبيعه رقيقا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنا ومصائب وباطنها نعما وفتحا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خير له إن أصابته سراء شكر فكان خير له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن فالقضاء كله خير لمن أعطى الشكر والصبر جالبا ما جلب"[١٢].

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم

---

[١١] تلبيس إبليس، ج ١، ص ٥٥.

[١٢] شفاء العليل، ج ١، ص ٣٤.

وسعادتهم فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه وهو يذبح الأطفال في طلب فرماه في بيته وحجره على فراشه ثم قدر له سببا أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه ثم قدر له سببا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجته ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة[١٣].

علاقة اللطيف بأسمائه تعالى:

هي علاقة توحد لا تزدوج ولا تجمع في اسمه المُطلق؛ لأن عدله كما ينبغي وعلى ما ينبغي ولو لم يفعل ما فعله لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضررا مما حصل كما أن المريض لو لم تُجرى له العملية عند الضرورة لتضرر ضررا يزيد على ألم الجراحة وتالياتها (ولله المثل الأعلى)، وبهذا يكون الله تعالى عدلا والإيمان به يقطع الإنكار والاعتراض ظاهرا وباطنا وتمامه أن لا يسب الدهر ولا ينسب الأشياء إلى الفلك ولا يعترض عليه كما جرت به العادة بل يعلم أن كل ذلك أسباب مسخرة وأنها رتبت ووجهت إلى المسببات أحسن ترتيب وتوجيه بأقصى وجوه العدل واللطف. وعلى الجملة فهو من حيث دبر الأمور حكم، ومن حيث أوجدها جوَّاد، ومن حيث رتبها مصوَّر ، ومن حيث وضع كل شيء موضعه عدل، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف، ولن يعرف حقيقة هذه الأسماء من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال.

من وجوه لطفه تعالى:

الوجه الأول:

---

[١٣] المصدر السابق، ص ٣٥.

{إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[١٤]. يخبر تعالى أنه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[١٥].

وقال تعالى مخبرًا عن لقمان أنه قال: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[١٦].

وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[١٧].

نعم أنه هو لا إله إلا هو، واضع الموازين بالقسط ليوم القيامة، دون أن تُظلم نفس شيئا، وهو الذي أحصى كل شيء وعده عدا، وهو الذي نأتيه يوم القيامة فردا، وهو الذي يعلم الأسباب التي بها تتزلزل الأرض، وهو الذي يعلم علم الساعة، وهو الذي يعلم الكيفية التي بها خُلقت الإبل، والكيفية التي بها رُفعت السماء عن الأرض بغير عمدٍ نراها، والكيفية التي بها نُصبت الجبال، والكيفية التي بها سُطحت الأرض، وهو الأول والآخر، وهو المحيي والمميت، وهو الذي يرى الأبصار ولا تراه البصير، وهو السميع العليم، وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو به آمنت، وعليه توكلت، وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليه ولا حول ولا قوة إلا به.

إنه الواحد من غير عدد، الذي يعلم مالا نعلم، وهو الباقي بعد كل أحد، إلى غير نهاية ولا أمد. له الكبرياءُ والعظمة، والبهاء والعزة، والسلطان والقدرة، تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه أو في وحدانيته نديد، أو في تدبيره مُعين أو ظهير، أو أن يكون له ولد، أو صاحبة أو كُفؤا أحد.

---

[١٤] النساء، ٤٠.

[١٥] الأنبياء، ٤٧.

[١٦] لقمان، ١٦.

[١٧] الزلزلة، ٦ .٨.

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويلِ، وفيه: يقول الله عز وجل: "ارْجِعُوا، فَمَن وجدتم في قلبه مثقالَ حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار". وفي لفظ: "أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا"[١٨].

الوجه الثاني:

أنه أنزل لطفه في قلوب خلقه، وخاصة من استخلافهم، مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره}[١٩]. خلائف جمع خليفة وهم المُمكنين بالقوة التي يُراد بها الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها المستخلف، وهي كينونة المطلوب والمرغوب والمفضل، وهذه خاصية المؤمنين، أما من يكفر بما يُراد له أن يكون عليه من درجات التفضيل فعليه كفره، أي فعليه بكفره الذي يخرجه من درجات الاستخلاف والتفضيل الذي يرتضيه الله لطفا بعباده.

اللطف بين الناس معاملة طيبة، ومحبة متبادلة، وقيم وفضائل خيِّرة، واللطف دائما بيد من يمتلك القوة ومع ذلك لا يستخدمها في غير وجوب وجوهها.

الوجه الثالث :

ومن وجوه لطفه أنه يؤلف بين قلوب عباده بعد فرقة وشقاق فتصبح مجتمعة على إناء واحد؛ ولأنه هو الأدرى بمصالح خلقه فينزل اللطف والرحمة كيف يشاء ومتى يشاء وعلى من يشاء، ويظهر ذلك جليا في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام، في قوله تعالى: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[٢٠]. وقوله: (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) بمعنى من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجَهِل بعضنا على بعض. وقوله: (إن ربي

---

[١٨] تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٠٤.
[١٩] فاطر، ٣٩.
[٢٠] يوسف، ١٠٠.

لطيف لما يشاء)، يقول: إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودية والرِّق والإسار. ولذلك كان اللطف بيوسف حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته. وقوله: (إنه هو العليم)، بمصالح خلقه وغير ذلك، لا يخفى عليه مبادي الأمور وعواقبها (الحكيم)، في تدبيره[٢١].

الوجه الرابع :

الطافه جل شأنه لا تتناهى ظواهرها وبواطنها في الأولى والأخرى {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا}[٢٢].

الخلفاء قول الله تعالى بالنسبة لهم هو معطيات وبراهين وحجج يُستدل بها على الحقيقة إثباتا، ولذا فهم الذين يدركون حقيقة أن نعم الله تعالى لا تحصى من قبلهم ولا من قبل الآخرين، مع علمهم بأنها محصية ومعدودة ومسجلة في لوح محفوظ لا يدركها إلا هو الذي أحصى كل شيء وعده عدا.

ومن خلال النظر في دلائل لطفه في مشاهدة الكون المعروضة للناس كنزول الماء من السماء، ورؤية الأرض بعده مخضرة فهي يقينا ظاهرة واقعة مكرورة. قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس. فأما حين يتفتح الحس الشاعر، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلبَ شتى المشاعر والأحاسيس. وإن القلب ليحس أحياناً أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين، بخضرته وغضارته تبسم في هذا الوجود الشائق البهيج! والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله: (إن الله لطيف خبير). من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته. فمن اللطف الإلهي ذلك الدبيب اللطيف. دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى، وهي نحيلة ضئيلة، ويد القدرة تمدها في الهواء، وتمدها بالقوة والشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين. وتلك النواة اليابسة

---

[٢١] الطبري، ج ١٦، ص ٢٧٧.

[٢٢] النحل، ٨١.

بلطفه تبتل فترتخي وتلين لِتُسهِّل للنبتة مخرجها بعد كمون، سبحانه بكل شيء لطيف عليم خبير[٢٣]. وَمِنْ عَجَائِب اللَّطِيف الْخَبِير أَنَّهَا تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِد؛ وَنحن بطبيعتنا نُفَضِّل بَعْضهَا عَلَى بَعْض فِي الْأُكُل المتنوع فضل من الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٢٤].

الوجه الخامس :

اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، ففي قوله تعالى: {الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز}[٢٥]. فمن لطفه خلقه الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة حبل السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة بل يتفقأ البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن وإلى أنياب للكسر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها وساقيها وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها إلى غير ذلك[٢٦].

فالله لطيف بعباده، وحفي بهم، وبار بهم، ورفيق بهم؛ فهو لطيف بالبر والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم. ولطفه بهم في الرزق ظاهر من وجهين: أحدهما – أنه جعل الرزق

---

[٢٣] في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢١٢.

[٢٤] الرعد ٤.

[٢٥] الشورى ١٩.

[٢٦] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٢.

من الطيبات. والثاني – أنه لم يدفعه مرة واحدة فيتبذر. وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عرفوه، ولطف بأعدائه لما جحدوه. قال الثقفي:

ومن شق فاه الله قدر رزقه   وربي بمن يلجأ إليه لطيف

وبناء على ما سبق فإن رزق الله لعباده وهم غير قادرين فعل خير من اللطيف القوي العزيز، ولذلك كمنت العزة في القوة الكامنة هي الأخرى في الرزق الذي رزقه اللطيف لعباده، ولهذا فإن الله هو الطيف بعبادة ويرزق من يشاء بغير حساب سبحانه ما أعظم شأنه وهو على كل شيء قدير[٢٧].

الوجه السادس:

اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويقبل عليه. فعندما ييئس العباد من العباد لا ملجئ منه إلا إليه قال تعالى: {قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون}[٢٨]. ينجيكم منها عائد على الآية السابقة لهذه الآية الكريمة في سورة الأنعام المتعلقة بظلمات البر والبحر فجاءت هذه الآية لتؤكد على النجاة منها ومن كل كرب أي من كل شدة أو عسرة أو أي غم يضيق بالنفس، ولذلك فإن لطف الله بعباده ظاهر في كل فعل من أفعال النجاة، مما يجعل المؤمنين منهم هم العباد الصالحين الذين يُراد لهم الاستخلاف في الأرض، أمَّا أولئك المشركين فهم الذين يلطف الله بهم وهم يشركون.

وبناء على ذلك ينقسم الناس إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى: هي المؤمنة بالمطلق بأسمائه وصفاته، في أقوالها وأفعالها وهؤلاء هم المستخلفون في الأرض. وهؤلاء هم الطائعون الحامدون الشاكرون الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر.

المجموعة الثانية: هي المسلمة التي لم يدخل الإيمان قلوبها بعد، فهي التي تغفل وتقصِّر في أداء عباداتها وتنسى إتّباع ما يجب، والامتناع عما لا يجب، وعندما تضيق بها الحظيرة ويلم

---

٢٧ المصدر السابق، ص ١٠٢.

٢٨ الأنعام ٦٤.

بها الكرب تعود وتلتحي إلى الله وذلك لعلمها بأنه هو اللطيف الذي لن تجد مخرجا لها من كربها إلا به فتعود إليه وقد تعود ثانية إلى لهوها وستظل هكذا حتى يدخل الإيمان في قلوبها. وهؤلاء هم من عباد الله الذين أنعم عليهم بالإسلام فيوحدون الله ولا يلتجئون إلى سواه في كل شدة أو مكروه يلم بهم، وقد يكون منهم المحظوظون بما تقدم أيدهم من أفعال الخير.

المجموعة الثالثة: هي المشركة الغائبة عن الوحدانية وأسرارها وهؤلاء منهم من يقول أن الله ثالث ثلاثة، وهم عن وحدانيته غافلون يذكرون الله كما يذكرون عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه، وهؤلاء مع أنهم يُسلِّمون بوجود الله تعالى إلا أنهم يشركون معه من خلق، وفي ذلك لا يستقيم أمرا الوحدانية.

المجموعة الرابعة: هي المجموعة المشركة التي تتخذ من دون الله أربابا، فيعبدون ما دونه وهم يظنون أن ما يعبدونه من دونه سيقربهم إليه زُلفى.

المجموعة الخامسة: هي الكافرة التي لا تؤمن إلا بما تلامسه مادة حسية مباشرة، وهؤلاء هم الكفرة الفجرة الذين انعم الله عليهم بالعقل وهم به ضالون.

وعليه لو لم يكن الله هو اللطيف الخبير بعباده لكان العقاب مقدما وليس مؤخرا، الذي خلق كل شيء يدرك أمر كل شيء، ولأنه يعلم ويدرك أمر كل شيء كان بهم لطيفا خبيرا.

الوجه السابع :

وقيل: اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب، ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا من أظهر الجميل وستر القبيح). وهو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير. وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله. وقيل: هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة[٢٩].

اللطيف هو الذي يُحبب العباد في أفعال الخير، وهو الذي يجازيهم على فعلها، وهو الذي يُمكنهم من كشف الضرر والمرض ويُمكنهم من اكتشاف علاجه، وهو الذي يُمكِّن من إدراك السيئة ويُمكِّن من سترتها بأقوال الخير وأفعاله، وهو الذي ألهمنا بالذاكرة التي تحفظ التاريخ،

---

[٢٩] تفسير القرطبي، الجزء السادس عشر، ص ١٨.

وبالعقل الذي به ندركه واحداً أحداً لا شريك له، ولذا فهو اللطيف بعباده الذين به يؤمنون، والذين به يسلمون، والذين به يشركون ويكفرون الذين قال فيهم تعالى: {فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}[٣٠]، فمهل: تعني أعطهم الفرصة ولا تستعجل عليهم، فالله لطيف بعباده، ولطفه هذا هو المحتوي لإعطاء الفرصة لهم لعلهم يتبينوا ويستبصروا الحق فيؤمنون به، فإن لم يؤمنوا ستكون العاقبة لهم أكثر شدة ويومها يدركوا انه لا نافع لهم مال ولا بنون.

الوجه الثامن:

التيسير دون التعسير، واللطف قبل الشدة، والتقدير ومراعاة الظرف والحاجة، والرحمة والمغفرة قبل العقاب، ولا يكلفه الطاعة فوق الطاقة، قال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}[٣١] وقال تعالى: {وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة}[٣٢]. وقال تعالى: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}[٣٣] وقال تعالى: {يريد الله أن يخفف عنكم}[٣٤]. في الآيات الكريمة السابقة ورد لطفه بالعباد، وتيسيره لهم سبل الحياة وتفطينه لهم بالنعم التي لا تحصى ليسعوا ويبحثوا حتى يتمكنوا من العيش الرغيد، وتبيانه لِما وهب لهم من نعم ظاهرة وباطنة وذلك لأجل أن يتذكروا ويتفكروا حتى تعمهم الهداية ويصبحوا من عباده المستخلفين في الأرض، وهذا الأمر هو الذي يُريد لهم أن يكونوا عليه اللطيف الخبير.

الوجه التاسع :

ولأن اللطيف هو الذي يمهل ولا يهمل فهو الذي لا يعاجل من عصاه، ولا يخيب من رجاه، وهو الذي لا يُرد سائله، ولا ييأس آمله، وهو الذي يعفو عمن يهفو، وهو الذي يرحم من لا يرحم نفسه. وهو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا، وجعل الصراط المستقيم

---

[٣٠] الطارق، ١٧.

[٣١] النحل ١٨.

[٣٢] لقمان، ٢٠.

[٣٣] الحج ٧٨.

[٣٤] النساء ٢٨.

لهم منهاجا، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا. والحمد لله إن المستخلفين لا يقنطون من رحمة الله.

الوجه العاشر:

يرزق من يشاء حكمة ويحرم من يشاء حكمة. ولذا في تفضيله لقوم من الأقوام بالمال حكمة، وفي تمييزه للبعض بالقدرات والاستعدادات والمهارات والعلوم والعقل حكمة، وفي خلقه الذكر والأنثى حكمة، وفي خلقه لليابسة والماء حكمة، وفي خلقه للإنس والملائكة والجن الحكمة، وفي تحكُّمه وهيمنته وخلقه بالمطلق حكمة، فجعل البعض في حاجة إلى البعض، لأجل أن يكون الوجود وجود حق فيه يجاز بالثواب من يحسن فيحسن الله إليه، وفيه من يجاز بالعقاب فيدخله نارا، ولهذا بين هذا وذاك الكثيرون منتشرون على درجات السلم القيمي الذي يرتضيه اللطيف الخبير سبحانه جل جلاله. وفي هذا وذاك سَخِرَ البعض من البعض وكان البعض للبعض فتنة مصداقا لقوله تعالى: {ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}[٣٥]. وقوله: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون}[٣٦].

الوجه الحادي عشر:

ومن لطفه أن ما من ذرة من ذرات العوالم إلا وهي في حيطة تربيته سبحانه بل ما من شيء مما أحاط به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات إلا وهو في حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آناً واحداً لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم ومهاوي البوار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته ما لا يحيط بذلك فلك التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير. وآثار تربيته تعالى واضحة المنار ساطعة الأنوار فسبحانه من رب لا يضاهى، ومنان لا يحصى كرمه ولا يتناهى ونحن في تيار بحر جوده سابحون وعن إقامة مراسم شكره قاصرون .

---

[٣٥] الزخرف، ٣٢.

[٣٦] الفرقان ٢٠.

الوجه الثاني عشر:

وما أحسن القول أنه تعالى يملك عباداً غيرك وأنت ليس لك رب سواه ثم إنك تتساهل في خدمته والقيام في وظائف طاعته كأن لك رباً بل أرباباً غيره وهو سبحانه يعتني بتربيتك حتى كأنه لا عبد له سواك فسبحانه ما أتم تربيته وأعظم لطفه ورحمته، ولأنه لطيف فهو الذي يُنسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا. ولأنه اللطيف جعل في الأرض خلائف وميزهم بالإيمان وأورثهم الأرض وجعل فيهم الخطيئة قابلة للمغفرة بكلمة استغفار ونية صادقة.

الوجه الثالث عشر:

من تفكر في عجائب صنع الإنسان وما خصه الله به من كمال الخلق والإتقان وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان وجد نفسه مغموراً في لطف مولاه مرفوقاً به في أول منشئه ومنتهاه. قال بعض الحكماء قد أدركت العقول مما أودع الله في الإنسان اثنتي عشرة ألف حكمة، وأما الذي لم تدركه العقول فلا يعلمه إلا الله هذا في خاصة نفسه. وأما في غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٣٧] وقال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}[٣٨]. فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه وقصرت الأفكار عن عظيم أوصافه وهو اللطيف الخبير ما أكثر لطائفه للمبتدئين وأوضحها للمستيفظين وأعظمها في جميع المخلوقين قد سرى لطفه في جميع الأكوان وأبهرت حكمته أفكار الأنس والجان.

قال الشاعر:

فمن لطفه حفظ الجنين وصونه ... بمستودع قد مر فيه وقد حلا
تكنفه باللطف في ظلماته ... ولا مال يغنيه هناك ولا أهلا
جرى في مجاري عرقه بتلطف ... بلا طلب جرياً على قدرة سهلا
أجرى له في الثدي لطف غذائه ... شراباً هنيئاً ما ألذوما أحلا

---

[٣٧] التين ٤.

[٣٨] عبس ٢٤.

الوجه الرابع عشر:

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده فيقول: { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[٣٩]. أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم –والحالة هذه – لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث: عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم،لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجب لكم"[٤٠].

الوجه الخامس عشر:

قال تعالى: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}[٤١]. انظر إلى سعة لطف الله تعالى في هذه الآية الكريمة وإمداده بمن شاء من عباده فانه ذكر وهب بن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الاسكندرية ابن امرأة عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان خارجا عن قومه ولم يكن بافضلهم حسبا ولا نسبا ولكنه نشأ فى ذات حسن وجمال وحلم ومروءة وعفة من لدن كان غلاما الى ان بلع رجلا ولم يزل منذ نشأ يتخلق بمكارم الاخلاق ويسمو الى معالى الامور الى ان علا صيته وعز فى قومه والقى الله تعالى عليه الهيبة ثم انه زاد به الامر الى ان حدث نفسه بالاشياء فكان اول ما اجمع عليه رأيه الاسلام فاسلم ثم دعا قومه الى الاسلام فاسلموا ثم كان من امره ما كان. انظر كيف يسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب[٤٢]. هذا ما ورد في تفسير حقي، ولكن في

---

[٣٩] يونس ١١.

[٤٠] تفسير ابن كثير ، ج ٤، ٢٥١.

[٤١] الكهف ٩١.

[٤٢] تفسير حقي، ج ٧، ص ٤٣٩.

حقيقة الأمر ذو القرنين لا يعرف أصله من حيث المكان والأقوام ولكن الآيات الكريمة ركزت على القيم من العدل والإيمان ودفع الظلم والدعوة والجهاد وإعانة المستضعفين وهو نموذج للخليفة ومثالا للحكام.

اللطيف: (صاحب المكارم والمواعظ والحكم والمعجزات) إن التجأت إليه حفظك من كل سوء، وأن قصدته بنية صافية وأنت في حاجة كانت الإجابة محققة للطموح وأكثر، وإن أحببته أدناك، وإن نمت دون أن تدري بما يحاط بك أحاطك برعايته، وإن أطعته كافك، وإن أغضبته عافاك، وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك، وإن عصيته راعاك. ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة وبسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد. ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة وإخراج العسل من النحل وأعجب من ذلك خلقه من النطفة مستودعا لمعرفته وحاملا لأمانته ومشاهدا لملكوت سمواته وهذا أيضا لا يمكن إحصاؤه .

وحظ الخليفة من هذا الوصف الرفق بعباد الله عز وجل والتلطف بهم من غير إزراء وعنف ومن غير تعصب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة.

والعبد المحظوظ هو من يستمد لطفه من اللطيف المطلق حتى يخلفه في الأرض قول وفعلٍ ويؤمن به واحد احد لا شريك له، لا إله إلا هو، لم يكن له صاحبة ولا ولد سبحانه هو الأول والآخر. ولذا فاللطف معاملة حسنة مع وافر التقدير والاحترام والاعتبار دون كلل ولا ملل طاعة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وعليه فاللطف في السلوك معاملة حسنة بين الناس، معاملة الوالدين بإحسان تولِّد الرضاء في نفوسهم على الأبناء وفي هذا الأمر لطف مشترك (لطف الأبناء بوالديهم، يولِّد لطف الله بالأبناء والآباء معا)، ولطف ربُّ العمل بالعاملين يولِّد لطف الله على العاملين وأرباب

العمل، ولطف الزوجين على بعضهما بعضا ولطفهما بأبنائهم يولد لطف الله عليهما وعلى الأبناء، ولطف الإنسان بنفسه يولّد الله فيه نفس مطمأنة.

ولهذا فالحظ الكبير للإنسان أن يعمل كل ما من شأنه أن يستمد به لطف الله حتى يصبح من المستخلفين في الأرض الذين يعملون على إصلاحها ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق.

إذن حظ الخليفة أن يكون خليفة، حتى يُدرك من لا تدركه الأبصار بعقله وقلبه الذي بهما يميِّز بين ما يجب ويقدم عليه، وبين مالا يجب ويتجنبه أو يبتعد عنه أو يعمل على إصلاحه. قال تعالى: {امنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين امنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير}[٤٣]. جاء فعل الأمر هنا لأجل الاعتراف بالحقيقة، وهي أن الله واحد أحد لا شريك له وأن محمدا رسول للواحد الأحد، أي آمنوا فإن الله واحد وأن محمدا رسوله، (وأنفقوا) تصدقوا مما رزقكم الله مصدر كل رزق، حيث لا رزق إلا منه، ولأنه منه تصدقوا حتى يلطف الله بكم، وبأحوالكم فيمدكم بواسع رحمته بالمزيد في الرزق وهذا لطفا منه جل جلاله. (مما جعلكم مستخلفين فيه) المستخلفين فيه هو من عند الله وهو مصدر الرزق الذي يمدكم به لطفا من السماء والأرض، وهذا دليل على أن أصل الملك لله تعالى، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله. والمستخلفون هم الذين ورثوا من سبقهم من الأقوام التي زالت وانتهت، وهم الذين سيتركونها دون أن يبقى لهم شيئا منها إلا الأعمال الصالحة التي تجعلهم خلفاء في الجنة دائمين. ولذلك يترتب الأجر الكبير على الإنفاق في وجه الله دون تبذير أو إسراف وفي الأوجه التي يرتضيها الله وفقا لِما نصَّ عليه في كتابه العزيز.

قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرِ}[٤٤]. فمعنى البصر: هو الجهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر، به تدرك المبصرات، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، فالأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيآت، إنه الواحد الأحد الذي تدركه العقول

[٤٣] الحديد ٧.

[٤٤] الأنعام، ١٠٣.

وتطمأن إليه القلوب، وهو الذي يُدرك الأبصار والعقول وما خلق مما نعلم وما لا نعلم سبحانه هو العليم الحكيم (وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار) وهو لِلُطفِ إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك. (وَهُوَ اللطيف) يلطف عن أن تدركه الأبصار. (الخبير) بكل أمر وفعل، ولطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف[45]. ولأن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر، فإن الخبرة تناسب من يدرك شيئاً ومن يدركها يكون خبيراً بها وخبيرا بأمرها[46].

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ). ومما لا يليق بصفات الباري أن يكون اللطف بمعنى الدقة والغموض، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام، وذلك في حق الله ممتنع، فوجب المصير فيه إلى التأويل، وهو من الوجوه الآتية:

الوجه الأول: المراد لطف صنعه في تركيب أبدان الحيوانات من الأجزاء الدقيقة، والأغشية الرقيقة، والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى.

الوجه الثاني : أنه سبحانه لطيف في الإنعام والرأفة والرحمة.

والوجه الثالث: أنه لطيف بعباده، حيث يثني عليهم عند الطاعة، ويأمرهم بالتوبة عند المعصية، ولا يقطع عنهم سواد رحمته سواء كانوا مطيعين أو كانوا عصاة.

الوجه الرابع: أنه لطيف بهم حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم، وينعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم.

وأما الخبير: فهو من الخبر وهو العلم والتجربة والمعايشة والمعرفة التامة عن وعي ودراية، والمعنى أنه لطيف بعباده مع كونه عالماً بما هم عليه من ارتكاب المعاصي والإقدام على القبائح، وقيل (اللطيف): أنه يلطف عن أن تدركه الأبصار وهو الخبير بكل لطيف، فهو يدرك الأبصار، ولا يلطف شيء عن إدراكه، وهذا وجه حسن. و(اللطيف): الوجه فيه هو أنه إذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شيء له لطف ففي اللطيف لطف

---

[45] الكاشف للزمخشري، ج ٢، ص ١٥٣.

[46] الإيضاح في علوم البلاغة، ج ١. ص ١١٢.

وشيء آخر، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفاً. واختلفوا في اللطيف فقال بعضهم: المراد العالم. وقال آخرون: بل المراد من يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إن لطف الله بعباده عجيب، ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكراراً[٤٧].

ولأنه لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فله الصفة التنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، فيكون الاختيار للتّعبير عن هذا الوصف في جانب الله تعالى هو منتهى الصّراحة والرّشاقة في الكلمة. وهو الّذي ينبغي التّفسير به في كلّ موضع اقترن فيه وصف اللّطيف بوصف الخبير كالّذي ورد هنا والّذي ورد في سورة المُلك. وعلى هذا المعنى حمله سائر المفسّرين والمبيّنين لمعنى اسمه اللّطيف في عداد الأسماء الحسنى. وهذا المعنى هو المناسب في كلّ موضع جاء فيه وصفه تعالى به مفرداً معدّى باللاّم أو بالباء نحو {إنّ ربّي لطيف لما يشاء}[٤٨]. وقوله في سورة الشورى: {الله لطيف بعباده}[٤٩].

قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[٥٠]. في هذه الآية ينادي لقمان ابنه لأجل أن يعظه بالمعجزات المتضمنة في دائرة المتوقع وغير المتوقع بالأوزان والمقاييس التي يعرفها الإنسان، وفي هذا الأمر إظهار ما يعجز الإنسان عنه بقوة الإرادة الإلهية التي هي من صفات اللطيف ذو القدرة المطلقة. و(مثقال حبة الخردل) هو الذي يقال عنه أن الحس لا يدركه إن وقع على ملمسه، وذلك لبلاغته في الخِفة الوزنية أو القياسية. وفي هذه الآية تنويه على الأعمال الحسنة (الخيرة) والسيئة (الشريرة) ولذلك فإن الله لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة

---

[٤٧] تفسير الرازي، ج ٦، ص ٤٢٥.

[٤٨] يوسف، ١٠٠.

[٤٩] الشورى، ١٩.

[٥٠] لقمان ١٦.

مهما صغرت في السماوات أو في الأرض؛ إنه اللطيف بالعباد يضاعف الحسنات لمن يشاء ويغفر الذنوب والخطايا لمن يشاء.

واللطيف: مَن يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقُدرة الكاملين. ففي تعقيب (يأت بها الله) بوصفه بـ (اللطيف) إيماء إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من عدم اختلال نظام صُنعه. وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح[٥١].

قال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[٥٢]. هذه الآية توطئة للآية {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه}[٥٣]. لأن ما ذكر في الآية الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم وما يَسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدّنيا، ثم ما خصّ به المؤمنين من رزق الآخرة.

واللطيف: البَر القوي البِرّ. ويدخل في هذا كثير من النعم. والمعنى: أنه للطفه بجميع عباده لا يترك أحداً منهم بلا رزق وأنه فضَّل بعضهم على بعض في الرزق جرياً على مشيئته. فاللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن يُشرف العبد على الهلاك[٥٤].

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله: (لَطيفٌ بِعِبَادِهِ) أي يعلم غوامضَ أحوالهم . من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم. وخاطَبَ العُصاةَ بقوله: «لطيف» لئلا ييأسوا من إحسانه. ويقال: خاطَبَ الأغنياءَ بقوله: (لطيف): ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل، وخاطَبَ الفقراءَ. بقوله: (لطيف) أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من

---

[٥١] التحرير والتنوير، ج ١١، ص ١٢٧.

[٥٢] الشورى ١٩.

[٥٣] الشورى ٢٠.

[٥٤] تفسير السعدي ، ج ١، ص ٥٤٤.

يشاء. ويقال: سماعُ قوله: (اللَّهُ) يوجِبَ الهيبةَ والفزع، وسماعُ (لطيفٌ) يوجِبُ السكونَ والطمأنينة. فسماعُ قوله: (اللَّهُ) أوجب لهم تهويلاً، وسماع قوله: (لطيفٌ) أوجب لهم تأميلاً. ويقال: مَنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف. ويقال: مِنْ لُطفِه بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه، وأَقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه. فأراده أن يستكثِرَ في الوقت من الطاعة. ويقال: من لطفه بالعبد إخفاءُ أَجَلِه عنه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه. ويقال: من لطفه بالعبد انه يُنْسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة. ويقال: اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار[٥٥].

(اللطيف) العالم بدقائق الأشياء يرى اثر النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء . فان قلت: ذكر الخبير بعد اللطيف تكرار. قلت. لا تكرار فيه، إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضاه وما دق منها وما لطف ثم يسلك فى ايصالها الى المستصلح على سبيل الرفق دون العنف فاذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى الادراك تم معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك فى العلم والفعل إلا الله تعالى. والله لطيف بعباده ومن لطفه بهم انه يوصل اليهم ما يحتاجون اليه بسهولة فمن قوته رغيب لو تفكر فيه يعلم كم عين سهرت فيه من اول الامر حتى تم وصلح للاكل من الحارث والباذر للبذر والحاصد والدآيس والمذري والطاحن والعاجن والخابز ويتشعب من ذلك الآلات التى تتوقف عليها هذه الاعمال من الاخشاب والحجارة والحديد والحبال والدواب بحيث لا تكاد تتحصر وهكذا كل شئ ينعم به على عبده من مطعوم ومشروب وملبوس فيه مقدما كثيرة لو احتاج العبد الى مباشرتها بنفسه لعجز عن ذلك ومن سنة الله سبحانه حفظ كل لطيفة فى طى كل كثيفة كصيانة الودآئع فى المواضع المجهولة ألا ترى انه جعل في التراب الكثيف معدن الذهب الفضة وغيرهما من الجواهر وفي الدر معدن الشهد وفي الدود معدن الحرير وكذا جعل قلب

---

[٥٥] تفسير القشيري، ج ٧، ص ١٧٧.

العبد محلا ومعدنا لمعرفته ومحبته وهو مضغة لحم فالقلب خلق لهذا لا لغيره فعلى العبد ان يطهره عن لوث التعلق بما سوى الله فان الله تعالى لطف به بإيجاده ذلك القلب فى جوفه[٥٦].
قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[٥٧]. ختم الله تعالى هذه السورة بهذ اللطف بالحثّ على التحمل، ووعد بأننا اذا تحلّينا بهذه الاخلاق فانه سيكون معنا وينصرنا ويوفقنا لِما يحبه ويرضاه. ادعُ يا محمد الى دين ربك بالحكمة، والقول اللطيف بالموعظة الحسنة، وجادل من يخالفك بالتي هي أحسن، وان اردتم عقاب من يعتدي عليكم ايها المسلمون فخذوا حقكم بان تعاقبوا بمثل ما فعل بكم، وتأكدوا أنكم إن صبرتم وتسامحتم ولم تقتصوّوا لانفسكم فإنه خير لكم في الدنيا والآخرة، لما في ذلك من ضبط النفس واستجلاب القلوب. فعاقِبوا لأجل الحق، ولا تعاقبوا لأجل أنفسكم أو من أجل باطل. إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها، والذين يحسنون في كل شيء، فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ومع ذلك لا تستسلموا للعدو، فإن استسلمتم له قد يقدم على تشويه دينكم، ولهذا من حقكم التسامح والتصافح والتصالح ولكن كل ذلك لا يكون على حساب الدين والعِرض والكرامة. نسأل الله تعالى ان يجعلنا من الصالحين والمصلحين في هذه الأرض لِما يحبه ويرضاه، وأن يجعلنا من الوارثين في جنة النعيم، وان يوفِّق امتنا إلى الإحسان والتقوى والاتحاد، والحمد لله رب العالمين[٥٨].
{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[٥٩]. هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه فقال: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تُسمع وتُرى؟! ثم تساءل جل جلاله: –

---

[٥٦] تفسير حقي، ج ١٥، ٤٥٦.
[٥٧] النحل، ١٢٥، ١٢٦.
[٥٨] تفسير القطان، ج ٢، ص ٣٣٦.
[٥٩] الملك ١٣.

مستدلا بدليل عقلي على علمه-: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) وفي هذا التساؤل، استدل بدليل عقلي، أي فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! إنه تساؤل استغرابي يشير إلى أصحاب العقول الذين لا ينظروا إلى الكيفية التي تكون عليها الخلائق أو التي كانت عليها حتى يُدركوا أنه الحق. (وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي (يعلم السر وأخفى) ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من (العبد) على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة[٦٠].

وقوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فإنه سبحانه لما قدم نفى إدراك الأبصار له عطف على ذلك قوله وهو اللطيف خطابا للسامع بما يفهم إذ العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار ألا ترى أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون والكون من كل متكون فإدراكها إنما هو للمركبات دون المفردات ولذلك لما قال وهو يدرك الأبصار عطف عليه قوله الخبير مخصصا لذاته سبحانه بصفة الكمال لأنه ليس كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشئ لأن المدرك للشئ قد يدركه ليخبره ولما كان الأمر أخبر سبحانه وتعالى أنه يدرك كل شئ مع الخبرة به وإنما خص الإبصار بإدراكه ليزيد في الكلام ضربا من المحاسن يسمى التعطف ولو كان الكلام لا تبصره الأبصار وهو يبصر الأبصار لم تكن لفظتا اللطيف الخبير مناسبتين قبل لما قبلهما[٦١].

وقوله: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) دَلَّتْ عَلَى عِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ مِنْ وُجُوهٍ تَضَمَّنَتْ الْبَرَاهِينَ لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ وهذه الوجوه هي:

---

[٦٠] تفسير السعدي، ج ١، ص ٨٦٧ . ٨٧٧.

[٦١] البرهان، ج ١، ص ٨٠، ٨١.

الأول: أَنَّهُ خَالِقٌ لَهَا وَالْخَلْقُ هُوَ الْإِبْدَاعُ بِتَقْدِيرٍ فَتَضَمَّنَ تَقْدِيرُهَا فِي الْعِلْمِ قَبْلَ تَكْوِينِهَا. الثاني: أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ ؛ فَيَلْزَمُ تَصَوُّرُ الْمُرَادِ وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ.

الثالث: أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْهُ وَهُوَ سَبَبُهَا التَّامُّ وَالْعِلْمُ بِالْأَصْلِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالْفَرْعِ فَعِلْمُهُ بِنَفْسِهِ يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَطِيفٌ يُدْرِكُ الدَّقِيقَ خَبِيرٌ يُدْرِكُ الْخَفِيَّ وَهَذَا هُوَ الْمُقْتَضِي لِلْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ فَيَجِبُ وُجُودُ الْمُقْتَضِي لِوُجُودِ السَّبَبِ التَّامِّ[٦٢].

فَالْأَعْرَابُ أَهْلٌ لِلنَّظَرِ عَلَى طَرِيقِ الْعَامَّةِ، كَمَا قَالَ الْأَصْمَعِيُّ لِأَعْرَابِيٍّ : بِمَ عَرَفْت رَبَّك؟ فَقَالَ: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَأَثَرُ الْأَقْدَامِ عَلَى السَّيْرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ وَبُحُورٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟[٦٣].

اللطيف: هو متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك، قلت من أسمائه تعالى اللطيف والرحيم فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلى كل حال سواء أعطاهم أو منعهم وسواء بسطهم أو قبضهم فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم بره وأحسانه فعرفوا أنه سبحانه بار بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد محسن فتعظم محبتهم فيه ويكثر شوقهم وأشتياقهم إليه ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم وفي هذا مالا مزيد عليه من البر والأحسان والجود والامتنان. وأن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم وقلت ذنوبهم ومحيت مساويهم وأضمحلت خطيئتهم فوردوا يوم القيامة خفافاً مطهرين فرحين مبهجين إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين فمن أخافه في الدنيا آمنه يوم القيامة ومن آمنه في الدنيا فأغتر أخافه يوم القيمة كما في الحديث فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء فإنه متى أعطاك أشهدك بره

---

[٦٢] مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٣، ص ٤٠٣.

[٦٣] شرح النيل وشفاء العليل، ج ٣٥، ص ٦٤.

ورحمته وكرمه فعرفت بذلك أنه بر كريم رؤوف رحيم فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره فتتحرر من رق الطمع ويذهب عنك الغم والجزع وتتخلق أيضاً بوصف الكرم والرحمة والأحسان فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه وفي الحديث تخلقوا بأخلاق الرحمن وقالت عائشة رضي الله عنها كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن والقرآن فيه أوصاف الرحمن فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمن[٦٤].

إن الذين يتخلَّقون بأخلاق القرآن هم المؤمنون حقا الذين قال فيهم عز وجل: {فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ثم بعثنا من بعدهم رُسُلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين}[٦٥]. الضمير عائد على نوح عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه، وهم (الخلائف) وفي هذه الآية الكريمة جاء استثناء الجزء من الكل، فالكل في الأصل هم الذين يراد لهم أن يكونا خلائف ليرثوا الأرض ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء فيها بغير حق، وجاء الاستثناء من الاستخلاف للذين كذبوا وهم المفسدون وسافكو الدماء فيها بغير حق، ولذا هم الذين كانت لهم العاقبة الكبرى بأسباب إنذارهم من قبل الرُسُل وكفرهم بما نُذروا به، فحق عليهم القول فدمروا بالغرق تدميرا، وهكذا يتجدد التدمير للذين يفسدون ويسفكون الدماء فيها بغير حق.

والآية الكبرى من هذه الآية، إن الذين آمنوا بماء جاءهم به الرُسُل والأنبياء بقوا على الأرض مستخلفين فيها بالحق، وهذا لطف من اللطيف الخبير الذي بيده كل الخير.

(ثم بعثنا من بعده رُسُلا إلى قومهم) المقصود من بعد نوح عليه الصلاة والسلام وهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم (فجاءوهم بالبينات) فجاءوا بالبينات الواضحات التي لا لبس ولا غموض ولا شك فيها، إنها اليقين من

---

[٦٤] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ج١ ، ص ١١٠.

[٦٥] يونس ٧٣، ٧٤.

اللطيف الحكيم. ومع ذلك لقد تم تكذيب الذين أتوا من بعده بالمعجزات نبأ أو رسالة من اللطيف المطلق.

(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أي نثبت ونختم على قلوب المجاوزين بكفرهم حدود الاستخلاف في الأرض.

فهمنا الله وإياكم مواقع خطابه وجعلنا ممن تأدّب بما عرفناه من آدابه إنه اللطيف بأحبابه.

من التحلي باللطف كصفةً من الصفات التي تنشر الرحمة والمودة وتكون مدخلا إلى الإسلام ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع أحد الذين تطاولوا عليه ليتأكد من لطف أخلاقه و صبره وحلمه صلى الله عليه وسلم، ولما أكد النبي صلي الله عليه وسلم بالدليل العملي ما كان يصبو إليه المختبر دخل الرجل الإسلام وأصبح هذا الموقف من المواقف التي يتعلم منها الناس جميعا اللطف في المعاملة، واللطف الذي نعنيه يشمل الصبر على الأذى والحلم عند الغضب والعفو عن المسيء عند المقدرة، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: "إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدي زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا شيئين لم أخبرهما منه هل يسبق (حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما)، فكنت ألطف به لئن أخالطه فأعرف حلمه من جهله، قال زيد بن سعنة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأتاه رجل على راحلته، فقال: يا رسول الله إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا آتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت فنظر إلي رجل وإلى جانبه أراه عليا رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله ما بقي منه شيء، قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت: يا محمد هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال: (لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل معلوم، ولا أسمي حائط بني فلان) فقلت: نعم، فبايعني، فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في

تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا فأعطاها الرجل، فقال: اعدل عليهم وأعنهم بها، فقال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي فو الله ما علمتم يا بني عبد المطلب سيئ القضاء مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وتصنع به ما أرى فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: (يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه اذهب به يا عمر فأعطه حقه، وزده عشرين صاعا من تمر) فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر، قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما نقمتك قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فقال: من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة، قال: الحبر، قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت، وقلت له ما قلت؟ قلت له: يا عمر، لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: (هل يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما) فقد اختبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرهم مالا – صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم قلت: أو على بعضهم، فرجع زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفي زيد في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر ورحم الله زيدا"[٦٦]. فاللطف في المعاملة وحلم الأخلاق حولا الكافر إلى مؤمن أوقف نصف ماله على الأمة التي انتسب إليها، وقد أسلم زيد وحسن إسلامه ونال شرف الشهادة في مؤتة مقبل غير مدبر كما تروي كتب السيرة.

---

[٦٦] المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج ١٥ ، ص ٢١١

وهذا السلوك النبوي مرده إلى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}[٦٧] فمن شدة اللطف لا يقابل الإساءة بمثلها ولا ينسيه الغضب التحلي باللطف والصفح والحلم والبر ولهذا نبّه النبي صلى الله عليه وسلم على ضرورة البعد عن الغضب في الوصية الموجزة التي أوصى من جاء يطلب الوصية والنصيحة. فعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَعِيشُ بِهِنَّ وَلَا تُكْثِرْ عَلَيَّ فَأَنْسَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَغْضَبْ)[٦٨].

ومن اللطف كظم الغيظ والعفو عن الناس قريبهم وبعيدهم وهما من صفات التقوى والإحسان فيقول الله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٦٩] وقوله تعالى: {والكاظمين الغيظ} بكظم الغيظ والسكوت عليه وعدم ظهوره لا بقول ولا بفعل، والكاظمين الغيظ هم الذين يكفون غيظهم عن الانتقام لأنفسهم ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا اللطف من الصبر والحلم وهو كقوله: {وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ} فبلطف الأخلاق يسيطر الخليفة على غضبه ويطفئ بلطفه نار ثورته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا"[٧٠].

فمن اللطف كظم الغيظ والعفو والتحكم في النفس، لذا فمن يحكم نفسه أحسن من الذي يحكم مدينة وهنا يكون المؤمن سيدا ملكا متوجا بخلق رحماني لا يتطلب إلا اللطف واللين والبر والرفق وكلها مندرجة في اللطيف اسما لله وصفة في المتخلق بأسماء الله.

قال الشاعر:

إن اللطيف من الأسماء معلوم ... ولطفه ظاهر في الخلق موسوم
هو اللطيف فما يبدو لناظرنا ... وكيف يدرك لطف الذات معدوم

---

[٦٧] الشورى، ٣٧

[٦٨] المنتقى – شرح الموطأ ، ج ٤ ، ص ٢٩٥

[٦٩] آل عمران١٣٤

[٧٠] ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج ٢ ، ص ١٩٣

لطف اللطيف بنا نعت له ولنا ... فاللطف في عينه عليه محكوم[٧١]

فالله اللطيف لا يدرك ولا يضرب له المثل ولا يجادل فيه لقوله تعالى:{ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٧٢].

واللطيف هو الكريم وقد جاء هذا المعنى بلفظ رائق رائع مريح للنفس مع أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكان سيدنا إبراهيم من أكرم البشر حتى أطلق عليه أبو الضيفان قال الله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[٧٣]

فلأن الله كان حفيا بسيدنا إبراهيم فقد تعامل مع أبيه أو عمه على حسب التفاسير بلطف وكرم فقال له: (سلام عليك). لماذا؟ لأنه قد تعلم الكرم من الكريم واللطف من اللطيف جل جلاله.

(سلام عليك) أمان لك مني ولن أعاودك فيما كرهت وسأطلب لك المغفرة من ربي، وهذا من لطف سيدنا إبراهيم في الدعوة إلى الله، ويؤكد أن الله لطيفا برا كريما (إنه كان بي حفيا) لطيفاً بي مكرماً لي يجيبني لما أدعوه له.

وكما أن السلام فيه السلامة من الأذى ومن كل مكروه فسَلَامٌ عَلَيْكَ تعني سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره، وهذا سلام هجران ومفارقة وسلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه. قال الله تعالى: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}[٧٤]، وقوله تعالى: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وفي هذا القول الحق ملاطفة في المعنى والدلالة، وذلك لوثوقه من وجوب خفض جناح الذل من الرحمة، وطلب المغفرة للجاهل لأجل أن يتوب ويهتدي للحق، ولذا لا يكون الإستغفار إلا من خليفة مؤمن بالله واحدا أحدا، وفي هذا الأمر يتضح لطف الخليفة في المعاملة الحسنة، وذلك بأسباب استمداده للصفات الحسان من اللطيف المطلق جل جلاله.

---

[٧١] الفتوحات المكية ، ج ٤ ، ص ١٤٧

[٧٢] النحل، ٧٤

[٧٣] مريم ٤٧.

[٧٤] الفرقان ٦٣.

ومن مظاهر التحلي باللطف كخلق راق أن يكون الكلام لين مع الجميع لا فحش فيه ولا شدة ولا نهر وهذا يستمد بالطبع من القرآن الكريم والهدي المحمدي، فيقول الله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}[٧٥] وهذا حالهم في المُعاملة مع غيرِهم فإذا خاطبُوهم بالسُّوءِ قالوا سلاما لا خيرَ بيننا وبينَكمُ ولا شرَّ وهذا اللين في القولِ يسلمُون به من الأذيَّةِ والإثمِ، وحث على اللطف مع الجاهلين بحقيقة الأشياء، فالكلام الطيب اللطيف من أعظم الأشياء التي ترضي الله والعباد، لأن اللطف في الكلام يؤلف القلوب ويريح النفوس ويدخل الطمأنينة، ويجمع الشتات من الناس، قال الله تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٧٦] وقوله عز وجل: (فبما رحمة من الله لنت لهم) فبرحمة من الله لنت لهم وبحسن أخلاقك وكثرة احتمالك وعدم التسرع بتعنيفهم، وهذا اللطف توفيق الله عز وجل لنبيه محمداً صلى الله عليه وسلم للرفق والتلطف بهم وإن الله تعالى ألقى في قلب نبيه صلى الله عليه وسلم الرحمة واللطف حتى فعل ذلك معهم (ولو كنت فظاً) جافياً (غليظ القلب) قاسي القلب، قليل الاحتمال (لانفضوا من حولك) لنفروا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك (فاعف عنهم) تجاوز عن زلاتهم (واستغفر لهم) واسأل الله المغفرة لهم، وهذا كله لطف من اللطيف الخبير عز وجل.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَقَالَ كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. قَالَ صلى الله عليه وسلم: أَفْشِ السَّلَامَ وَأَطْعِمْ الطَّعَامَ وَصِلْ الْأَرْحَامَ وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ثُمَّ ادْخُلْ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ"[٧٧].

---

[٧٥] الفرقان ٦٣

[٧٦] آل عمران، ١٥٩

[٧٧] مسند أحمد ، ج ١٦ ، ص ١٣٢.

ومن اللطف إطعام الطعام لأنه من أعظم القربات عند الله أن يطعم الإنسان أخيه الإنسان خبزا أو يدخل السرور إلى قلبه بحاجة يقضيها أو دين يدفعه عنه، وبأسباب لطفه نعود للطعام لأن فيه بذل القوت الذي هو أساس الحياة فيقول الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[٧٨] ففي الآية جمع لمن يستحقون الطعام من مساكين وأيتام وأسرى وهؤلاء يغل عنهم كثير من الناس إلا من رحم ربي ووضع في قلبه اللطف والشفقة والرحمة، وليس ذلك فحسب بل ببذل لطعام مع الاحتياج إليه وهذا قمة البذل والعطاء، وقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [٧٩] وتوضح الآية أنواعا من البر واللطف بشكل أوسع، وما في الآية من صفات للمحسنين الذين تخلقوا بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الذي تخلق بخلق القرآن الكريم، ولأن الخلق الطيب لا يكون إلا من مصدر لطيف طيب، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ، أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[٨٠] فبذكر الله تلين القلوب وتطمئن ويطيب الكلام وينتشر السلام وتعم الرحمة بواسع لطفه، قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٨١].

---

[٧٨] الإنسان، ٨

[٧٩] البقرة، ١٧٧

[٨٠] صحيح مسلم ، ج ١٣ ، ص ٢٦٦

[٨١] آل عمران، ١٩٠ ، ١٩١

وهؤلاء هم المؤمنون الذين تخلقوا بخلق القرآن وبهدي الحبيب صلى الله عليه وسلم الذين يطمئنون بذكر الله قولا وعملا ويريحون غيرهم بلطفهم وبرّهم وهم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[٨٢].

وهذا نزر يسير من ألطاف الله اللطيف ومن الأخلاق التي يتحلى بها الخليفة من موادعة ورقة ومودة ومحبة ولين ورفق وسلام وكلها تستمد من اسم الله اللطيف.

اللهم إنك اللطيف بودِّك وعفوك ورحمتك فأعفو عنا وارحمنا بلطفك وودّك، اللهم إننا نعلم يقينا إنك تعذب من تشاء وتعفو وترحم عمن تشاء وتحاسب وتعاقب من تشاء اللهم اجعلنا من عبادك الذين أنت بهم لطيف ولا تجعلنا من المعذبين في النار يا اللطيف يا القهار يا عالم الأخبار والأسرار، سبحانك ما أعظم شأنك لطيف بالجنين في بطن أمه ترزقه من أحشائها ولطيف به رضيع تغذيه من لبنها، ولطيف بشبابه تمده برزق وقوة من رزقك وقوتك، ولطيف بعجزه تمده بالرعاية والعناية من غير ما يحتسب، اللهم الطف بنا وأبنائنا وأزواجنا رعاية وعناية تامة ورزقا حلال، اللهم إنك اللطيف تعلم ما تخفي صدورنا وما تبديه وتعلم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فالطف بحالنا وأحوالنا وارزقنا وارحمنا إنك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سبحانك يا من لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. اللهم يا اللطيف اجعلنا من الذين يقيمون الصَّلَاةَ وَيأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَينهون عَنِ الْمُنْكَرِ واجعلنا من الصابرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

---

[٨٢] الرعد، ٢٨

الخبير

اسم الله تعالى (الخبير) يأتي بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وسمي صاحبها خبيرا[٨٣].

الخَبِيرُ من أَسماء الله الحسنى وهو العالم بما كان وما يكون وخَبُرْتُ بالأَمر، أَي علمته وخَبَرْتُ الأَمرَ أَخْبُرُهُ إِذا عرفته على حقيقته وقوله تعالى: {فاسْأَلْ بهِ خَبِيرا}[٨٤] أَي اسأَل عنه خبيراً يَخْبُرُ؛ والخَبَرُ ما أَتاك من نَبأٍ عمن تَسْتَخْبِرُ، والجمع أَخْبَارٌ وأَخابِير جمع الجمع فأَما قوله تعالى في سورة الزلزلة: (يومئذٍ تُحَدِّثُ أَخَبْارَها) فمعناه يوم تزلزل تُخْبِرُ بما عُمِلَ عليها

---

٨٣ – المقصد الأسنى، ص ٩٣

٨٤ الفرقان ٥٩.

وخَبَّرَه بكذا وأَخْبَرَه نَبَّأَهُ واستَخْبَرَه سأَله عن الخَبَرِ وطلب أَن يُخْبِرَهُ. والاسْتِخْبارُ والتَّخَبُّرُ السؤال عن الخَبَر وفي حديث الحديبية أَنه بعث عَيْناً من خُزَاعَةَ يَتَخَبَّر له خَبَرَ قريش أَي يَتَعَرَّفُ يقال تَخَبَّرَ الخَبَرَ واسْتَخْبَر إِذا سأَل عن الأَخْبارِ ليعرفها والخابِرُ المُخْتَبِرُ المُجَرِّبُ ورجل خابر وخَبِير عالم بالخَبَرِ والخَبِيرُ المُخْبِرُ وقال أَبو حنيفة في وصف شجر أَخْبَرَني بذلك الخَبِرُ فجاء به على مثال فَعِلٍ قال ابن سيده وهذا لا يكاد يعرف إِلاَّ أَن يكون على النسب وأَخْبَرَهُ خُبُورَهُ أَنْبأَهُ ما عنده وحكي اللحياني عن الكسائي ما يُدْرَى له أَيْنَ خَبَرٌ وما يُدْرَى له ما خَبَرٌ أَي ما يدرى وأَين صلة وما صلة والمَخْبَرُ خلاف المَنْظَرِ وكذلك المَخْبَرَةُ والمَخْبُرَةُ بضم الباء وهو نقيض المَرْآةِ والخِبْرُ والخُبْرُ والخِبْرَةُ والخُبْرَةُ والمَخْبَرَةُ والمَخْبُرَةُ كله العِلْمُ بالشيء تقول لي به خِبْرٌ وقد خَبَرَهُ يَخْبُره خُبْراً وخُبْرَةً وخِبْراً واخْتَبَره وتَخَبَّرَهُ يقال من أَين خَبَرْتَ هذا الأَمر أَي من أَين علمت؟ وقولهم لأَخْبُرَنَّ خُبْرَكَ أَي لأَعْلَمَنَّ عِلْمَك يقال صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ وأَما قول أَبي الدرداء وجدتُ الناسَ اخْبُرْ تَقْلَه فيريد أَنك إِذا خَبَرْتَهُم قليتهم فأَخرج الكلام على لفظ الأَمر ومعناه الخَبَرُ والخُبْرُ مَخْبُرَةُ الإِنسان والخِبْرَةُ الاختبارُ وخَبَرْتُ الرجل أَخْبُرُه خُبْراً وخُبْرَةً والخِبْيرُ العالم قال المنذري سمعت ثعلباً يقول في قوله كَفَى قَوْماً بِصاحِبِهِمْ خَبِيرا فقال هذا مقلوب إِنما ينبغي أَن يقول كفى قوماً بصاحبهم خُبْراً[٨٥].

الخبير من الأسماء الحاصلة بسبب العلم: قال تعالى: في حق الملائكة {سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}.

واعلم أنه لا يجوز أن يقال إن الله معلم لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة، ولا يجوز إطلاق لفظ العلامة على الله تعالى؛ لأنها وإن أفادت المبالغة لكنها تفيد أن هذه المبالغة إنما حصلت بالكد والعناء، وذلك في حق الله تعالى محال.

ولفظ الخبر والخبرة، كالمرادف للعلم، حتى قال بعضهم في حد العلم: إنه الخبر.

---

[٨٥] لسان العرب المحيط، ج ٤، ص ٢٢٦.

الاسم الخبير ذو صلة بأسماء إلهية أخرى مثل البصير والحكيم والعليم واللطيف وعادة ما تأتى هذه الأسماء قبل الاسم الخبير وهذا ما ورد في عموم القرآن الكريم إذا كان الاسم معرفا بال، وقد ورد الاسم نكرة، بلفظ (خبير) لتوضيح مدلول (الرحمن).

وقد جاء اسم الخبير وصفة خبير لكلٍ منهما دلالة أما الاسم فقد جاء في ست آيات؛ والصفة جاءت اثنتا عشرة مرةً[٨٦].

الاسم بصيغة المعرفة:

قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٨٧].

جاء الاسم هنا مع الاسم القاهر والحكيم وهو بمثابة الوسيلة الناجعة في السيطرة على العباد بحكمة تتممها الخبرة حتى لا يكون القهر مسرفاً فيؤذي العباد ويضرّ بهم، و في الآية إشارة للإنسان الذي استخلفه الله حتى يمارس القهر والغلبة بحكمة وخبرة مع من يريد أن يقهر الآخرين أو يلحقهم بضرر، وذلك من أجل أن لا تفسد الأرض محل الخلافة التي وهبها الله للإنسان.

فالخبير هو مالك المعرفة التامة والمطلقة التي بها لا يمكن أن تحدث الأخطاء كما هو حال البشر الذين لم يبلغوا صور الكمال ولن يبلغوه، ولهذا جاء الاستخلاف للإنسان الذي يُدرك الحق ويتبعه.

وعليه فالقاهر فوق عباده هو الخبير بحكمته، التي بها يحقق المغالبة قهرا. وقهرا تدل على حدوث الفعل بالقوة التي لا تواجهها قوة ولو اجتمعت.

وبناء على ذلك كلما امتلك الإنسان الخبرة بوعي ودراية ومارسها بحكمة تغلَّب وتفوَّقَ على خصمه من الذين لا خبرة لهم، وخبرة الإنسان تُستمد من خبرته بالخبير الحكيم الذي استخلفه في الأرض، من خلال إلمامه بما أنزل من الآيات والذكر الحكيم. ولهذا لا قهر إلا بقوة، ولا قوة إلا من حكيم خبير.

---

[٨٦] لسان العرب، ج ٤، ص ٢٢٦.

[٨٧] الأنعام، ١٨.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٨٨].

والله يذكّر الإنسان أنه سبحانه الذي خلق الكون من أرض وسماء بالحق أي بحكمة وله الأمر المطلق يوم النفخ وهو يعلم غيب الإنسان وشهادته ،لأن الله ليس عنده غيب، ولكن الغيب عند الإنسان وعند الملائكة وما خلق وذرأ وبرأ في عالمه المرئي وغير المرئي،

والغيب أنواع ثلاثة:

غيب جزئي:

يعلمه الخلق العاقل فعلى سبيل المثال: قد يعلم الإنسان شيء لا يعلمه غيره من البشر مثل كم يملك ومتى نام ومتى استيقظ وماذا ينوي أن يعمل غدا، وهذا شهادة عند صاحب هذه الأشياء وغيب عند آخرين، ومع ذلك قد لا يبلغ اليوم الغد الذي ينوي أن يعمل فيه الشيء الذي قد أضمره في نفسه، بأسباب علم الغيب المطلق.

والجزء هو المختزل في الكل، والمحتوى على المتجزئ والمختزل له، فكلمة رجل، تختزل كل الرجال فيها، وهى جزء من كلمة إنسان. وكلمة عصفور، تتكون من كل العصافير المتجزئة من كلمة طير، وبمختلف أنواع العصافير وأشكالها وألوانها، وأماكن تواجدها، ولذلك فهناك من ينتقل في تحليله من الكل إلى الجزء، وهناك من ينتقل من الجزء إلى الكل. فهذه طرق وأساليب لا ينبغي قولبتها، بل يفضل أن تكون المرونة في استعمالاتها، ولهذا لا جزء إلا من كل. فجسم الإنسان كوحدة واحدة كلي، وأطرافه جزء منه، والفؤاد كذلك، والقلب جزء من الفؤاد، والبطين جزء من القلب. والإنسان كفرد، جزء من الجماعة، والجماعة جزء من المجتمع، والمجتمع جزء من الأمة ، والأمة جزء من البشرية على مستوى المعمورة، وهكذا تتجزأ الأشياء زيادة أو نقصان من الكل أو إليه.

غيب متجزئ: الغيب المتجزئ، هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الخبراء، وهم الذين يعلمون بالكيفية التي يمكن أن تكون عليها الأشياء أو المخلوقات، ولهذا يتساءل الله الخبير المطلق

---

[٨٨] الأنعام، ٧٣.

بقوله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر}[٨٩].

في هذه الآية الكريمة لم يأت التساؤل عن الإبل، بل جاء التساؤل عن الكيفية التي بها خلقت، أو التي عليها خُلقت، ولذا فالإبل وجودها إثبات للمشاهد، أما الكيفية التي خلقت عليها فلا يتمكن من إدراكها إلا الخبراء في تتبع المعلومة وتقصيها، أي أنهم الذين لا تقتصر معارفهم على المشاهد فقط، بل هم الذين يمتدون في تفكيرهم وبصائرهم إلى معرفة المجرد الذي لا يُدرك إلا عقلا ويقينا (الكيفية التي خلقت عليها أو بها الإبل والكيفية التي رفعت السماء بها ونصبت الجبال وسطحت الأرض). هذه المعرفة هي التي تُسمى معرفة الخبير، التي لا تُدرك من غيره، والمستخلفون في الأرض هم الذين يدركون بها يقينا لا ظن فيه.

والمتجزئ هو المختزل في الجزء، والمتكون من المحتوى الذي يتضمنه، ويميزه عن غيره، فكلمة حسين كاسم هي متجزئ من الأسماء، وتشتمل على كل الذين أسمهم حسين، ولكن أي حُسين أعنى؟ هذا الأمر يستوجب تمييزه عن غيره وإلا لن تكتمل المعرفة أو المتعرف عليه دون غيره ممن يندرجون تحت هذا الاسم، مما يجعل اسم الأب مميزا في بعض الأحيان، واسم الأم أو اللقب والديانة والجنسية والمهنة، والمرحلة العمرية، وعلاقته بالحالة المدروسة. وكذلك كلمة فلاح وصياد وطالب وأستاذ، هذه صفات تتوحد في المهنة أو الحرفة، وتتجزأ من حيث العمر، والدور الذي تقوم به، وكذلك اللغة التي تتكلمها والديانة التي فيها تعتقد والأمة التي تنتمي إليها.

وعليه ينبغي أن لا يغفل التحليل العلمي عن تتبع التداخل والترابط بين الجزء والمتجزئ والكل، مع مراعاة ما يتداخل بينها من متغيرات. ولهذا يحدث الاختلاف مع بعض من المعتزلة، الذين انقسموا على طائفتين: الأولى التي حاولت بالبحث الجدلي إثبات الجزء الذي لا يتجزأ، وكان على رأسها أبو الهذيل. والثانية تقول بأن الجزء يتجزأ إلى مالا نهاية، وعلى رأسها أتباع إبراهيم بن سيار النظام.

---

[٨٩] الغاشية، ١٧ . ٢١.

وبناء على ذلك أتساءل: كيف تقبل الطائفتان أن لكل بداية نهاية، ولا تقبل بنهاية المتجزئ منه؟ وكيف تقبل بأن الكل ينقسم إلى أجزاء، ولا تقبل بان الجزء يتجزأ إلى أجزاء متناهية. فإذا قطع متسابق مسافة كيلو متر على مضمار كرة القدم، فتكون هذه المسافة كلية، وبما أنها كلية، ألا يكون لها أجزاء تقبل القسمة إليها وهى الأمتار؟ وفى ذات الوقت ألا يكون لهذه الأجزاء جزئيات تقبل القسمة إليها وهى السنتيمترات؟ وهكذا ينقسم الكل إلى الجزء وإلى المتجزئ الذي يُمكن مشاهدته أو ملاحظته وإدراكه والتعرف عليه سواء بالعين المجردة، أو بوسائل تقنية.

وعليه من تقتصر معرفته أو إيمانه على الجزء أو المتجزئ المشاهد فقط حتى يصدر أحكامه بأنه الحق في ذاته فهو قاصر عن الخبرة، ولهذا لن يوصف بالخبير، فالذي يوصف بالخبير هو من يستمد خبرته مما أعلمه الخبير المطلق به.

غيب كلي:

والكل هو المشتمل على كل جزء ومتجزئ في دائرة النسبية والممكن المتوقع وغير المتوقع. فالإنسان كمفهوم كلي يختزل كل البشر من حيث المضمون والجوهر، وهكذا كلمة الطير تختزل كل الطيور، ومثلها كلمة النبات تختزل كل النباتات بجميع أنواعها وأشكالها، ومثلها أيضا الحيوان. فأي إنسان أعني؟ الرجال أم النساء أم الشيوخ أم الأطفال، أم ماذا أعني؟. وأي طير أعنى، هل أعني بذلك الحمام، أم الصقور، أم الغربان أم ماذا ؟ وأي نبات أعنى ؟ وأي حيوان أعنى؟.

وعليه فالكل احتوائي يحمل في مكوناته الجزء والمتجزئ منه. ولهذا فهو شمولي يُطلق على كل من يشتركون في النوع والصنف، أو الصفات والخصائص والمهن والحرف. وقد يكون الشكل كلى عندما يستقل عن غيره، وقد يكون جزْءاً عندما يُقارن أو يرتبط بغيره ممن تربطه به علاقات في الكم أو الكيف. فالشكل الرباعي الذي مساحته على سبيل المثال تساوى افتراضا (٤٠٠) متر مربع، يكون طول ضلعه (٢٠) مترا. ولذلك فالمربع ككل يتجزأ إلى أربعة أجزاء، وكل جزء يتجزأ إلى (٢٠) مترا، ولهذا ينقسم الكل إلى أجزاء، والأجزاء تنقسم

إلى متجزئات، وهكذا إلى النهاية. فعندما تُقطع مسافة (٥٠٠) متر عدوا، قد يُنظر إلى هذه المسافة بمنظور كلي، ولكن إذا ما قارنا هذه المسافة بمسافة (١٠٠٠) متر تصبح تلك المسافة جزء وليست بكل، وهكذا إذا ما قارنا مسافة الآلف متر بمسافة (٢٠٠٠) متر، يصبح الآلف السابق جزء من كل، وهكذا دائما الكل يتجزأ إلى النهاية.

ومع أن كل جزء قابل لأن يتجزأ، إلا أن المعرفة التامة قد لا تتم إلا بمشاهدة وملاحظة الكل وهذه لم تكن بيد مخلوق بل إنها بيد الخبير البصير جل جلاله.

والغيب الكلي لا يعلمه إلا الله مثل الحياة والموت والعدم، وكذلك الأرض التي يمكن أن يكون الموت عليها والزمان، وهذا الغيب لا يطَّلع عليه أحد ممن خلق.

قال تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[٩٠].

هنا جاء الاسم الخبير ليتمم الاسم اللطيف في باب إدراك الرؤية للطافته التي لا تدرك ولكنه بخبرته يجعل كلاً يرى ولكن على قدره لا على قدر المرئي وكما قرر أهل السنة بإثبات الرؤية مع التفويض أي بترك الكيفية للخبير.

ثم يأتي الاسم الخبير مع الأرض والسماء لتذكير الإنسان بحكمة الله وتجليه بخبرته في عالم الملك وهو العالم المرئي للإنسان بإخفاء ما يريد من نعم ونقم في باطن الأرض وكذلك ما ينزل من السماء بأمره سبحانه وتعالى وما يصعد إليها وفيها من أعمال وملائكة، وهو ما يعرف بعالم الملكوت فيقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}[٩١].

وهنا أيضا الاسم الخبير يتمم الاسم الحكيم الذي يثبت ملك السماء والأرض لله الذي يعلم أسرار الأرض وأسرار السماء.

---

[٩٠] الأنعام، ١٠٣.

[٩١] سبأ، ١، ٢.

ولنعرف علم الغيب علينا أن نميزه عن علم المستقبل، فعلم الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله الحكيم الخبير، أما علم المستقبل فالبشر على علم به. ولتوضيح ذلك فإن علم المستقبل هو: الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكُّر مع أنه قابل للتفكُّر، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشرب، ونأكل، ونفكِّر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، وندَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمِّن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمانٍ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نُفكّر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا نعمل، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم ينبغي أن يقتصر عليه؟.

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر، نتذكر الماضي، وننتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأتِ بعد. كل هذه وتلك الأمثال تجعلنا نتذكر كما قال تعالى في سورة الحشر: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}، وكذلك يقول تعالى في سورة الأعراف: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون}[٩٢].

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أن هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضر في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى: {يوم تجد كل نفس ما

---

[٩٢] الأعراف ١٧٦.

عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}[٩٣].

تؤكد هذه الآية على أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبل خيِّر. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسي في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، {يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوهُ واللهُ على كُل شيء شهيد}[٩٤]. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية وعدم مقدرتها عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصي من قبل الخالق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون ٩٨ حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي

---

[٩٣] آل عمران ٣٠.

[٩٤] المجادلة ٦.

٩٨ حبة، بل يكون عدد الحبات المتبقية ٩٩ حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو ٩٩ حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التنازلي إلى الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً، مصداقاً لقوله تعالى: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}[٩٥].

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة، فيقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين

---

[٩٥] آل عمران ٣٠.

والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً}[٩٦]. ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال: (لتعلموا عدد السنين)، ولهذا قلنا الزمان والحركة لا يعدان، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغرب، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلاّ أنها لا تُلمس، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتى لو لم يُلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو

---

[٩٦] الإسراء ١٢.

لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل، وهكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحنياً أو أي شكل، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداداً، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول. وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فاليوم الذي ولد فيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عُدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضياً على الإطلاق، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها، وكل ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

والاسم الخبير لكونه حاصل من علم الله فهو أداة للخليفة يخبره بتجليه عليه بهذا الاسم ما يحدث على كافة الأصعدة مع أهله وأتباعه وأعدائه؛ وفي مثل هذا الأمر قد أُخْبِر النبي صلى الله عليه وسلم بما حدث مع أزواجه عليهن السلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}[٩٧].

والاسم الخبير يأتي مع الاسم العليم ليوطئ لسيد الخلق كيفية التعامل مع أمهات المؤمنين، ويشير لجميع الخلق أن العليم الخبير هو مصدر علمه صلى الله عليه وسلم لأنه المنوط بهداية الخلق جميعاً، ومن يسير علي هديه يكون خليفة له فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من جاءه الموت وهو يطلب العلم يحي به الإسلام لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة.

---

[٩٧] التحريم، ٣.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا سألوه عن خلفائه: قالوا: ومن خلفاؤك يا رسول الله ، قال: الذين يحبون سنتي ويعلمونها الناس"[٩٨].

إذن فكل من يسير على هدي الحبيب صلى الله عليه وسلم يكون خليفةً على قدر التزامه بالمنهج الإلهي الذي أ نزله الله عزّ وجلّ ونفذه النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[٩٩].

الاسم الخبير بصيغة النكرة:

قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}[١٠٠].

ولأن الاسم الخبير من أسماء الكمال فهو يتصرف في الكون كله في الأولى والآخرة وفي حياة الإنسان وفي علاقته الاجتماعية، وحتى مع أعدائه قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١٠١].

---

[٩٨] كنز العمال، ج ١٠، ص ٢٦٠.

[٩٩] الملك، ١٢، ١٣.

[١٠٠] النساء، ٣٤، ٣٥.

[١٠١] النساء، ٩٤.

وفي الصلح بين الزوجين نجد الاسم الخبير يتفاعل مع الاسم العليم في قوله تعالى: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١٠٢].

وفي إقامة العدل الإلهي يطلب الله عباده المؤمنين بوصفهم الخلفاء الحقيقيين بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى مع أنفسهم ولو على أنفسهم أو ذويهم في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[١٠٣].

والهلاك يتحقق بعدم إتباع المنهج الذي رسمه الله للخليفة وفي هذا ذنب كبير بل ذنوب لا يحصيها إلا الله بخبرته وبصره الذي يحيط بكل شيء.

قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١٠٤].

وفي مسألة الرزق نرى الاسم الخبير يتفاعل مع الاسم البصير بنفس الرؤية السابقة في قوله الله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ

---

[١٠٢] النساء، ١٢٨.

[١٠٣] النساء، ١٣٦.

[١٠٤] الإسراء، ١٦، ١٧.

إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[١٠٥].

والاسم الخبير يتفاعل مع قضايا متعددة في باقي الآيات الآتية في قوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١٠٦].

وقال تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}[١٠٧].

---

[١٠٥] الإسراء، ٢٩ . ٣٨.

[١٠٦] الإسراء، ٨٨ . ٩٦.

[١٠٧] الفرقان، ٥٦ . ٦٢.

وقال تعالى :

{يأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١٠٨].

الخطاب الرباني في هذه الآية الكريمة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليتمسك بالحق ولا يطيع الكفرة والمنافقين الذين لا يصمدون على إتباع الحق، ولا يصمدون على مقاومته، وفي هذا الأمر حكمة من الله تعالى تتضمن المساندة للنبي ومناصرته بالبينة التي خاطب بها الله تعالى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذي تمسك بإتباع الوحي الموحى إليه من الخبير جل جلاله، مما جعل تمسك الرسول بالوحي أمر تسليم بخبرة الخبير الذي يعلم ما لا يعلمون.

وقال تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}[١٠٩].

وقال تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١١٠].

وللولوج إلى روحانيات الاسم الخبير يجب أن نطرق باب اللغة حتى يتسنى فهم مدلول الاسم ثم ننطلق إلى مائدة الله (القرآن) لنتذوق عذب مذاق الاسم الخبير من خلال تفسير الآيات السابقة ومن خلال هدي النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه المتخلق بأسماء الله وهو الذي قال فيه الله (وإنك لعلى خلق عظيم) وكيف لا وقد قالت عنه أم المؤمنين السيدة عائشة

---

[١٠٨] الأحزاب، ١، ٢.

[١٠٩] التحريم، ٣١ . ٣٤.

[١١٠] الفتح، ١١.

رضي الله عنها (كان قرآناً يمشي على الأرض). والقرآن يحوي الاسم الخبير وعليه فالخبير خلق من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ولكن من خلال تجلي اسم الله الخبير عليه ومن خلال تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم له إتباعا لشرع الله المنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

ومن يرد أن يصل إلى التحلي بهذا الاسم عليه بالتخلي عن أي منهج لا يوافق القرآن وهدى النبي صلى الله عليه وسلم بوسطية واعتدال فبدونهما لا يصل الإنسان إلى التخلق بأخلاق القرآن ولا تحقق فيه الخلافة التي أرادها له الله عزّ وجل. وهكذا يعزز الاستخلاف في الأرض بإتباع الوحي وسنة الموحى إليه سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

لذا فغير السائرين على هدي سيد الخلق وإن امتلكوا أسباب الحضارة المادية ليسوا بخلفاء لأنهم يفسدون إن لم يهتدوا إلى الإصلاح فيها؛ وإلا هل يعتقد بأن يكون المفسد فيها خليفة لمن يريد لها الإصلاح جل جلاله مصداقا لقوله تعالى: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا}[١١١]. أي أنه لا خير في الفرقة والخصومة ولا خير في الفساد، ولأن الله هو الخبير المطلق جاء قوله: (والصلح خير) ثم جاء قوله: (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وإن تحسنوا جاءت شرطية، والإحسان دائما عمل خير، وليس بعمل سوء أو مكروه، ولأنه إحسان فهو يقع في دائرة رضا الله تعالى الخبير العليم بأعمال الإحسان وتفضيلاتها في رضا الله تعالى.

ويُذكر الله الناس بخلقهم وموتهم وبعثهم حتى يتوخوا الحذر ولا يفسدوا في الأرض فيقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[١١٢].

---

[١١١] النساء، ١٢٨.

[١١٢] الروم، ٤٠ ، ٤١.

ثم قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ}[١١٣].

أي إذا جاء فعل النهي فلينتهي الناس عن الفساد، ولا فساد إلا عن كفر ونفاق أو شرك وضلال، ولذا فبطبيعة الحال من يؤمن لا يُفسد، وعليه أكبر إصلاح هو الإيمان، فمن يؤمن يتقي ربه ويستمد خبرته منه، وهذه الخبرة هي التي تجعله على مقدرة تمييزية (يميز بين ما يجب ويقدم عليه، وبين ما لا يجب ويبتعد عنه، وينهى آخرين). ولأن الخبير العليم ينهى بالمطلق عن الفساد، ويحث بالمطلق على الإصلاح، فمن يريد أن يكون خليفة له في الأرض فعليه أن يلتزم ويفعل بما أمر، وإلا هل يعتقد أن يتم الاستخلاف بدون استمداد الصفة بين الخليفة ومستخلفه؟.

ولذا فمن يشتري الضلال بالهداية يخسر الخلافة الحقيقية في الأرض، وهذا الأمر جعل الملائكة يتساءلون: هل سيكون خليفة في الأرض يفسد ويسفك الدماء فيها؟.

والمقصود بهؤلاء المفسدين الذين أساءوا استخدام أدوات الخلافة التي خلقها الله في الأرض، وقال الله تعالى للملائكة: إني أعلم ما لا تعلمون، فسجدوا لما فهموا أن هناك من لا يفسد وهو المقصود بالخليفة.

والله مازال يخاطبهم ويأمرهم بعدم الفساد في الأرض التي أصلحها لتكون مقراً للخلافة، وهم يصرون على الفساد بالابتعاد عن المنهج الذي ارتسمه لهم.

فيقول في عدد من ا لآيات الكريمة:

{وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١١٤].

وقال تعالى: {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[١١٥].

---

[١١٣] البقرة، ١١، ١٢.

[١١٤] الأعراف، ٥٦، ٥٧.

وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[١١٦].

وقال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[١١٧].

لماذا يهلك الله القرى؟.

لكي لا يكونوا مستخلفين فيها. أي لو لم يكونوا من الظالمين لبقيت القرى بخير وعلى خير. وبذلك لو كان السابقون لا يُفسدون في الأرض وينهون عن كل مُفسد، لكان الاستخلاف للناس جميعا، ولكن لأن أكثرهم لا يعلمون وأكثرهم لا يفقهون، وأكثرهم ظالمون ومفسدون فحق القول عليهم بالدمار، ولم ينج إلا المؤمنون وهم القلة المشار إليها في هذه الآية الكريمة.

وقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[١١٨].

وقال جل جلاله: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[١١٩].

وعليه، لو تذكرنا قارون، فكم من قارون يعيش بيننا، وكم من يعجب الناس ماله ونفوذه وسلطانه ووسامته ولكنه إذا تولى أمر الناس سعى في الأرض فسادا وذلك لعدم التزامه المنهج الإلهي ولا الطريق المحمدي، وبهذا فهو لا يستحق سجود الملائكة ولا شرف الخلافة.

---

[١١٥] الأعراف، ٨٥.

[١١٦] البقرة، ٤ . ٦.

[١١٧] هود، ١٦، ١٧.

[١١٨] القصص ، ٧٧.

[١١٩] الروم ٤١.

الخبير هو من خبره يتسق مع علمه فلا ينفصل عنه، ولذا هناك أسماء حاصلة من تجلي العلم الإلهي منها الخبير وهذا ما جاء عند المفسرين.

ولصلة الاسم الخبير بالعليم نعرف بأسباب العلم تنار العقول والقلوب فالعلم يسبق الخبرة التي لا تأتي إلا بعد تجربة ومعايشة وممارسة، ولا خبرة نافعة وشافية إلا بعد علم. وهذا الأمر يتعلق بالإنسان أما في حق الله فأسمائه وصفاته أزلية غير حادثة والذي ورد عند المفسرين على سبيل التوضيح للناس وضرب الأمثلة لهم، قال تعالى: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}[١٢٠]. هذه الآية الكريمة لا تعطي مجالا للمقارنة، بين العليم الخبير المطلق، وبين الذي له من العلم والخبرة بدون مطلقية، ولذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولا يستوي من يعلم بغير مطلقية مع العليم الخبير المطلق.

قال تعالى: {وهو القاهر فوق عباده وَهُوَ الحكيم الخبير}[١٢١] ويعني بقوله: "القاهر"، المذلِّل المستعبد خلقه، العالي عليهم. وقوله (فوق عباده) لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم. ومن صفة كلّ قاهر شيئًا أن يكون مستعليًا عليه.

فمعنى الكلام إذًا: والله الغالب عبادَه، المذلّ ِلهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه (وهو الحكيم) في علّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره (الخبير) بمصالح الأشياء ومضارِّها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور، ولا يقع في تدبيره خلل. والمراد من كونه حكيماً أن يكون مصيباً في أقواله وأفعاله، ومن كونه خبيراً ، كونه عالماً بحقائقها من غير اشتباه ومن غير التباس، مع معرفته الكاملة بمبررات وجودها من عدمه، ومعرفته التامة بالتوقيت المناسب لقوله أو فعله سبحانه لا إله إلا هو.

وقد اجتمعت صفات القهر والحكمة والخبرة ولكن صفة الخبرة هي المهيمنة إذ لولا الخبرة لما كان الأمر في موضعه – تعالى الله علواً كبيراً – على ذلك ، فقهره بحكمة وحكمته بخبرة ، وهذا إذا تحقق في إنسان صار خليفةً بقدر تخلقه بالاسم الخبير وما له صلة به من أسماء

---

[١٢٠] النحل، ٧٤.

[١٢١] الأنعام، ١٨.

إلهية أخرى حيث أن الأسماء الإلهية مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً والمتخلق بها إن لم يتحلَ بالا سم الخبير كانت خلافته ناقصة.

(وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخبرة، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة. الحكيم ذو الحكمة البالغة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغي أو المبالغ في الأحكام وهو إتقان التدبير وإحسان التقدير.

والحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمرا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله: (حكيم) أي في الابتداء يخلق كما ينبغي وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء .

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[١٢٢].

(عالم الغيب والشهادة) أي كل غيب وشهادة (وَهُوَ الحكيم) في كل ما يفعله (الخبير) بجميع الأمور الخفية والجلية. الله تعالى الذي هو العناية الأولى عبارة عن إحاطته سبحانه بالكل حضوراً فالخزائن المشتملة على جميع الغيوب حاضرة لذاته وليس هناك شيء زائد ولا يعلمها إلا هو سبحانه. وكذا أبواب تلك الخزائن مغلقة ومفاتيحها بيده تعالى لا يطلع على ما فيها أحد غيره عز وجل، وهو القادر على أن يفتح منها ما شاء لمن يشاء. هذا وقد حقق كثير من الراسخين في العلم أن حقائق الأشياء وماهياتها ثابتة في الأزل وهي في ثبوتها غير مجعولة وإنما المجعول الصور الوجودية وهي لا تتبدل ولا تتغير ولا تتصف بالهلاك أصلا[١٢٣] مصداقا لقوله تعالى: {كُلُّ شيء هَالِكٌ إِلاَّ وَجهه}[١٢٤].

---

[١٢٢] الأنعام، ٧٣.

[١٢٣] تفسير أبي السعود ، ج ٢، ص ٣٤١.

[١٢٤] القصص ، ٨٨.

قال تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}[١٢٥] اللطافة ضد الكثافة، والمراد به حُسن المعاملة وحُسن التقدير.

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[١٢٦].

(الذي خلق السموات والأرض وما بينهما) أي أنه خلق كل شيء دون أن يترك شيئا ما بينهما، وفي هذا الخلق ما قد تم التعرف عليه، وهناك ما لم يتم التعرف عليه بعد، وسيتم التعرف عليه لاحقا، وهناك ما تم خلقه وقد لا يتم التعرف عليه، وهذه مشيئة الله في خلقه الذي جعل كل شيء بمقدار، وجعل وراء كل مخلوق سرا كامنا حتى ولو تم التعرف عليه. كان خلق هذا الخلق العظيم من الخبير البصير (في ستة أيام) في مدتها من أيام الدنيا (ثم استوى على العرش) أصل الاستواء الاستقرار والتساوي واعتدال الشيء في ذاته، والعرش مكان لمكانة عظيمة، ذات نظام بديع تحيط بكل شيء ولا يحيط بها شيء غير المسبحين بحمده وهم يحملون العرش ويعبدون الواحد الأحد الخبير البصير. (فاسأل به) متعلق بما بعده وهو (خبيرا) كما في قوله (إنه رءوف رحيم) ونظائره أي فاسأل خبيرا بما ذكر من الخلق والاستواء يعنى الذي خلق واستوى لأنه هو الخبير بأفعاله وصفاته[١٢٧].

الخبير اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، يوحي بالإحاطة والتدبير والعلم، وهو الذي يعلم بالأمر وما يجب العمل تجاهه فيرشد إليه من لم يحط به علما، ولهذا يوضع الاسم الخبير ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة العلم لله تعالى وهي (العليم، اللطيف، الشهيد، الحسيب، المحصي، الواجد، السميع، البصير، الرقيب، المهيمن، الواسع، المؤمن).

يأتي اسم الخبير بمعنى العليم، إذ يمكن القول أن الجمع بينهما يوحي بالإحاطة بالأمور في جميع الجوانب الظاهر منها والباطن، ولنقرأ قول الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى

---

[١٢٥] الملك، ١٤.

[١٢٦] الفرقان، ٥٩.

[١٢٧] تفسير حقي، ج ٩، ص ٢٥٩.

أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}[١٢٨] هذه الآيات المتتابعة تتحدث عن حدث عظيم يطرح كثيراً من التساؤلات التي تحيلنا إلى الخبير العليم، كانت البداية باللقاء بين موسى عليه الصلاة والسلام وسيدنا الخضر عليه الصلاة والسلام، الذي وصف بالعبد وهذا من باب التشريف كما سُمي النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالعبد في قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[١٢٩] فكان اختيارنا لهذه القصة أنها اتسمت بمدلولات كثيرة وكلها تدور حول اسم الله تعالى الخبير، إذ تثير في تشكيلاتها كوامن النفس الإنسانية وتلهبها لتطلعها على إحاطة الله تعالى بالأمور في جميع جوانبها، مما يخلق حالة إيمانية قوية ينعم بها المؤمن؛ ليواصل مشواره في هذه الدنيا، ويقبل على العبادة بقلب عامر بالإيمان، ولذلك في قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} نقطة التقاء هذه يتشكل منها أمور عدة أبرز ما يسمها أنها بدأت بالاستفهام، وهذا الكلام موجه لنبي وليس لإنسان عادي، مما يحمل إشارات عدة أهمها أن ما يأتي يخرج عن نطاق المعرفة المتحققة، ثم تم الاتفاق بين الطرفين، الطرف الأول يصبر، بينما الطرف الثاني يرفض السؤال عن ما يجري حتى يبتدئ هو بيانه، فكانت الرحلة التي أرادها الله تبارك وتعالى، رحلة اتسمت بالعبر والدروس والعظات، إذ يقول تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ

---

١ – الكهف ٦٦ – ٧٠

[١٢٩] – الإسراء ٢

أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}[١٣٠] هذه القصة نلتمس من قراءتها أنها ما كان لها أن تستمر، فقوله تعالى المتكرر (فَانْطَلَقَا) يوحي بالبداية المتجددة للقصة، فبعد كل لفظة (فَانْطَلَقَا) يبدأ حدث جديد، وإن الأحداث الواردة في النص القرآني، يمكن من خلالها أن نبين دور الخلفية في الأرض، وكذلك نبين علم الله تعالى الواسع الذي يتجاوز كل ما يصل إليه الخليفة من علم وتطور معرفي، كان الفعل الأول هو خرق السفينة فكان رد فعل موسى عليه الصلاة والسلام رفض هذا الفعل بوصفه خارجا عن كل التعاليم والشرائع التي أمر الله تعالى بها، ثم كان الفعل الثاني وهو قتل الغلام، وهو مشهد أيضا خارج عن كل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، ولهذا نكره موسى عليه الصلاة والسلام، ثم يأتي الفعل الثالث وهو يختلف اختلافا جذريا مع ما سبق مما ترك انطباعا متحيرا لدى موسى عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}[١٣١] لم يكن معهما زاد فسألا أهل قرية الطعام، فلم يقبل أحد أن يطعمهما. وإظهار لفظ (أَهْلَهَا) دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح، تشنيعاً بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما. وذلك لؤم، لأنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه الصلاة السلام وهي من المواساة المتبعة عند الناس. ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعدّ نفسه لذلك من كرام القبيل فإباية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية[١٣٢].

ثم بعد ذلك وجدا جدارا أشرف على السقوط، فقام الخضر عليه الصلاة والسلام بإقامة الجدار، وهنا أيضا تكلم موسى عليه الصلاة والسلام لكن ليس من باب الرفض لهذا العمل بل من باب طلب الأجر بما قام به الخضر عليه الصلاة والسلام.

---

١٣٠ – الكهف ٧١ – ٧٧

١٣١ – الكهف ٧٧

١٣٢ – التحرير والتنوير ج ٨ ص ٤١٥

هذه القصة شاع فيها جو الرفض الذي تبناه موسى عليه الصلاة والسلام، والدال على علمه المحدود بالرغم من كونه نبياً من الأنبياء، كما بينت لنا صفة الله تعالى (الخبير) وفق تجليات هذه القصة بعد التوضيح الذي عرضه الخضر عليه الصلاة السلام لكل الأفعال التي قام بها، إذ يقول تعالى: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[١٣٣] والإيضاحات هنا كلها تشير إلى علم الله تعالى بما سيكون، ولذا فهو الخبير العليم بالأمر وكل أمر سبحانه جل جلاله، أي أنه يعلم بالأمر وأي أمر قبل أن يعلمه العباد إلا من أظهرهم تعالى على شيء من علمه كما هو حال أبونا آدم عليه الصلاة والسلام الذي علمه الأسماء فأعلم بها من يتعلق الأمر بهم.

يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[١٣٤] الآية هنا رسمت صورة الرزق المتحقق للخلق، ليس هناك استثناء حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، فالعدالة متحققة هنا للكل، أما قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[١٣٥] هنا تبدأ مرحلة جديدة ففيها الرزق يتشكل ضمن ثنائية يمتلكها الله تعالى، فهو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدّره ويضيّقه على من يشاء ، فالتوزيع بهذه الطريقة المرتبطة بالمشيئة يحيلنا إلى عظمة الله تعالى وقدرته فهي تمثل جانبا مهما من جوانب عظمته وحكمته في تسيير هذا الكون بأجمعه، فضلا عن ذلك أن ارتباط هذا التوزيع

---

[١٣٣] – الكهف ٧٨ – ٨٢

[١٣٤] – الإسراء ٢٠

[١٣٥] – الرعد ٢٦

بقضية مهمة جدا، وهي قضية الإصلاح والإفساد، بمعنى أن الله تعالى يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، وهنا يتجلى لنا اسم الخبير بكافة تشكيلاته وارتباطاته بالرزق، ولأنه الخبير المطلق فهو يعلم متى يبسط الرزق ولمن يبسطه ومتى يقبض وعمن يقبضه سبحانه إنه الخبير البصير، قال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[١٣٦] هذه الآية الكريمة رسمت لنا إحاطة الله تعالى بعباده، فهو الخبير البصير، فلو أن الله تعالى أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم لحملهم على البغي والطغيان، إذ يقول تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}[١٣٧] فضلا عن ذلك لتجاوز بعضهم على بعض، ولكن الله تعالى يعطيهم على ما فيه صلاحهم، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر، بحسب ما يقدره الله تعالى من المصلحة في ذلك، إذ يقول تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[١٣٨] إن الله لو بسط الرّزق للنّاس كلهم لكان بسطه مفسداً لهم لأن الذي يستغني يتطرقه نسيان الالتجاء إلى الله تعالى، ويحمله على الاعتداء على الناس فكان من خير المؤمنينَ الأجلّ لهم أن لا يبسط لهم في الرّزق، وكان ذلك منوطاً بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تَطّرد في الناس مؤمِنهم وكافرِهم، وقد كان في ذلك للمؤمن فائدة أخرى، وهي أن لا يشغله غناه عن العمل الذي به يفوز في الآخرة فلا تشغله أموالُه عنه[١٣٩].

يتجلى اسم الله تعالى (الخبير) في كل ما يدور حولنا، فالله تعالى يضع الأشياء في مواضعها لخبره بحالها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه وفي غير مكانه وفي غير زمانه، ولهذا فهو الخبير بكل حال وأمر، ولأنه الخبير يهب لمن يشاء ذكور ويهب لمن يشاء إناثا ويجعل من يشاء عقيما مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ

---

[١٣٦] – الشورى ٢٧

[١٣٧] – العلق ٦ ،٧

[١٣٨] – الشورى ٢٧

[١٣٩] – التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٢٤

عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[١٤٠]، ولأنه الخبير جل جلاله فلا ينزل شيئاً في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان، هذه التشكيلات المختلفة هي الأسس التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، فالحرمان والمنع والعطاء والفضل كلها صور متحققة في الدنيا، وهي نفسها يستند الحساب الأخروي عليها، فوضعها في مواضعها التي وضعت لها، صورة من صور (الخبير) جل جلاله، يقول تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}[١٤١] هذه الآية الكريمة تحيل إلى أمر عظيم جدا، وهو أمر الرسالة السماوية، فهي لابد لها من يحملها ويقوم بإيصالها إلى الناس كافة، إذ يقول تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[١٤٢] فالله تعالى هو خالق كل شيء، وهو يختار مِن خَلْقِه ما يشاء فهو الذي خَلَقَ البشرية، وهو بخبرته تعالى يختار منها ما يشاء متى ما يشاء سبحانه، وهذا الاصطفاء هو مراتب كثيرة جدًّا وعباد الله يتفاضلون في هذا الاصطفاء تفاضلًا عظيمًا، وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعلُ رسالاته، وهو أعلم حيث يجعل فضله، وهو أخبر متى تكون رسالته، وعلى من تكون، وإلى من تكون، وأين تكون بالتحديد سبحانه إنه ربيِّ جل جلاله.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الخبير) أن يكون شديد البحث عن كل ما يوصله إلى الله تعالى وفق معايير الخير والصلاح والإصلاح، فالخوف المتحقق هو حافز للخليفة كي يفكر مرارا عند التفكير في أي عمل يريد القيام به، جاعلا بين عينيه دائما ثنائية الثواب والعقاب، فبهما وبمعرفتهما يصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ

---

[١٤٠] الشورى ٤٩، ٥٠.

[١٤١] – الأنعام ١٢٤

[١٤٢] – القصص ٦٨

دُولَـةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[١٤٣] هذه هي القاعدة التي يريدها الخبير تبارك وتعالى، فبها يتحقق الثواب المطلوب الذي يصل بصاحبه إلى مرضاته عز وجل، وبها يتجنب العقاب المترتب على كل من يخالفها، والله تعالى رسم للخلق أجمعين طريق الخير والشر لكن العبرة بالإتباع ، يقول تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[١٤٤] فقد أعطاه الله تبارك وتعالى العقل والسمع والبصر ليدرك ويعقل ويفكر حتى يتدبر أمره وكل أمر يتعلق بأمره، وبين له طريق الهدى وطريق الضلال ليختار بطوعه بين الخير والشر (بين ما يجب وما لا يجب)، أي بين الطاعة والمعصية، فضلا عن ذلك لابد للخليفة من المعرفة بالحلال والحرام والعلم بكل ما يقربه إلى الله تعالى.

إذاً يكون الخليفة خبيرا إذا اطلع وتعلم وجرَّب واتقى الله في كل ما اطلع وتعلم وجرب، وعندما يصبح كذلك يتذكر ويتفكر كل ما يجب ويقدم عليه راضيا وبكل إرادة، ويتفكر ويتذكر كل ما لا يجب ويجتنبه ويبتعد عنه وينتهي راضيا وبكل إرادة. ولذا فالخبير المطلق خبير بعلمه المطلق، والخبير بالإضافة خبير بعلمه وتجربته اللذين يمدانه بالمعرفة وحسن التصرف في دائرة مخافة الله تعالى.

يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[١٤٥] هذه الآية الكريمة اشتملت على خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله العليم الخبير، فهذه الأشياء الخمسة تمثل المحاور الأساسية في الدين الإسلامي، إنها من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وهي:

١ . قيام الساعة: يمثل صورة نهائية للوجود بكل تفصيلاته، فليس هناك ملك إلا ملك الله تعالى، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ

---

١٤٣ – الحشر ٧

١٤٤ – الإنسان ٣

١٤٥ – لقمان ٣٤

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[١٤٦] إذ ينتهي كل شيء وتبدأ عملية الحساب التي وعد بها كل الخلق، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ}[١٤٧] فهذه هي صورة الآخرة بكل تجلياتها ولا أحد يعرف عنها ويخبرها متى تحدث إلا الخبير العليم جل جلاله.

٢ . إنزال الغيث: فان الله تعالى ينزل الغيث في وقته المقدر، ومكانه المعين، ولا يعلم أحد من خلقه شيئا من ذلك، إذ يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}[١٤٨].

٣ . علم الأرحام: الأرحام فهذا الوعاء الذي لا يعلم ما يكون فيه إلا الله تعالى، (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) فهو مرتبط بالهبة المتحققة من الله تعالى بأنواعها المختلفة، يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[١٤٩].

٤ . عدم دراية النفس بما ستكسب غدٍ: قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} ما تكسبه النفس في غدها خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً. وعازمة على شر فعملت خيراً.

---

[١٤٦] – غافر ١٦

[١٤٧] – الحاقة ١٨ – ٣٧

[١٤٨] – الشورى ٢٨

[١٤٩] – الشورى ٤٩ – ٥٠

٥ . عدم دراية النفس بأي أرض تموت: قال تعالى: {وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بأيِّ ارض تموت} أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها وأقبر فيها. فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدّثتها به ظنونها، سبحانه عز وجل إنه الخبير العليم. روي أنّ ملك الموت مرّ على سليمان عليه الصلاة والسلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدني. وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل. ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[١٥٠].

والذي يعلم ذلك كله هو الله تعالى وحده لا اله إلا هو العليم الخبير، به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليه إنه ربيِّ الخبير الحفيظ جل جلاله.

وعليه الخبير عليم:

والخبير اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى الدال على علمه المسبق والمطلق، فالخالق عز وجل يعلم بالحدث حتى قبل أن يحدث لأنه يحيط بعلمه كل شيء، قال تعالى: {للَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[١٥١]، فإحاطته بالشيء إحاطة كاملة مطلقة تمكّنه من أن يكون خبيراً وعليماً به، إذ أن الإحاطة تكون من جميع الجهات، وكذلك إحاطة الخالق لخلقه من كل جهة فلا مجال لهذا المخلوق أن يتجه أو يغيّر شيئاً دون أن يكون الله تعالى عالماً به مسبقاً بخبرته المطلقة بما سيكون عليه هذا المخلوق من تفكير وتدبير سواء نطق به الإنسان وصرّح، أو كتمه في صدره واحتفظ به، قال تعالى: {لهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ

---

[١٥٠] – الكشاف ج ٥ ص ٢٩٢

[١٥١] البقرة ٢٥٥.

وَأَخْفَى}[١٥٢] فإن المولى عز وجل بإحاطته فهو مطّلع وخبير بكل شيء لا تفوته صغيرة ولا كبيرة، ففي قوله تعالى: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ}[١٥٣]، فخبرته تعالى المطلقة تنبعث من علمه بما كان وما سيكون، فالقدر بيده جل جلاله ووسع علمه كل شيء.

بذلك لا يمكن أن تأتي الخبرة عن جهل أو علمٍ محدود، فالخبرة تتكون من العلم بظواهر الأمور وخفاياها، لأن مجرد العلم بظواهر الأمور لا يعطينا الخبرة الكافية التي تجعل من حكمنا على الأشياء بميزان صحيح وعادل، كذلك فإن علم الله تعالى لا يختص بالإنسان فقط وما يقوم به من لفظٍ وعمل، بل إنها تتعداه لكل هذا الكون وما في السماوات والأرض مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[١٥٤]، فلا يمكن الفصل بين الأشياء المترابطة بالمكان والزمن لتأثير كلٍ منهما في الآخر، فالمولى عز وجل قد جعل من الزمان والمكان متغيرات لا تثبت ولا تدوم وهذا من شأنه أن تجعل من المخلوقات كذلك لا تثبت على حال ولا تدوم، وهذا يتطلب العلم والدراية الكافيين لمعرفة متى وكيف يجب أن يأتي الحدث وينتهي.

والخبرة والعلم الكامل بالشيء لا يأتي بمجرد جمع معلومات كثيرة ومستمرة عن شيءٍ ما، بل يجب أن تكون بمعرفة الأصل والبداية، فالله تعالى بخلقه لنا فهو عليمٌ ببدايتنا وأصلنا وكيف لا وهو الخالق لنا، ولله المثل الأعلى الذي لا نستطيع أن نقيس على علمه أي علمٍ آخر، ولكننا نلاحظ أنه مثلاً عند اختراع الإنسان لشيءٍ ما كجهاز الحاسوب مثلاً أو أي جهازٍ آخر فسنلاحظ أنه بمجرد حدوث أي خلل بسيط عن طريق إصدار صوتٍ ما أو توقف عمله أو ظهور أية إشارة غريبة عن الجهاز أو الآلة فأنك تجد المهندس الذي أشرف على تركيب هذا الجهاز قد تعرّف على العطل أو الخلل الذي أصاب الجهاز لعلمه الكامل بكل ما يخص

---

[١٥٢] طه ٦، ٧.

[١٥٣] العاديات ٩ . ١١.

[١٥٤] الفرقان ٦.

الجهاز من تركيبه ومزاياه وعيوبه ومدة صلاحيته وغيرها من المعلومات التي بدأت باختراع هذا الجهاز والتي بدورها تعطي المخترع أو المهندس الخبرة الكافية للتعرف على كل زوايا ونواحي وخبايا هذا الجهاز، وبالتالي فإنه سيتعامل معه بكل ثقة لعلمه وخبرته به، فما بالك بالعليم والخبير المطلق الذي لا حدود لعلمه أو خبرته، قال سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [١٥٥]، وكذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[١٥٦]، فالخالق يُدرك مسبقاً ما سيكون عليه حال جميع مخلوقاته وكيف لا وهو الخالق العظيم الرقيب على خلقه، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}[١٥٧] ، وقوله كذلك: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٥٨].

والخبير جل جلاله تكون خبرته بالبشر وكل ما خلق خبرة عن حق وذلك لأنه يملك الموازيين العادلة لقياس كل الأمور المتعلقة بالخلق والكون، فلا يمكن أن يحدث خللٌ ما في نظام هذا الخلق وذلك لدرايته وخبرته وعلمه بما فيه صلاح أو فساد هذا الكون.

والخبير بالإضافة يجب أن يكون خبيراً بخبايا النفس كي يتعامل مع ذاته بالشكل الصحيح وبالتالي ينعكس ذلك على أسلوبه في التعامل مع من حوله، والخليفة بالإضافة هو من وصل إلى أعلى درجات الرضا عن النفس فتسكن بذلك الطمأنينة والهدوء لعلمه بما يتلائم مع نفسه، وما يرضيها وما يقوّيها ويرفع من معنوياتها وما يؤثر فيها سلباً وإيجاباً، وبذلك تزداد ثقة الخليفة بنفسه وبهذه الثقة لا يمكن أن يخضع لتأثير أي مؤثر سلبي من شأنه أن يهوي به إلى منحدر الضلال والخسارة.

الخبير هو المحاسب:

---

[١٥٥] الأنبياء ٤.

[١٥٦] الحج ٧٠.

[١٥٧] الحج ٧٦.

[١٥٨] النور ٦٤.

بخبرته المطلقة عز وجل فقد امتلك الميزان العادل للحساب، فلا يقضي بأمرٍ على غير دراية منه ولا يرضى الظلم للعباد، فهو لا يأخذ بظاهر الأمور، قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[١٥٩]، ففي الآية الكريمة السابقة قدّم المولى عز وجل علمه المطلق الذي وضحّه بقوله (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) عن حكمه وحسابه العادل للبشر الذين سيحاسبهم الخالق جل جلاله على أعمالٍ قاموا بها لا يستطيعون إنكارها فيكون تسجيلها دليلاً على القيام بها في الحياة الدنيا، فلا يمكن أن يكتب الله عملاً على إنسانٍ دون أن يقوم به.

وقد كان الله شاهداً مطلقاً على كل الخلق وما يقومون به من أفعالٍ وأقوالٍ في حياتهم الدنيا، {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١٦٠]، وقد نتجت هذه الشهادة من خبرته ومراقبته للعباد جميعاً وبذلك فشهادته هي الحق الذي يحكم به على العباد يوم يقوم الحساب، فلا يظلم ولا يتجاوز الحد في الجزاء أو العقاب، في حين أنه ما من قاضٍ مهما كانت درجة عدله أو خبرته في القضاء وبعد نظره قادر على أن يحكم بحكمٍ عادل دون اللجوء إلى الأخذ بأقوال الشاهدين والاستماع لأقوال المتهمين لكي يستطيع أن يستخلص الحكم المناسب، وبذلك فقد يقع هذا القاضي في زلات كثيرة، كأن يكون هناك ثغرات يدخل منها المتهمين لرد التهمة عنهم واتهام أبرياء لا دليل على براءتهم فلا يستطيع القاضي أن يثبت العكس لأن علمه وخبرته محدودان في نطاق ملف خاص بالقضية، فلا يستطيع أن يكون شاهداً ببصره أو سمعه لعجز القدرة البشرية عن ذلك الأمر.

والخبير المطلق يُخْرِج يوم القيامة البشر من القبور للحساب العادل، بعد أبطال جميع الحجج والبراهين التي قد يفكر الإنسان الخاسر إلى اللجوء إليها ، بل إن الخالق بعلمه السابق لكل شيء قد وضّح بخبرته المطلقة بالعباد وبين لهم كيفية السير على طريق الهدى والضلال بوضع القوانين التي تعمل على ضبط تصرفات وسلوك العباد فمنهم من التزم بها التزاما شبه كامل ومنهم من قصّر ومنهم من ابتعد عنها نهائياً، وقد اخبر الله العباد ببعض أمور

---

[١٥٩] آل عمران ١٨٢.

[١٦٠] الإسراء ٩٦.

الغيب التي تخصهم من عقاب وحساب وجزاء وبعض ما يتعلق بالحياة والموت والجنة والنار عن طريق إنزال الوحي على رسله صلوات الله عليهم وسلم ، وقد تجلى في القرآن الكريم الذي بين يدينا بعد أن وعد الله بحفظه لعلمه بما يوسوس به الشيطان في بعض نفوس البشر الكثير من التعاليم المتعلقة بحياة الفرد على أنه خليفته في الأرض وبالتالي فقد منحه الخالق بعض علمه وخبرته ليعينه على خلافة الأرض فيمارس مسؤولياته بشكل سليم وصحيح إذ أن لديه المصدر والمرجع الذي يفيده ويعينه في ممارسة دوره في الحياة.

ولهذا الكون يستقي كل الأحكام المنظمة لأمور حياته فيه لكي ينال الجزاء الأوفى في الآخرة، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}[١٦١].

ومن هنا نجد أن الله تعالى قد سهّل بعلمه وخبرته بالخلق أمور الحياة بتوضيحها له وبذلك فإن العليم بالإضافة يستطيع أن يسن القوانين التي تناسب مجتمعه وتنظمه، وتنشر فيه العدل والإخاء، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٦٢].

وخليفة الله يجب أن يكون شاهداً على الحق، وموجهاً خبرته للمنفعة لا للضرر والفساد، وإذا طُلِب منه أن يكون شهيداً فليكن على حق ولا يتبع الهوى فيخسر في الدنيا والآخرة، لأن الخليفة هو من سعى لإظهار الحق وتكوين الخبرة الكافية التي تؤهله لأن يكون على يقين أنه لا يُسْتغل بسبب عدم درايته وعلمه وخبرته .

الخبير هو الحي القيوم:

---

[١٦١] الفرقان ٤٥ . ٤٩.

[١٦٢] آل عمران ١٠٤ .

قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[١٦٣]، فالخبرة لا يمكن أن تتكون لدى من كان غافلاً أو فاقداً للحياة، لأن الخبرة صفة من صفات استمرارية الحياة، فكيف بالحي القيوم الذي لا يموت ولا يفنى، بالتالي لا يمكن تصوّر مقدار خبرته إذا قيست بالحياة الأبدية الأزلية، وبعلمه الذي لا حد مكاني ولا زماني له، ومن صفاته السميع البصير الذي لا يخفى على سمعه أو بصره أي شيء.

وبما أنه القائم على أمور العباد فبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون قائماً على أمور الخلق دون أن يكون لديه الخبرة الكاملة غير المحدودة.

والخليفة يسعى لأن يتصف بصفات الله عز وجل، فلا يمكن أن يكون جاهلاً أو غافلاً أو عديم الخبرة، بل عليه أن يكون مراقباً للأحداث والأمور مستفيداً من كل ما يحصل حوله بشكلٍ إيجابي ومنظم وسوي.

الخبير هو اللطيف:

يدرك سبحانه وتعالى بخبرته المطلقة ما هو في صالح عباده، مع عدم رضا المخلوق أحياناً عن قدره الذي كتبه الله تعالى عليه، قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[١٦٤]، ففي الآية الكريمة السابقة توضيح لهذا الاعتراض الآدمي على ما كتبه المولى عز وجل عليه وتلا هذا الاعتراض البشري تأكيد الخالق لعدم خبرة البشر بما ينفعهم وما يضرهم، وأتبعها مباشرةً بالتأكيد على علمه المطلق بكل شيء وبجميع الخلق، وذلك لكي يوضّح ويبيّن للخلق أن بعلمهم المحدود وخبرتهم المحدودة لا يكون حكمهم على الأمور غير سليم لأنهم يعتمدون على ظواهر الأشياء لا خفاياها، ولذلك على الخليفة أن يوطد ثقته بخالقه وبأنه اللطيف بعباده رحيمٌ بهم.

---

[١٦٣] آل عمران ٢ ـ ٥.

[١٦٤] البقرة ٢١٦.

وإذا فرضنا مثلاً أن الله تعالى قد أنبأ الإنسان بما قد يصيبه مسبقاً من مرضٍ أو فرحٍ أو قد أعلمه بموعد موته فإن ذلك بالتأكيد سيجعل من هذا الإنسان ميتاً وهو حي ، إذ أن الإنسان خُلْق ضعيفاً قد لا يحتمل أن يكون على علم بكل تلك الأمور وهنا يتجلى لطف الله بنا بترك كل تلك الأمور غيبية لا يصل علم وإدراك الإنسان إليها.

وفي لطفه عز وجل رحمة تتضح في أن الخالق سبحانه وتعالى بالرغم من علمه المسبق وخبرته المطلقة بجميع الخلق ومن ضمن ذلك علمه بالنوايا التي تسبق الأعمال، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"[١٦٥] ، فكم هي كبيرة ومطلقة رحمة الله بعباده فهو يعطي الفرصة تلو الأخرى للتوبة وبذلك فهو التواب الرحيم لخبرته بنوايا البشر.

الخبير هو الصبور:

يمكننا القول بما أن الله هو الخبير فهو أيضاً الصبور، لأن الخبرة تتطلب الصبر وعدم التعجل في أي أمر، فبالرغم من علمه وخبرته بما سيكون من كل فرد فإنه صبور على كل ما يصدر من البعض من أذى أو زلل، ومن هنا يمكن الربط بين أنه سبحانه وتعالى الخبير والصبور، ولله المثل الأعلى فلو أتينا على المستوى الآدمي فسنجد أن أكثر الناس صبراً على الأخطاء والإساءات في حقهم هم العلماء، إذ أنه لديهم الخبرة والمعرفة اللتان تؤهلهم لأن يكونوا مهيئين على الأقل لبعض ما سيصدر من سلوكيات من حولهم من خلال تعاملهم ومعرفتهم بطباعهم فيواجهون هذا بالصبر الذي يرقى به لمستوى التسامح والمغفرة، فإذا كان هذا هو تعامل البشر لبعضهم البعض باختلاف درجات العلم بينهم فما بالك بالصبر الذي يصدر عن العليم والخبير المطلق الذي أمدنا أصلاً بالصبر والتحمل من عنده سبحانه وتعالى.

---

[١٦٥] صحيح البخاري، ج ٢٣ ، ص ٢٠.

فلذلك على الخليفة أن يكون مستحقاً لصبر الله المطلق عليه ومستحقا أيضا للبشرى التي أعدها الله للصابرين، قال تعالى: {لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[١٦٦]، وهذا دليلٌ على أن الصبر أمرٌ عظيم لا يستطيعه جميع البشر.

ولابد أن يترافق مع خبرة الخليفة عدة صفات أخرى تدعم خبرته منها:

أولاً: العلم:

لا يمكن أن يصل الخليفة إلى أن يكون خليفة الله في الأرض إلا إذا كان على قدرٍ كبيرٍ من العلم والخبرة، اللذان يشكلان أساساً مهماً في تكوين شخصية الخليفة، فالخبير بالإضافة يستمد خبرته من علمه وقدرته على اختراق الأمور وتحليلها بالشكل الصحيح السوي.

وإذا كان الخليفة لابد له من الاتصاف بصفات الخالق سبحانه وتعالى الذي قرن علمه بخبرته في كثير من الآيات الكريمة ومنها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}[١٦٧]، وقوله تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}[١٦٨]، فلابد إذن أن يصل بعلمه إلى حد تكوين الخبرة الكافية وبعد النظر المطلوب للوصول لأفضل النتائج.

وبذلك يكون علم الخليفة مرسّخاً خبرته ومكوناً له، ليستفيد منه في وجوه الخير ويفيد غيره من المسلمين.

ثالثاً: الحلم:

لا تتكون الخبرة للإنسان في وجود التعجل والتسرع، لأن من شأن ذلك أن يجعل من ذلك الإنسان قصير النظر وضيق الأفق، ولكن الحلم يترك مساحة كبيرة لإمكانية تكوين الخبرة

---

[١٦٦] البقرة ١٥٥ .١٥٧.

[١٦٧] النساء ٣٥.

[١٦٨] التحريم ٣.

الكافية، فبحلمه وصبره يصبح الإنسان حكيماً وبالتالي فالحكمة لا تأتي إلا بالخبرة التي تتكون بالتدريج لدى الإنسان.

ومن نتائج اقتران الخبرة بالحلم:

١- تحديد طريقة تعامله مع الآخرين:

عندما يتوفر الحلم في نفس الإنسان فذلك يتيح له مراقبة انفعالات الناس من حوله، وردود أفعالهم وكيفية التعامل مع كل واحدٍ منهم، وهذا بحد ذاته خبرة بمن حوله تتيح له فرصة فهم من حوله، ولكن في وجود التهور والتسرع فإنه يفوت الإنسان فرص فهم البشر، ويظل الإنسان فارغاً لا يستطيع التعامل مع مجريات الأمور حوله، فالغضب يطفئ التفكير المنطقي الصائب الذي يصل بصاحبه إلى أفضل النتائج.

٢- تهيئة نفسه لمواجهة أي موقف:

عندما تتكون لدى الإنسان بحلمه الخبرة الكافية فإن من شأن ذلك أن تهيئ الإنسان لمواجهة أي موقف سواء كان يتطلب القوة أو اللين أو إذا كان هذا الموقف حزيناً أو مفرحاً، فالإنسان مخلوق متطور وقابل للتعلم، وهذا ما يجعل الفروقات الكبيرة بين البشر في تكوين الخبرات والوصول إلى درجات متقدمة من العلم.

وكلما وصل الإنسان إلى تكوين خبراته بالطريق الصحيح عاد ذلك بالخير على صاحبه وانعكس ذلك على من حواه، واستطاع أن يجعل من خبرته مانعاً للتأثر السلب من جرّاء أزمةٍ ما فلا يستسلم أو ينهار بسبب عدم توقع ما حدث، بل إنه يحسن التصرف عند المواجهة لتوقعه ما قد يحدث ولتأنيه في ردة الفعل من جانبه.

وخليفة الله يكون على درجة كافية من العلم والدراية بالأمر الشيء الذي يرفع لديه نسبة التوقع، وهذا يجعله يتميز بالفراسة والذكاء الاجتماعي والدراية في سلوك المحيطين به وبالتالي يكون هذا الخليفة أكثر تسامحاً ولطفاً بمن حوله لما اكتسبه من كياسة ولطف ورحمة.

والله تعالى الخبير المطلق هو الميسر لأمورنا المختلفة في الحياة، فهو الذي يساعدنا في تجاوز المصاعب والتغلب عليها لعلمه بالضعف البشري، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[١٦٩]، وهو الخبير لأنه أخبرنا بقصص الأمم السابقة كما ورد في القرآن الكريم، والذي لولا ذلك لما علمنا شيئاً عما سبق ولما كانت العظة والعبرة مما أصابهم ، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [١٧٠]، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم –خاتم الرسل والأنبياء فكان آخر المخبرين، فلم يترك شيئاً عليه الصلاة والسلام إلا وقد أخبرنا به بوحيٍ من الله سواء أكانت معاملات مادية، قال تعالى: {لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}[١٧١]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ

---

[١٦٩] النساء ٢٨.

[١٧٠] يوسف ١١١.

[١٧١] النساء ١٢.

كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٧٢]، أو كانت أخلاقية مثل قوله تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[١٧٣]، أو دينية مثل ما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[١٧٤]، وغيرها لتشمل جميع الجوانب التي تحيط بنا.

والعلم البشري الذي نفخر به الآن والذي توصل إلى كيفية تكوين الإنسان وتطوره منذ بداية تكوينه نطفة إلى أن تكون وولد، ولكن عند الرجوع لأصل هذه المعلومات المستقاة منه فإننا سنجد القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسي لكل تلك الحقائق، قال تعالى: {ا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

---

[١٧٢] البقرة ٢٨٢.

[١٧٣] الحجرات ١١ . ١٣.

[١٧٤] البقرة ١٧٧ . ١٧٩.

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[١٧٥]، وقد أخبرنا الخبير بكل تلك الحقائق على لسان رسولنا الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم– وبذلك كان مصدراً لأخذ المعلومات الثابتة التي تعتمد على الحقيقة.

وقد كان لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسوةٌ حسنة فهو المعلم لنا، فسبحان الذي علّمه فأحسن علمه، قال عز وجل: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[١٧٦]، وهنا تسقط عنا الحجة لأن الله سبحانه وتعالى هو الكمال بذاته والعدل والرحمة.

ولذلك فعلى خليفة الله تعالى أن يؤمن ويثق بالخبير المطلق فيصل إلى الاقتناع والغنى عن الشكوى لعلمه بأن الخالق على دراية بما فيه فلا يتجه إلا له عز وجل ولا يطلب إلا منه.

اللهم يا الخبير بأحوالنا اجعل أحوالنا على خير، ويسر أمورنا إلى ما تحبه وترضاه وكن لنا حافظا ونصيرا، اللهم إننا آمنا بك وبرسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام وبالنور الذي أنزلت فأنر عقولنا وقلوبنا بما أنزلت من آيات كريمة في لوحك المحفوظ الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ إنك سميع مجيب قريب الدعاء، اللهم كفّر عنا من سيئاتنا وكفِّر عنا العناء والبلاء والشقاء إنك بنا عليما خبيرا، اللهم إنك الخبير بما نقول وما نسمع ونعمل فلا تجعلنا من الضالين، اللهم إن لك ميراث السماوات والأرض فاجعلنا من المستخلفين فيها والوارثين. اللهم إنك الخبير البصير فاجعل أبصارنا مبصرة بما أنت عليه خبير، واجعل حواسنا طائعة لك فيما تحبه وترضاه أنت الخبير سبحانك لا إله إلا أنت.

---

[١٧٥] الحج ٥.

[١٧٦] النجم ١ . ٥.

اللهم يا الخبير بأحوال العباد، يا من لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، اجعلنا متواضعين بعلم مفيد وبخبرة تفيد، إننا نخافك ونخجل منك لعلمك السر والعلن، اللهم اجعل خبرتنا وعلمنا المحدودين منبهاً لنا لخشيتك وحبك.

اللهم يا الخبير يا من لا يخفى عليه ضعفنا وفقرنا وحاجتنا إليه ارحمنا بواسع رحمتك، ويسر لنا أمورنا واقضِ عنا دَيّننا وبارك لنا يا الخبير في أولادنا وأزواجنا وأهلنا وعقولنا وصحتنا وامتنا يا الله على دين الإسلام إنك بنا رؤوف خبير.

الحليم

الحليم: "الذي قد كمل في حلمه"[١٧٧].

الحليم: "هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش"[١٧٨].

الحليم: الصفوح عن الذنب مع القدرة على المؤاخذة به، وهو الدائم على الصفح دون كلل ولا ملل، ولذا في أسم الحليم صفة الرحمة متصلة لا تنقطع ولا تنفصل.

---

[١٧٧] القائد إلى العقائد، ج ١، ص ١٥٨.

[١٧٨] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٣.

قال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... موارد تحمي صفوه أن يكدّرا

الحليم هو الله عز وجل بيده أمر كل شيء؛ بيده الثواب وبيده العقاب، إلا أن ثوابه أوسع من عقابه، ورحمته أعم وأشمل من نقمته؛ فرحمته تعم المخلوقات جميعاً والبشر جميعاً المطيع منهم والعاصي، أما نقمته فهي لا تكون إلا على مشرك وكافر وعاصٍ ومعاند ومتكبر على ذاته العلية، وهي أيضا تلحق كل مفسد وسافك للدماء في الأرض بغير حق، وتلحق كل ظالم.

وصفة الله حليم وردت في آيات كثيرة مقترنة بصفة الله غفور كما في قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[١٧٩]. ووردت مقترنة بصفة غني في قوله عز وجل: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[١٨٠]، واقترنت بصفة شكور في قوله تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}[١٨١]. واقترنت بصفة عليم في قوله عز وجل: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً}[١٨٢].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس– رضي الله عنه– قال: "كَانَ النَّبيُ صلى الله عليه وسلم يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ" لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ" [١٨٣].

والحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، فعله حَلِم يَحلِم حِلما، وصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبر وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلة المفسدة لأمور الدين والدنيا. والحليم

---

١٧٩ – البقرة ، ٢٢٥ .

١٨٠ – البقرة ، ٢٦٣ .

١٨١ – التغابن ، ١٧ .

١٨٢ – الأحزاب ، ٥١ .

١١٦– صحيح البخاري ، ج١٩ ، ص ٤٢٦ .

هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم: {إِن إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}.[١٨٤]

وفي لسان العرب الحِلْمُ: الأناةُ والعقل ويجمع على أحلام وحُلُوم، قال تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ همْ قَوْمٌ طَاغُونَ}[١٨٥].

وقال جرير:

هل من حُلُوم لأقوامٍ فتنذرهم .. .. ما جرب الناس من عضِّي وتضريسي.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الجمعة "ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى"[١٨٦]، أي ذوو العقول والألباب، واحدها حِلْمٌ وكأنه من الحِلْم والأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء.

والحليم عز وجل هو الصبور المتصف بالحلم، يتمهل ولا يتعجل، بل يتجاوز عن الزلات ويعفو عن السيئات، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون إلى الطاعة والصواب، ولو أنه عَجَّلَ لعباده الجزاء ما نجا أحد من العقاب، ولكن الله عز وجل هو الحليم ذو الصَّفحِ والأناةِ، استخلف الإنسان في أرضه واسترعاه في ملكه، واستبقاه إلى يوم موعود وأجل محدود، فأجَّل بحلمه عقاب الكافرين، وعجَّل بفضله ثواب المؤمنين[١٨٧].

والحَليمُ في صفة الله عز وجل معناه الصبور، وقيل معناه أنه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مقداراً فهو منتهٍ إليه[١٨٨].

والحليم هو الذي لا يعاجل العصاة بالنقمة، بل يعفو أو يؤخر يعفو الله تعالى عن الذي يعلم أنه قد ندم على فعله للمعاصي وعقد العزم على التوبة فهذا يستحق من الحليم أن يعفو عن

---

[١٨٤] – التوبة ، ١١٤ .

[١٨٥] – الطور ، ٣٢ .

[١٨٦] صحيح مسلم، ج٢، ص ٤٢٦.

[١٨٧] – تفسير أسماء الله الحسنى ، ص ٢١٥.

[١٨٨] – لسان العرب ، ج١٢، ص ١١٥.

سيئاته نهائياً دون توقع وقوع العقاب عليه وذلك كما قال الله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[١٨٩].

بل يتعدى كرمه ذلك فيبدل الله تلك السيئات والمعاصي التي ندم عليها العاصي التائب إلى حسنات وذلك مصداقاً لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[١٩٠].

أو يؤخر الله عز وجل برحمته وحلمه معاقبة العصاة المصرّين على معاصيهم والمعاندين– لا لشيء إلاّ التكبر والغرور– مع قدرته عليهم إن شاء قال تعالى : {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}"[١٩١] ، حيث قرن شدة العقاب مع قبول التوبة وغفران الذنب وهذا دليل على قدرته على عقابهم إن شاء ذلك، فهو يفتح بذلك أبواب رحمته ويمنحهم فرصة للتوبة والعودة إلى الطريق الصواب فيكونوا بذلك من الصنف الأول الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات إذا صدقت توبتهم.

وفي تفسير الحليم أنه الذي لا يعجل بالعقوبة والانتقام، ولا يحبس عن عباده بذنوبهم الفضل والإنعام، بل يرزق العاصي كما يرزق المطيع، وإن كان بينهما تفاضل على مقتضى الحكمة، وهو ذو الصفح مع القدرة على العقاب.

"فالحليم، يحلم عن أهل معاصيه بترك معاجلتهم في الدنيا بعقوبتهم وتأخيرهم ليتوبوا فيستحقوا جنته بدل نقمته، وهذا يقتضي أن يكون الحليم صبوراً؛ يصبر على أذى من أساء إليه مع أنه مالك القوة التامة التي يتصف بها بالمطلق.

ومعنى ذلك أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند. وقال المازري: حقيقة الصبر منع النفس من الانتقام أو غيره فالصبر نتيجة الامتناع.

---

١٨٩ – هود ، ١١٤ ، ص ٢٣٤ .

١٩٠ – الفرقان ، ٧٠ .

١٩١ – غافر ، ٣ .

وقال القاضي: الحليم هو الصبور وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو الصفوح مع القدرة على الانتقام[١٩٢].

والصفوح ذو الصفح الذي لا يستفزه غضب فيعجل، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته على الانتقام، وقال أبو سليمان الخطابي: ولا يستحق اسم الحليم من سامح مع العجز عن المجازاة، إنما الحليم الصفوح مع القدرة المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة.

وقال أحد الشعراء في هذا المعنى:

لا يدرك المجد أقوامٌ وإن كرموا　　حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويشتموا فترى الألوان مسفرة　　لا صفح ذلٍ ولكن صفح أحلام[١٩٣].

والفرق بين الحليم والصبور أنه الذي لا يشمئز من الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام، مع غاية الاقتدار، عجلةٌ أو طيشٌ. كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[١٩٤]. إي لولا حلمه ما ترك على ظهر الأرض التي استخلفهم فيها من دابة تدب بالحياة، ولذلك جعل العقاب الشديد مؤجلا والثواب الجزيل مؤجلا، حتى تكون الفرصة متاحة للمغفرة لمن يتدبَّر أمره ويتذكَّر ويتفكَّر في خلق الحليم صاحب المغفرة.

ومعنى الحليم والصبور في أسماء الله متقارب، إلا أن الفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم.

وأرى أن الصبر مشتمل على صفة الحلم وليس العكس، فلو لم يكن صبوراً على الأذى وصبوراً في كبح جماح النفس الداعية للانتقام والمعاقبة على الإساءة بمثلها لما أمكن أن يكون حليماً يعفو عن الإساءة ويتسامح مع فاعلها بل أكثر من ذلك يتيح له فرصة ليصلح ما

---

[١٩٢] – شرح النووي على مسلم ، ج ٩ ، ص ١٨٠ .

[١٩٣] – زاد المسير ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

[١٩٤] – النحل ، ٦١ .

أخطأ بقوله أو فعله. وهذا الرأي ينطبق كل الانطباق على الإنسان لا على الذات الإلهية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يوجد نزاع بين نفسه وإرادته فهو حليم وصبور على المسيئين بإرادته دون أي مقاومة، أما الإنسان الذي خلقه الله عز وجل واستخلفه في الأرض، كما قال تعالى في العديد من الآيات منها قوله جل وعلا: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[١٩٥].

وقال تعالى: {وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.[١٩٦]

وقال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[١٩٧].

وقال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أإله مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[١٩٨].

ولا يمكن أن يكون خلفاء الله في الأرض جميع أبناء آدم الصالح منهم والطالح، فلا يكون خليفة لله إلا من كان أهلا لذلك بصدق قوله وفعله وطاعته لله الذي يستمد صفاته الخلقية منه، وذلك بدليل تنكير لفظة (خليفة) في قوله تعالى للملائكة: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[١٩٩]. والنكرة تدل على العموم، فلو كان المقصود بالخليفة كل أفراد بني آدم لعرَّفها للدلالة عليهم جميعاً، ولكنه بتنكيرها يدل على أن هناك من يستحق أن يكون خليفة له في الأرض وهو المؤمن المطيع الموحد المتصف بصفات الله عز وجل، وهناك من لا يستحق أن يكون خليفة فيها، وهو العاصي والمشرك والكافر وغير المتصف بصفات الله تعالى.

---

[١٩٥] – الحديد ، ٧ .

[١٩٦] – البقرة ، ٣٠ .

[١٩٧] – ص ، ٢٦ .

[١٩٨] – النمل ، ٦٢ .

[١٩٩] – البقرة ، ٣٠ .

فحظ العبد من وصف الحليم ظاهر، فالحلم من محاسن خصال العباد وفي الحديث الشريف: "إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم مرتبة الصائم القائم"[٢٠٠] .

وقد حثنا الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام أن نكون ربانيين في قوله تعالى: {ولَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}[٢٠١] .

ونحن نعتبر أن الأوامر التي أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على لسان أنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه جميعاً هي أوامر لنا لأننا نؤمن بهم جميعاً ولا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بما أُنزِل إليهم من الكتب السماوية لأنها نابعة من مصدر واحد هو الله عز وجل وبذلك أمرنا عز وجل في قوله تعالى: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[٢٠٢] .

"والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة، والرباني هو العالم بدين الرب، القوي المتمسك بطاعة الله"[٢٠٣]، ولعل الرباني هو العالم بدين الله المتمسك بطاعته والمتصف بصفاته العُلى، ليكون بذلك أهلا لاستخلاف الله في الأرض ومن هذه الصفات الحليم عز وجل.

فالعبد الذي يستحق أن يكون خليفة لله تعالى لابد أن يكون حليماً مع الناس يعفو عن سيئاتهم، متسامحا مع غفلتهم، تاركا لهم حرية الإرادة فيما يأمر به لأجل أن يكونوا خلائف مطيعين مصلحين غير ظالمين ولا مفسدين ولا سافكي دماء. قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[٢٠٤].

---

[٢٠٠] – المعجم الأوسط للطبراني، ج ١٤ ص ٣٣.

[٢٠١] – آل عمران ، ٧٩ .

[٢٠٢] – البقرة ، ١٣٦ .

[٢٠٣] – فتح القدير ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

[٢٠٤] – الأعراف ، ١٩٩ .

والأخذ بالعفو بالنسبة للحليم بالإضافة يعني أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وأن تحسن إلى من أساء إليك وأنت تقتدي بالحليم المطلق الذي تؤمن بأن كل شيء بيديه وهو يعفو بحلمه وقدرته ورحمته، ولذا فالعفو من صفاته جل جلاله.

والإعراض عن الجاهلين يكون بعدم مكافأتهم في السفاهة، وعدم مماراتهم فيها، وبالحلم عنهم، وبمقابلة السيئات بالحسنات.

والحِلم لا يكون حلماً مع الضعف والعجز عن المعاقبة، والجهل بالفعل المحلوم عنه، ولذلك فلابد أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلماً، منها:

١- القوة:

فالحلم يعتبر ضعفا إذا لم يكن الحليم قوياً فيكون بذلك مثلبة لا مكرمة.

وقد قال النابغة في ذلك:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له   موارد تحمي صفوه أن يكدرا

وقد بين الله عز وجل مدى قوته في كثير من الآيات منها قوله سبحانه وتعالى: {كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٢٠٥]، أي أن الله سبحانه وتعالى عاقب الكفار من أهل الشرك الذين ماتوا في غزوة بدر بالموت والهلاك قتلاً، كما أنه عز وجل عاقب آل فرعون بالموت والهلاك غرقاً.

وهذا يدل على أن الله عز وجل قوي في أخذه للكفار شديد العقاب لمن عصاه، ولا شيء يعجزه من إنزال عقابه على من يستحقه، ولكنه يصبر عليهم، ويؤخر معاقبتهم حلما بهم، ولإتاحة الفرصة لهم للتوبة والرجوع عن الخطأ.

٢- العلم بالشيء ونفي الجهل به:

إن الله سبحانه وتعالى عالم عليم بدقائق الأمور وأخفاها، كما يعلم عظائم الأمور وأظهرها، ولا يُخْفى عنه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي

---

٢٠٥ – الأنفال ، ٥٢ .

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٢٠٦]، وقال عز وجل: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[٢٠٧]، وقال تعالى أيضا:{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[٢٠٨]، وقال جل من قائل: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٢٠٩]، وقال جل وعلا: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}[٢١٠].

والآيات الدالة على علم الله كثيرة جداً، وتشير كلها على أن الله عز وجل لا تَخْفى عليه خافية في هذا الكون كله، وأن علمه ببعض المعلومات لا يمنعه عن العلم بغيره فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٢١١]، وبالبديهي أن الله تعالى يعلم أعمال عباده المسيء منهم والمطيع، وما يجول في نفوسهم وعقولهم، فنحن جزء بسيط من هذا الكون الكبير الذي يديره الله ذو القوة المجيد، وما العقاب والجزاء الذي كتبه الله سبحانه وتعالى على عباده إلّا عن علمه بمن يستحق الجزاء الحسن، ومن يستحق العقاب، وإن أخّره عنه في الدنيا ولم يعجل له به، فلا يظن العبد العاصي أن الله تعالى غافل عنه بتأخير عقابه، لأن الغفلة في حقه مستحيلة وقد ذكر الله تعالى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[٢١٢] وأيضاً قوله تعالى: {ولكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[٢١٣].

---

[٢٠٦] – سبأ ، ٣ .
[٢٠٧] – البقرة ، ٧٧ .
[٢٠٨] – التوبة ، ٧٨ .
[٢٠٩] – الأنبياء ، ٤ .
[٢١٠] – سبأ ، ٢ .
[٢١١] – الأنعام ، ٥٦ .
[٢١٢] – آل عمران ، ٩٩ .
[٢١٣] – الأنعام ، ١٣٢ .

وأيضاً حذّر الله عز وجل العباد من نفسه ومن عقابه مع تركه باب التوبة مفتوحاً أمام مرتكب المعاصي رحمةً به وحلماً عليه، وذلك في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٢١٤] وهذا يكون مع الإنسان المستخلف في الأرض من قِبَل الله سبحانه وتعالى، فإنه ينبغي له أن يتصف بصفات الخالق عز وجل، وأن يكون حليماً مع الآخرين يعفو عن سيئاتهم حُلمٌ عن قدرةٍ وقوةٍ وعلمٍ فإنه إن لم يكن قوياً يعتبر حلمه ضعفاً، وإن لم يكن قادراً اعْتُبِرَ حلمه عجزاً ، وإن لم يكن عالماً اعْتُبِر حلمه غفلة وحمقاً.

والإسلام يحب أن يكون أتباعه أقوياء لا ضعفاء، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٢١٥]، وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير"[٢١٦].

٣- القدرة:

إذا كان الحليم قادراً على مجازاة المسيء الذي حَلَمَ عليه وعفا عن إساءته، برد الإساءة بمثلها أو بإنزال عقاب آخر قد يكون أكبر منها أو مساوٍ لها، فإن عفوه وصفحه عن الإساءة مع هذه القدرة يكون حِلماً أما إذا لم تكن لديه القدرة على المعاقبة، فلا يكون عفوه حلماً بل يكون ضعفاً وعجزاً.

قدرة الله عز وجل على أفعاله لا حد لها ولا يحتاج في فعله إلى آلات وأدوات، ولا يحتاج إلى تقدم المادة والمدة، بل أمره إذا أراد أن يفعل فعلاً ما أن يقول له كن، وبذلك أعلمنا الله تعالى في كتابه الكريم: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٢١٧].

---

[٢١٤] – البقرة ، ٢٣٥ .

[٢١٥] الأنفال ٦٠، ٦١.

[٢١٦] – صحيح مسلم ، ج ١٣ ، ص ١٤٢.

[٢١٧] – النحل ، ٤٠ .

وقدرة الله سبحانه وتعالى لا تفاوت فيها بين الأفعال الكثيرة والأفعال القليلة فقال عز وجل: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢١٨]، ولا يعود على الله تعالى من أفعاله تعبٌ، ولا يمسه نصبٌ، قال سبحانه تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}.[٢١٩]

وفي تفسير قوله عز وجل {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا}[٢٢٠] قال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة لقولهم {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}[٢٢١]، وهذا يدل على عظم هذا القول المفترى على الله جل وعلا سبحانه عما يقولون، فهو منزه عن أن يكون له ولد، ولولا أن الله تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر ولا يرفعه إيمان المؤمن ولا يزيد هذا في ملكه ، كما لا ينقص ذلك في ملكه لانفطرت السموات وانشقت الأرض ولكنه القدوس الحكيم الحليم لم يبال بما قاله المبطلون، ولم يعاقب هؤلاء الفجرة بما قالوه من أكاذيب في حق الله سبحانه وتعالى.

وقد رغَّبَ الله سبحانه وتعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم– في الحِلْمِ وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيم}[٢٢٢]، حيث أنه في إجراء صفتي (عليماً حليماً) على اسم الجلالة في هذه الآية إيماء إلى ذلك، فمناسبة صفة العليم لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) ظاهرة، ومناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود هو ترغيب الرسول– صلى الله عليه وسلم – في أليق الأحوال بصفة الحليم، لأن همه عليه الصلاة والسلام التخلق بخُلُق القرآن[٢٢٣] ، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"[٢٢٤] .

---

[٢١٨] – النحل ، ٧٧ .

[٢١٩] – ق ، ٣٨ .

[٢٢٠] – مريم ٩٠ .

[٢٢١] – البقرة ، ١١٦ .

[٢٢٢] – الأحزاب ، ٥١ .

[٢٢٣] – التحرير والتنوير، ج ١١، ٢٩٨ .

[٢٢٤] – مسند أحمد ج ٥ ص ١١٦ .

وقد أجرى الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم– صفاتاً من صفاته مثل رؤوف رحيم ومثل شاهد، فقد قال عز وجل في كتابه العزيز يصف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٢٥] وفي قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}[٢٢٦]، وأيضاً في قوله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[٢٢٧].

وفي كل تلك الآيات وغيرها، دلالات واضحة على أن الله سبحانه وتعالى جعل أنبياءه الذين هم خلفاء الله في أرضه بحق يتخلقون بصفاتٍ من صفاته عز وجل حتى يسيروا كما يحب الله بين خَلْقه، فها هو وكما وصف سيدنا محمد– صلى الله عليه وسلم – في الآيات السابقة، نراه يصف نبيه إبراهيم عليه السلام بالحليم وذلك في قول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[٢٢٨] فقد أجرى تعالى وصف الحليم على سيدنا إبراهيم عليه السلام في معاملته مع أبيه وقومه، ولهذا الخليفة هو الذي يكون حليما مع والديه ومع بني جنسه على الحق وفي غير معصية الله تعالى.

وبما أن الأنبياء هم أفضل من وطئت أقدامهم وجه الأرض بما خصوا به من الرسالات، فلابد أن يكونوا قدوة لنا نقتدي بهم في أفعالهم وأخلاقهم وأقوالهم حتى نكون ممن يستحقون أن يكونوا خلفاء الله عز وجل. فقد كان سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يغري أصحابه بالحلم في كثير من المواقف، فها هو يقول لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – "يا عمر، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا"[٢٢٩]، وهذا يبين لنا مكانة الإنسان الذي يتصف بصفة الحلم فلا يستخفه طيش ولا غضب بل يتأنى ويفكر ويعفو عن المسيء إليه

---

[٢٢٥] – التوبة ، ١٢٨ .

[٢٢٦] – المزمل ، ١٥ .

[٢٢٧] - الأحزاب ، ٤٥ .

[٢٢٨] – التوبة ، ١١٤ .

[٢٢٩] – دلائل النبوة للبيهقي ، ج٦ ، ص ١٦٨ .

فيكون في ذلك خير كبير؛ كما حدث مع الأعرابي في هذا الحديث فقد أسلم هو وألف رجل بعده بفضل الله عز وجل وحلم النبي – صلى الله عليه وسلم– ولو أنه عليه السلام لم يحلم عليه وأطاع عمر بن الخطاب في قتله لما حدث ذلك الخير كله.

وكذلك في حلمه عن الرماة الذين خالفوا أوامرهُ في غزوة أحد وكانوا بذلك سبباً في نكسة المسلمين في تلك الغزوة، وفي قول الرسول – صلى الله عليه وسلم– أيضاً: "إن الله يحب الحليم الحيي الغني النفس المتعفف،ويبغض الغني الفاحش البذيء السائل الملحف"[٢٣٠].

اللهم اجعلنا ممن يتخلقون بأخلاق أنبيائك ويتصفون بصفاتك العُلا، واجعلنا من الطائعين لأمرك واستغفر الله من كل خطيئة أو ذنب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحلم صفة من صفات الله عز وجل ولا بد أن نقدر صفات الله وأسمائه جميعاً حق قدرها فلا نكون كالذين استخفوا بها واستعجلوا عقاب الله استهزاء، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[٢٣١].

فالحلم فوق أنه صفة كريمة تدل على الحكمة والعلم والصبر إلا أنه يدل باللزوم على عدة صفات أخرى، فهو يدل على الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والغنى والعزة والرأفة والرحمة وعلو الشأن والعظمة وغير ذلك من صفات الكمال، وهي صفات ثابتة في ذات الله عز وجل ويستحيل في حقه عكسها.

أما في ذات الإنسان وهو مخلوق، فإن هذه الصفات ليست ثابتة في ذاته، ولا يستحيل عكسها في حقه، فإنه لا يتصف بهذه الصفات الكريمة إلا من تقرب إلى الله عز وجل بالطاعة والعبادة ومن حرص على الاقتداء بالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه في أخلاقهم فيتخلق بأخلاق القرآن الكريم ويعمل جاهداً على الاتصاف بصفات الله سبحانه وتعالى، فيكون بذلك قد دخل دائرة الخليفة الذي قصده تعالى في قوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

---

[٢٣٠] – تفسير الطبري ، ج ٥، ص ٦٠٠ .

٣– الأنفال ، ٣٢ .

خَلِيفَةً}[٢٣٢]. والإنسان المستخلف في الأرض لا بد أن يكون راجح العقل حتى يكون حلمه في موضعه ومع من يستحقه، فالحلم في غير موضعه لا يعد حلماً.

ويدخل تحت صفة الحليم أيضاً صلة الرحم، فالإنسان يجب عليه أن يصل رحمه ولا يقطعه أبداً، وإن كان منهم إساءة في حقه، فالواجب عليه أن يتجاوز عن هذه الإساءة بحلمه ، ويقابلها دائماً بالإحسان إليهم، ومداومة وصلهم فهم أولى بحلمه من غيرهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبو هريرة: "ألا أدلكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة "قالوا بلى يا رسول الله، قال: "صل من قطعك، وأعطِ من حرمك، وأعفو عن من ظلمك".[٢٣٣]

وكل هذه الأخلاق تكون حلماً على الآخرين لأن فيها صبرٌ على أذاهم ، بل أكثر من ذلك أنه يقابل إساءتهم من قطيعةٍ وحرمان وظلم، بالإحسان إليهم المتمثل في الوصل والعطاء والعفو عن الظلم مع القدرة على الانتقام .

والحلم صفةٌ عامة يتبعها عدة صفات داخلة فيها، أو هي من توابعها، وكل هذه الصفات هي صفات حميدة، يُمْدَح من يتصف بها وتهفو إليها كل النفوس السليمة والقلوب المؤمنة، ومنها:

١- الكرم

فالحلم يعتبر كرماً من الحليم على المحلوم عنه بتجاوزه عن إساءته وعدم إجراء العقاب في حقه مع استحقاق المسيء لذلك العقاب قصاصاً عادلاً، ولكن تكرماً من الحليم لم يعاقبه على إساءته مع قدرته عليه بل تسامح تاركاً باب الإصلاح مفتوحاً.

وقد ورد هذا المعنى في تفسير قول الله تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}[٢٣٤]. أي المتجاوز الحليم عن جهل العباد[٢٣٥]، "وهو الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، يُنْعم على

---

[٢٣٢] – البقرة ، ٣٠ .

[٢٣٣] – شعب الإيمان للبيهقي ، ج ١٧ ، ص ١١٨ .

[٢٣٤] – العلق ، ٣ .

[٢٣٥] – تنوير المقباس ، ج ٢ ص ١٤٨ .

عباده النعم التي لا تحصى، ويحلُم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه، وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبَل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم. فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرمٌ"[٢٣٦]. وفي هذا الأمر ألحق الله تعالى يبين في الآية السابقة بقوله: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[٢٣٧]، أن القلم رحمة والعلم رحمة والكتابة بالقلم حلم من الحليم بحال المستخلفين في الأرض سبحانه جل جلاله.

وعليه، الحليم هو الذي يعلم الصعاب، ويعلم بالأحوال، ويذلل الصعاب استجابة للأحوال، فبحلمه خلق القلم، وأنزل العلم، وربط العلاقات بين القلم، والعلم، والعليم، والمتعلم، فكان الحق قولا وعملا، وكان العدل والميزان حلما بأحوال العباد حتى لا يظلم احدُ أحداً وهذه رحمة من رحمته الواسعة التي بها جعل العباد مستخلفين فيها ليصلحوا ولا يفسدوا، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٣٨].

٢- الرحمة:

وأيضاً يعتبر الحلم رحمةً من الحليم القوي الذي يعلم من نفسه القدرة على معاقبة من أساء في حقه لو أراد ذلك بالمسيء المحلوم عنه، لا لعجزٍ ولا خوفٍ، ولكن رحمةً به وإتاحةً للفرصة له للتوبة والندم حتى يكون ممن ينالون الثواب بدل العقاب. قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ

---

[٢٣٦] - تفسير الكشاف ، ج ٧ ص ١٥٥.

[٢٣٧] - العلق ، ٥، ٤ .

[٢٣٨] التغابن ١٦ . ١٨.

الْمُجْرِمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}[٢٣٩].

ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٢٤٠]. فتأخير العقوبة على الظالمين من بني آدم هو نتاج حلم الحليم المطلق جل جلاله وهو رحمةٌ من الله بالمذنب نفسه، بإعطائه فرصة للتوبة لسببين:

السبب الأول: لغاية استخلافية حيث أن أصل خلقه في أحسن تقويم.

والثانية لتكون له الجنة عاقبة مع المتقين الذين كانوا هم المستخلفين في الأرض.

فعن ابن مسعود قال: "كاد الجعل يهلك بذنب ابن آدم"، وقيل لو أُهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء[٢٤١].

وقد فسّر ابن عاشور في تفسيره قول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[٢٤٢] بأنها استئناف الثناء على سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، و(أواهٌ) فُسِر بمعانٍ ترجع إلى الشفقة، إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم لأجل الهداية إلى الحق[٢٤٣] .

٣- الرفق:

والحلم كذلك يُعْتبر رفقاً من الحليم بالمحلوم عنه، فالحليم ترك المعاقبة للمسيء ترفقاً به؛ لعلمه أنه لن يطيقَ ما يمكن أن يقع عليه من العقاب وأملاً في أن يندم على إساءته ويرجع عنها حتى لا يتعرض للعقاب، إن لم يتب ويستغفر. وفي حديث عائشة رضي الله عنها

---

[٢٣٩] الأنعام ٥٤ . ٥٦.

[٢٤٠] – النحل ، ٦١ .

[٢٤١] – تفسر الكشاف ، ج٣ ص ٣٦٧ .

[٢٤٢] – التوبة ، ١١٤ .

[٢٤٣] – التحرير والتنوير ، ج٦ ص ٣٩٣ .

قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي ما سواه"[٢٤٤].

وعنها أيضاً قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه"[٢٤٥]، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم من لا يتصف بالرفق محروماً من الخير كما جاء في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يُحرم من الرفق يُحرم الخير كله"[٢٤٦].

فعلى عباد الله الذين يحسنون عبادتهم، ويطيعون خالقهم، ويدركون معنى أن يكون العبد خليفةً لخالقه، ومعنى أن يستخلفه خالقه في شيءٍ ما، أن يحرصوا كل الحرص على الاتصاف بصفات الله عامةً، ويتخلق بخلقه؛ وذلك بأن يكون حليماً في حياته مع من سواه من العباد: حليماً مع والديه، وأبنائه، وزوجه، وجيرانه، وأصدقائه، وزملائه، وعلى كل من يتولى أمرهم أو يؤتمن عليهم، فيكون بذلك قد اكتسب كل الصفات التي يتضمنها الحليم من رفقٍ ورحمةٍ وكرمٍ، وغيرها من الصفات التي تعد من فضائل الأخلاق، فينال بذلك احترام وتقدير العباد له كجزاء دنيوي من الله سبحانه وتعالى وينال رضا الله عنه في الآخرة، ويكون بذلك فيمن يستحقون أن يتشرفوا بخلافة الله، وأن يكونوا خلفاءً للمولى في الأرض، فينالون بذلك فضل الدنيا والآخرة.

وخلاصة القول في ذلك أن الحلم هو: تجرّع الغيظ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس، فلا يحركها الغضب بسرعة.

وان الحليم لهو من أوسع الناس صدراً، وألينهم عريكةً، وأشدهم ثباتاً وأقواهم جناناً، فلا تستفزه بدايات الأمور، وينظر إلى عواقبها ومآلاتها ولذلك من يفتقد هذه الخِلّة قد يُفْسِد أكثر مما يُصْلِح.

---

[٢٤٤] – صحيح مسلم ، ج ١٢ ص ٤٨٦ .

[٢٤٥] – صحيح مسلم ، ج ١٢ ، ص ٤٨٧ .

[٢٤٦] – صحيح مسلم ، ج ١٢ ص ٤٨٥ .

والحلم من الصفات التي يحبها الله في عباده، فعلى العبد أن يدرك أن توحيد الله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليما صبورا يتأنى في رأيه وحكمه وقوله وفعله، ويتخير ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الله الحليم، روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأشج بن عبد القيس: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الحِلمُ وَالأَنَاةُ"[٢٤٧]. وفي رواية أخرى عند أبي داود وحسنها الألباني: "إِنَّ فِيكَ خَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الحِلمُ وَالأَنَاةُ، قَال: يَا رَسُول اللهِ أَنَا أَتَخَلقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلنِي عَليْهِمَا؟ قَال: بَل اللهُ جَبَلكَ عَليْهِمَا، قَال الحَمْدُ للهِ الذِي جَبَلنِي عَلى خَلتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولهُ"[٢٤٨].

وعلينا أن نعرف الحلم والإمهال: إن كل حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لأن الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لان الحلم صفة مدح والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل وعلى هذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجبا لأن ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلما إلا أنه لم يكن حكمة ألا ترى أنه قد يكون الشيء سفها وإن لم يكن ضده حلما وهذا نحو صرف الثواب عن المستحق إلى غيره لأن ذلك يكون ظلما من حيث حرمان من استحقه ويكون سفها من حيث وضعه في غير موضعه ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع لم يكن ذلك ظلما لأحد ولكن كان سفها لأنه وضع الشيء في غير موضعه، وقولنا الله حليم من صفات الفعل، ويكون من صفات الذات بمعنى أهل لأن يحلم إذا عصي، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحق للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، ولذا فالحلم لين، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة، فيتجاوز عنهم حتى يعلموا أنه رؤوف رحمن رحيم.

قال الله تعالى: {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنَّ الله غفور حليم} إذاً الحليم هو الذي يعلم ما في أنفسنا، وهو الذي لا تخفى عنه خافية، فهو يعلم الظاهر والباطن

---

[٢٤٧] – صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ١٠٧.

[٢٤٨] – سنن أبو داود ، ج ١ ، ص ٤٥٧.

وهو على كل شيء قدير، ولأنه كذلك لو شاء لعاقبنا على ما في أنفسنا من شكوك أو ظنون أو نوايا حيث لا كمال في العباد. وفي ذلك جاء في شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة "الحليم هو الذي يَدِرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم"[٢٤٩].

وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيّض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وبعضهم يتبغّضون إليه بالمعاصي.

ويستحي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة وهو الحيي الستّير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٥٠].

الحليم جل جلاله هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ

---

[٢٤٩] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص ٥٥.

[٢٥٠] النور ١٩، ٢٠.

فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٢٥١].

الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة فكل من لا يعاجل بالعقوبة سمي فيما بيننا حليما وليس قول من قال إن الحليم هو من لا يعاقب بصواب، وفي ذلك قال الشاعر:

حليما إذا ما نال عاقب مجملا ... أشد العقاب أو عفا لم يثرب

ولذا فالْحَلِيمِ هو من يصفح مع امتلاكه للقوة والقدرة وهو الذي بيده الأمر ولا يعجِّل بالعقوبة وهو الَّذِي لا يَحْبِسُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ عَنْ عِبَادِهِ لأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ يَرْزُقُ الْعَاصِي كَمَا يَرْزُقُ الْمُطِيعَ، وَيُبْقِيهِ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ فِي مَعَاصِيهِ، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل، فهو يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون للطاعة والصواب، ولو أنه عجل بالجزاء أحدا ما نجا أحد من عقاب، ولكن الله سبحانه هو الحليم ذو الصَّفحِ والأناةِ، استخلف الإنسان في أرضه واسترعاه، واستبقاه في هذه الحياة إلى يوم موعود وأجل محدود.

قال تعالى: {إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} وهذا مدح عظيم من الله تعالى للخليفة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولذا فالحليم هو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض بالحق يصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك دما بغير حق، ويتقي الله ربه في القول والفعل والعمل.

الدعاء باسم الحليم

قد ورد الدعاء باسم الحليم دعاء مسألة في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، فعن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض رب العرش العظيم"[٢٥٢].

---

[٢٥١] النحل ٦١ . ٦٤.

[٢٥٢]– صحيح البخاري ، ج ١٩ ، ص ٤٢٦.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني، لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين"[٢٥٣].

وعليه الحلم يقوم على ثنائية طرفاها (الإمهال والقدرة) ، فلا حلم بدون مهلة تسمح بالتراجع أو التغيير، ولا حلم بدون قدرة على الانتقام أو العقاب، لان الحليم هو الصفوح عن الذنب مع القدرة على المؤاخذة به[٢٥٤].

وحلم الحليم لاشك فيه إمهال وهو جزء من حلمه سبحانه، لأن كل حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لان الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لان الحلم صفة مدح، والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحق للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، وقال بعضهم لا يجوز أن يمهل أحد غيره في وقت إلا ليأخذه في وقت آخر[٢٥٥].

وعلى ذلك يمكن أن نحدد بعض ملامح إمهال الحليم؛ وهو على نوعين:

أولاً: الإمهال المطلق: وهو الإمهال الذي عم به الحليم خلقه بالعموم، ولم يخص به أحداً من خلقه وهو راجع إلى إرادته عز وجل، وله غايات منها:

. العودة عن المعصية: إن الحليم هو المريد لإسقاط العقوبة في الأصل عن المعصية[٢٥٦]، ولهذا كان الإمهال وهدفه المراجعة والتفكر في أمر المعصية التي يقوم بها العبد من خلال الآيات، {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}[٢٥٧]، {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٢٥٨]، فهذه الآيات وغيرها من آيات الحليم

---

[٢٥٣]– سنن الترمذي ، ج ١١ ، ص ٣٨٤.

[٢٥٤] البحر المحيط ، ج ٢، ص ٣٧٤.

[٢٥٥] الفروق اللغوية ج ١، ص ١٩٨.

[٢٥٦] الأسماء والصفات للبيقهي ص ٣٤٩.

[٢٥٧] الفرقان ٣٧.

سبحانه وتعالى هي للتفكر والتدبر ومراجعة العمل وأخذ الدروس والعبر، ومثلها الأمثال، يقول الحليم سبحانه ضاربا الأمثال: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ}[٢٥٩]، فعلينا التدبر، ويقول عز من قائل: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[٢٦٠]، وفي تفسير الرازي "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون يعني حقيقتها، وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه، وفيه معنى حكمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً وكون المدرك عاقلاً، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً. إذا علم هذا فقوله: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون) يعني هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء"[٢٦١].

وهذه الأمثال تُضرب لإثارة العقل الإنساني ودعوته للتفكر في الدواعي والأسباب الموجبة لضرب هذا المثل ثم استخلاص العبر من أجل حصول الفائدة، وفي ذلك كله مهلة زمنية تتاح للعبد لكي ينجلي عنده ظلام الضلال وينبجس صبح الهداية وهذا المراد من ضرب الأمثال من الحليم.

ثم يأتي أهل الذكر من المتبحرين في كتاب الله وسنة نبيه وهؤلاء من علامات الهدى التي أمر الحليم عباده بالعودة إليهم لاستبيان الحق فقال عز من قائل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٢٦٢]، هذه كلها من دوافع التذكر والعودة، فإذا استنفذ العبد كل ذلك ولم يرجع عن معصيته إلى طاعة الخلق عز وجل يحل

---

[٢٥٨] العنكبوت ٣٥.

[٢٥٩] إبراهيم ٤٥.

[٢٦٠] العنكبوت ٤٣.

[٢٦١] تفسير الرازي ج ١٢، ص ١٧٢ .

[٢٦٢] النحل ٤٣.

عليه غضب الله، ويكون قد دخل في ساعة العقاب على ما يشاء الله سبحانه، فإن شاء عاقب، وإن شاء مد المهلة والله واسع عليم رحيم كريم.

ومد المهلة أكثر قربا من حظ العبد لان الحليم وهو الذي يؤخر العقوبة على مستحقيها ثم قد يعفو عنهم[٢٦٣]، وهو الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا[٢٦٤].

. الزيادة في الطاعة، ويكون من غايات مهلة الحليم أن يزداد العباد علوا في درجات الطاعة أملا في زيادة الأجر والثواب وارتقاء الدرجات العلى في اليوم الآخر، وقد دعاهم الحليم إلى ذلك ورغبهم فيه فقال جل جلاله: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}٢٦٥، وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.

وقد وصفهم الحليم بأنهم من ذوي الألباب الذين يعرفون حق الله فيزيدون في طاعته ويكثرون من ذكره طمعا في زيادة أجره وهم يعلمون أنه الكريم، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[٢٦٦].

---

[٢٦٣] الاعتقاد للبيقهي ج ١، ص ٥٨ .

[٢٦٤] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ص ٩٥.

[٢٦٥] المطففين ٢٢-٢٦.

[٢٦٦] آل عمران، ١٩٠-١٩٤.

وهذا من لطف الحليم المتصف بالحلم، والحلم صفة كريمة تقوم على الحكمة والعلم والصبر، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل ، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب[٢٦٧].

والموصوفون هنا بالعلم (ذوي الألباب) يدركون رحمة الحليم بهم في مسألة الإمهال لزيادة الثواب، فهم يسعون للوصول إلى درجة المقربين، {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}[٢٦٨]، أو أن يكونوا من أصحاب الدرجات العلى، {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[٢٦٩]، أو أن يكونوا من المفلحين أصحاب الفوز العظيم، {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٢٧٠]، وهم في كل ذلك يهزهم الشوق إلى مزيد الحليم المخفي الذي وعدهم فشوقهم وجعلهم يتنافسون في الطاعات ويرغبون في المزيد، {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[٢٧١]، انظر عظمة العطاء! الجنة بكل ما فيها وبكل عظمتها تتحرك باتجاههم وليس هم من يركض إليها، اللهم يا حليم اجعلنا منهم وأمة حبيبك محمد صلوات الله وسلامه عليه.

. الزيادة في الإثم، ومن غايات المهلة ما خُص به الكافرون لعلة الكفر والإصرار عليه وذلك لزيادة الإثم، يقول الحليم سبحانه وتعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

---

٢٦٧ أسماء الله الحسنى، ص ٣٠.

٢٦٨ الواقعة ٨٨-٨٩.

٢٦٩ طه ٧٥-٧٦.

٢٧٠ التوبة ٨٨-٨٩.

٢٧١ ق ٣١-٣٥.

لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٢٧٢]، فالمهلة هنا مهلة زمنية ومادية، حيث أن الإمداد المادي يحتاج بكل تأكيد إلى مساحة زمنية والغاية زيادة ارتكاب الإثم، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة التي يقول الحليم سبحانه وتعالى فيها: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}[٢٧٣].

وتبقى رحمة الحليم أوسع من سخطه، فلو حدث أن انتبه أحد من الذين كفروا وعاد إلى الله مخلصا فإنه سيجد الله توابا بحلمه وكرمه، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٢٧٤] ، وسيجد من الله رحمة في الدنيا وسعة فإذا عاد عاد الله علية بالنقمة والعذاب، {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٢٧٥] .

هذا الحديث كان عن المهلة المطلقة، وهي مطلقة من حيث النوع وليس من حيث الزمن، فالمطلق هنا البشر من عبيد الله، وليس الزمن، فلا زمن مطلق لأي شيء سوى الخلود الأخروي إما في الجنة جعلنا الله من الخالدين فيها، {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[٢٧٦] ، وإما في النار أجارنا الله من عذابها، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[٢٧٧] .

---

[٢٧٢] آل عمران ١٧٨.

[٢٧٣] المؤمنون ٥٢-٥٦.

[٢٧٤] النساء ١١٠.

[٢٧٥] البقرة ٢٧٥.

[٢٧٦] آل عمران ١٥.

[٢٧٧] البقرة ١٦١-١٦٢.

ثانياً: الإمهال المحدد، وهو ما كتب الله له الانتهاء بعد فعل أو زمن، فالحليم عليم بعباده وبمتغيرات وتقلبات نفوسهم لذا فقد شملهم بالمهلة وكتب عليهم ثوابت من عنده فإذا أخلُّوا بها انتهت المهلة التي حددها الحليم لهم، فربما يكون الانتهاء بعد فعل مشروط، أي أن يفعل العبد فعلا منع منه ونبه إلى عاقبته كما فعل بنو إسرائيل، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}[٢٧٨]. فقد اقترن انتهاء المهلة بفعل الإحسان فإذا انتهى الإحسان انتهت المهلة، وكذلك فإن كل انتهاء لمهلة الحليم يرتبط بكل تأكيد بفعل العباد، فمتى ما غيروا انتهت مهلة الرحمة وبدأ العذاب، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}[٢٧٩].

وقد يكون الانتهاء بعد زمن قدره الحليم سبحانه وتعالى، فهو لا يُعجِّل العقاب للعصاة قبل وقته المقدر[٢٨٠]، وهي مهلة محددة جعلها الحليم سبحانه كنوع من التحدي للأقوام التي وعدها بالعذاب، حيث حددها في الغالب بزمن مخصوص فهل يستطيع هؤلاء رد العذاب وعندهم مهلة للتفكر وتدبير أمر إن شاءوا؟ وقد أعطى قوم ثمود مهلة محدودة وتحداهم أن يقدروا على رد العذاب فقال تعالى: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}[٢٨١]. وأمهل قوم لوط مهلة الليلة فقال إن موعد العذاب الصبح، {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

---

[٢٧٨] الإسراء٤–٨.

[٢٧٩] الرعد ١١.

[٢٨٠] المواقف الإيجي، ج ٣، ص ٣١٩.

[٢٨١] الذاريات ٤٣–٤٥.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}[٢٨٢] .

وإذا سأل سائل: لماذا الإمهال؟ نقول لأنه الحليم، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٢٨٣].

فإذا قال: لماذا هو حليم ؟ نقول لأنه العليم، ولماذا هو عليم ؟ لأنه الخالق، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[٢٨٤].

فالله هو الخالق والعليم بخلقه الحليم بهم، فقد خلق الخلق وهو يعلم ما به من النقص الحاصل أمام كماله جل شأنه، فكان حليما به، هذا النقص نتج عنه ضعف في العبد يتمثل في الآتي:

١ . أنه هلوع، أي أن لا يَصْبِرُ على خَيْرٍ ولا شَرٍّ حتى يَفْعَلَ في كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرَ الحَقِّ[٢٨٥]، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}[٢٨٦]، هذا الهلع يوقع العبد في الذنب أحيانا، فلو لم يجد المهلة من الحليم سبحانه للتراجع والاستغفار لهلك ، فسبحان الحليم العليم .

وعلى الخليفة أن يفهم هذه الخصلة في نفسه وفي غيره، فيعامل العباد معاملة العارف بهلعهم من حيث حلمه عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علل تؤدي بهم إلى الوقوع في الخطأ.

٢ . عجول: قال تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}[٢٨٧]، والعجالة شكل من أشكال الضعف، إما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها، أو في قول يسبق إلى النطق به وهذا محاسب عليه كما الفعل لأن سبحانه يقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[٢٨٨]، وهذه العجالة يصاحبها في الغالب عمل يتعدى به حدود الله أو ينتج عنه معصية

---

[٢٨٢] هود ٨١.

[٢٨٣] البقرة ٢٣٥.

[٢٨٤] الحجر ٨٦.

[٢٨٥] تاج العروس ١، ٥٣.

[٢٨٦] المعارج ١٩.

[٢٨٧] الإسراء ١١.

[٢٨٨] ق، ١٨.

، ولو لم يكن الحلم منه عز وجل لحل بالعباد غضب الله ونزلت بهم عقوبته ، وعلى الخليفة أن يتأنى في النظر إلى الأمور وأن يتأنى في الحكم على الأشياء حتى لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد الحليم له أن يكون من فعل أو قول.

٣ . جزوع، وهو قلة الصبر: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا}[٢٨٩]، وهو من أمراض النفس المؤقتة التي تدفع بالإنسان إلى ارتكاب عمل خارج عن الطاعة، وما أن ينتهي الجزع حتى يعود الإنسان إلى رشده، ولو لم يكن الإمهال من الحليم الرحيم بحيث يرجع العبد إلى استقراره النفسي ثم يستغفر ويتوب لوقع في غضب الله سبحانه وتعالى.

٤ . منوع: أي مانع للخير: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}[٢٩٠]، وإذا كثر ماله، ونال الغنى تراه يبخل على المحتاج، فلا ينفق في سبيل الله، ولا يقرض محتاجاً مع توصية الحليم له بذلك، بل أكثر من ذلك فقد نسب الاقتراض بمجمله إليه بقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[٢٩١]، فلو لم تكن من مهلة لكي يتراجع العبد بعد أن يرى الآيات ويتدبر الأمثال ويستمع لأهل الذكر، لوقع عليه سخط الله ما أن منع، فالمهلة هنا رحمة من الحليم الرحيم بعباده.

٥ . ضعيف: قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[٢٩٢]، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم، فقد ضعف آدم أمام الشيطان فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ

---

[٢٨٩] المعارج ٢٠.

[٢٩٠] المعارج ٢١.

[٢٩١] الحديد ١١.

[٢٩٢] النساء ٢٨.

مُبِينٌ}[٢٩٣]، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[٢٩٤]، والآيات التي توضح صورة الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلى أن الإنسان غير قادر على أن يكون قوياً بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق ، فالقوي المطلق هو الله فكان لابد أن يظهر الضعف فيمن سواه، هذا الضعف يحتاج إلى مهلة يستعين بها العبد فيتقوى بالطاعة والعودة والإنابة إلى الله الحليم.

هذه مفسرات دواعي المهلة وغيرها يعلمها الحليم الحكيم جل جلاله.

أم الطرف الثاني من ثنائية الحلم فهي القدرة، وهي قدرة الأخذ، وقدرة الترك معا، فهو سبحانه حليم لا تهزه معصية العاصي لأنها لا تضره ولا تنفعه سبحانه وتعالى، فهو الغني القادر، "وهو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش"[٢٩٥]، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٢٩٦].

فقدرة الحليم حاصلة بالدليل، فكل الأقوام المُهلكة أدلة على قدرته سبحانه وتعالى ويكفي أن نذكر عاد وثمود لنقول سبحان القادر، {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ

---

[٢٩٣] الأعراف ١٩-٢٢.

[٢٩٤] المائدة ٢٧-٣١.

[٢٩٥] المقص د الأسنى ، الغزالي، ج ١، ١٠٣.

[٢٩٦] النحل ٦١.

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}[٢٩٧].

وهو حليم في عطائه، فهو "الَّذِي لا يَحْبِسُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ عَنْ عِبَادِهِ لأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ يَرْزُقُ الْعَاصِي كَمَا يَرْزُقُ الْمُطِيعَ، وَيُبْقِيهِ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ فِي مَعَاصِيهِ كَمَا يُبْقِي الْبَرَّ التَّقِيَّ، وَقَدْ يَقِيهِ الآفَاتِ وَالْبَلايَا وَهُوَ غَافِلٌ لا يَذْكُرُهُ فَضْلا عَنْ أَنْ يَدْعُوهُ كَمَا يَقِيهَا النَّاسِكَ الَّذِي يَسْأَلُهُ، وَرُبَّمَا شَغَلَتْهُ الْعِبَادَةُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ"[٢٩٨].

فالرزق شامل للجميع بحلم الحليم سبحانه، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٢٩٩]، فهو الذي يَدِرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة ، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم[٣٠٠].

وحلمه سبحانه وتعالى فيه مودة واضحة الملامح للقاصي والداني لأنه الودود، فالعبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إلى الله، حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيّض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغّضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح[٣٠١].

وحلم الخليفة يكون كحلم إبراهيم الذي حمده الرب الحليم سبحانه وتعالى فقال عنه: {إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}[٣٠٢]، وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم، فالحليم هو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله(الله) فإنه يحب من غيره هذه

---

[٢٩٧] الحاقة ٤-٦.

[٢٩٨] الأسماء والصفات ١، ١٤٢.

[٢٩٩] هود ٦.

[٣٠٠] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٥٥.

[٣٠١] المرجع السابق، ج ١، ص ٩٥.

[٣٠٢] هود ٧٥.

الطريقة (العبد الخليفة)، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله: (أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة، ووصفه أيضاً بأنه مُنيب ، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم، أو يقال: إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً[٣٠٣].

اللهم يا حليم كن بنا رؤوف رحيما، واجعلنا ممن يحلمون في التعامل مع الآخرين فلا نتسرع في أحكامنا مع من نعمل ونتعال ويسيئون إلينا، ومكّنا من الصبر حتى نمتلك الحلم، اللهم بحلمك لِنْ قلوبنا على ذوي العلاقة بنا من والدين وزوجات وأبناء وجيران وإخوة في الوطن والدين وأحفظنا يا حليم من كل بلاء وشقاء ومن كل فتنة.

اللهم يا حليم اجعلنا أشداء على أعداء الدين ولينين على أحبائه، واجعلنا أشداء على الظلم ولينين مع كل عدل، واجعلنا رحماء فيما بينهم. اللهم إن الحلم من صفاتك الحسان فكن بنا حليما رحيما.

وعلى خليفة الله أن يكون حليماً مع نفسه لكي يتمكن من أن يكون كذلك مع غيره، ولكن كيف يكون الإنسان حليماً مع نفسه؟

أولاً: أن يكون حليماً في تدريب النفس على مقاومة الشهوات:

إن الإنسان مخلوق ضعيف، والدنيا مليئة بالشهوات والمغريات الكثيرة التي إن قاوم الإنسان إحداها صعُب عليه مقاومة غيرها، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[٣٠٤]، وهذا الضعف الذي تتفاوت نسبته من إنسان لآخر حسب الجانب الديني

---

[٣٠٣] تفسير الرازي، ج ٨، ص ٤٤٤.

[٣٠٤] النساء ٢٨.

والأخلاقي وحسب البيئة والمجتمع ودرجة العلم وغيرها من العوامل التي يتأثر بها الإنسان وتؤثر على سلوكه، لذلك فقد يضعف هذا الإنسان أمام شهوةٍ ما فيزل ويُخطئ، وبعد صحوة الإنسان من ذلك واتضاح الرؤية لديه بعد تضليلها يبدأ في الاستغفار والعودة لطريق الحق، ولكننا نجد أنه في الأغلب يتكرر وقوع نفس الإنسان في ذنوب وأخطاء، ويأتي هنا كيفية علاج هذا الإنسان لهذه المعضلة، ويختلف البشر في ذلك فهناك من لا يصبر على تدريبها وتعويدها على العودة للحق والاستغفار وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى، في حين نجد القلة من يتصف بالحلم في معالجة نفسه وإرجاعها لحب خالقها وطلب رضاه، فلا يمل من محاورة الذات ومخاطبتها باللين، ويصبر على معالجتها من أي مرضٍ قد يصيبها أو ضعفٍ قد يعتريها، فلا ييأس ولا يتعب من تلك المحاولات لإعادة النفس إلى طريق الحق والهداية والتوبة.

ومن أخطر الأمور على الإنسان أن لا يكون حليماً مع نفسه، فتراه ضجراً متأففاً فاقداً للقدرة على معالجتها، فيصل إلى اليأس من إصلاحها ليجد نفسه إما غارقاً في الذنوب والخطايا، بحجة أن الله لن يغفر له كثرة ذنوبه فما الفائدة من الاستغفار طالما الذنب يتكرر أو تجده مريضاً نفسياً من الشعور بالخوف المرضي من العقاب.

ولأن خليفة الله لابد أن يتصف بصفات خالقه عز وجل، فوجب عليه أن يكون حليماً مع ذاته معطياً لها الفرص المتكررة للهداية والعودة للصواب والرشاد، فإذا كان الخالق حليماً بنا لطيفاً صبوراً علينا فكيف لا نكون نحن كذلك من أنفسنا التي أوصانا الله تعالى بها وأودعها أمانةً في رقابنا؟

وإذا وصل الإنسان إلى أن يكون حليماً في تعويد نفسه على التوبة والصبر على التفاهم وفتح باب الحوار معها، فسوف ينعكس هذا الشعور بالرضا عن الذات على طريقة التعامل مع من حوله، فنراه هادئاً راضياً حليماً صبوراً معهم، لا يتهور ولا يتعجل في أي أمرٍ يجمع بينه وبينهم، فيخلق بذلك هذا الخليفة جواً من الهدوء النفسي والراحة له ولمن حوله، فلا يتعجل بالعقاب لمن أساء إليه ولا يتهور في رد الإساءة والمبالغة فيها، إذ كان لابد من الرد

فبحلمه لن يتجاوز حقه في الرد، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}[٣٠٥]، ومن الآية السابقة نجد:

١- إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- كان حليماً وصبوراً حتى مع غير المسلمين، وهذا دليل على ما للحِلْم من نتائج مثمرة، إذ أنه لنا في رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوةٌ حسنة، فهو من علّمه ربه وأدبه، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٣٠٦] لذلك فعلى خليفة الله أن يجعل من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام منهجاً ونبراساً يسير عليه ويتخلق بأخلاقه التي كان الحلم من ضمنها، فما كان الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- ليصل إلى ذلك دون اتخاذ الحلم سبيلاً للخطاب، وأسلوباً للإقناع.

٢- إن الآية الكريمة السابقة أقرّت أنه من صفات الحليم القدرة على المجادلة والصبر على الحوار مع المسلمين وغير المسلمين، (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، فالخليفة لابد أن يملك القدرة على فن الكلام والاستماع معاً، فلا يتذمر من حوارٍ طال مع مشركٍ بالله أو مع كافرٍ به، بل عليه أن يكون حليماً معهم لعله يصل إلى إقناعهم بالحق وإيصالهم للحقيقة، فلا يتعجل ولا يتذمر من ذلك .

٣- بالرغم من إعطاء الحق للإنسان بمعاقبة من أساء إليه إلا أن المولى عز وجل جعل من الصبر خيراً لصاحبه، والصبر درجة من درجات الحلم، لأن في الصبر الكثير من الفوائد التي تعود على الحليم عينه وعلى من حوله، فنبدأ بالفوائد التي تعود على الإنسان نفسه:

أولاً: كسب رضا المولى عز وجل:

---

[٣٠٥] النحل ١٢٥، ١٢٨.

[٣٠٦] القلم ٤.

لا يصل الإنسان إلى أن يكون حليماً إلا إذا كان على درجة من حب الله تعالى تجعله محباً لأن يتصف بصفاته، عاملاً بأوامره، وفي ذلك الخير العظيم إذ تكون مكافأة الخالق له متمثلة في جنة النعيم التي هي مأواه كما وعده الله تعالى.

ثانياً: الحِلم يقوّي صاحبه على وسوسات الشيطان:

فلا سلطان للشيطان على الحليم بالإضافة، لأن الحلم من شأنه أن يطفئ نار الغضب التي يؤججها الشيطان في نفس الإنسان في لحظة قد تكون نتيجتها الدمار والندم، لأن من شأن التعجل والتهور أن يجلبا الندم للإنسان، كأن يسارع في تصديق أي خبر دون التأني في تصديقه فيقع في الخطأ كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[٣٠٧]، فيأتي هنا دور الشيطان في وسوسته للإنسان بالتهور والتعجل في الأمر دون أن يفكر ويتأنى، ونستطيع أن نربط من خلال فهمنا للآية الكريمة السابقة بين العجلة والجهل الذي لا يؤدي إلا للندم، فالتهور والتعجل لا يصدران عن إنسان حكيم وعلى درجةٍ من العلم تجعله مترفعاً عن التهور والعجلة، وخاصة إذا كان ذلك في حق من حولك، وتُعْتبر العجلة من الجهل لأنها تُلغي الحكمة وبعد النظر فلا يستطيع رؤية الأمور من زاوية صحيحة تؤهله لأن يكون من خلفاء الله في الأرض، وبالتالي فالحلم مرتبط بالعلم بالشيء وعاقبته، فلن تجد حليماً عن جهل.

ثالثاً: الوصول إلى أفضل الحلول:

لا يمكن أن يصل الإنسان إلى معالجة مشاكله التي يمر بها إلا بالتروي والتأني لكي يرى الأمور ويقيسها من كل الزوايا، فيختار الأسلم وليس الأسرع لمجرد هكذا، فنجد كافة شرائح المجتمع بحاجة للحلم في مواجهة المشاكل والأزمات، مثل:

أ- الوالدين:

فلابد أن يدرك الوالدان متى يكون الحلم مفيداً مع الأبناء، فلا يتعجلان بالعقاب ولا يتهوران فيندفعان دون رادع بالتلفظ بالألفاظ المؤذية للأبناء دون وعي منهما بنتيجة ذلك، بل لابد أن

---

[٣٠٧] الحجرات ٦.

يكون الحلم الإيجابي أسلوب التعامل في الأسرة لكي يتعلم الأبناء الحلم بمن حولهم ومن ضمنهم الوالدان وصلة الرحم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه إذ أنه إذا نشأ الأبناء في جو مشحون متوتر وعصبي فإنه لا محالة أن ذلك سيكون له الأثر البليغ في تكوين شخصية الأبناء على نفس الأسلوب المتوتر المتشنج، فلا يعد هناك من مكان للتفاهم والحوار الأسري ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى ضياع الأبناء في رحلة البحث عن مستمع يصبر عليهم ويحلم عنهم.

ولابد أن يدرك الوالدان الفروق بين الأبناء سواء كانت في الشخصية والنفسية والعقلية، فيتعاملون بذكاء وفطنة مدركين متى يكون ومع من الحلم والصبر والحزم، فلا يجب أن يخلط الوالدان بين الابن العنيد والمشاغب والعصبي والذكي والغبي بل لابد من الفصل في أسلوب التعامل مع كل واحدٍ منهم.

ب- المعلم:

نلاحظ في أسلوب التعليم المتبع أنه يقل استعمال أسلوب الاستماع والإنصات للمتعلم من قِبَل المعلم، مع أن التعليم ليس محدوداً على تلقي التلميذ للمعلومات العلمية فقط، بل يجب إعداده لأن يكون إنساناً نافعاً سوياً معطياً، وهذا لا يأتي إلا بإعدادهم نفسياً وتهيئتهم ليكونوا رحماء أقوياء متصفين بالحلم والحكمة.

فالمعلم بحاجة إلى الحلم والصبر والتأني في تعامله مع المتعلمين باختلاف شخصياتهم ومستوياتهم العقلية والأخلاقية، فنجد من بين المتعلمين المشاغب وغير السوي نفسياً وغيرهم الأمر الذي استدعى عدم التعجل والتهور في اتباع الأسلوب المناسب لكل فئة من المتعلمين، فالحلم يجعل من الطالب المتمرد مطيعاً متفهماً بعد أن يستشعر آدميته وقيمته.

وعلى ذلك يجب أن يكون المعلم مثالاً للمتعلم، فحريٌ به أن يكون حليماً لا يتشدد ولا يعاقب ما لا يستحق العقاب بل عليه أن لا يلجأ للعقاب قدر الإمكان، ولا يتهور المعلم في التلفظ بألفاظ لا تليق بمكانته العلمية قد تقوده العجلة والعصبية لاستعمالها، بل لعل حلمه عن المتعلم عند صدور الخطأ منه يفتح باباً من الود والمحبة، ويمد جسراً للحوار والاحترام

والتقدير، فيصبح المعلم كبيراً في نظره الذي سيخجل من رفعه في وجه معلمه. والمعلم المشارك والمحاور أفضل من المعلم غير المشارك وغير المحاور لطلبته.

ج – الدعاة:

لا يمكن أن يستغني الداعي للحق عن الحلم، فنحن نلاحظ في مجتمعنا الإسلامي أنه يزخر بالدعاة للحق والخير، ونلاحظ أيضاً مدى اتساع صدرهم وصبرهم على الحوار مع الغرب وغير المسلمين، وحلمهم مع المسلمين العاصين، لأنهم يدركون ما من سبيل للوصول بالإنسانية إلى أعلى درجات الرقي إلا باتباع الدين الحق الذي جاء به رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم– ولا يمكن إقناع البشر عنوة بذلك، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[٣٠٨]، لذلك فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام مثالاً للحلم والصبر على أذى الناس حتى أقربهم إليه مثل عمه أبي لهب حين تمادى في إيذائه وإلحاق الضرر به، وكذلك يتضح لنا حلمه في موقف صلح الحديبية الذي أثارت شروطه التي وضعها كفار قريش غضب المسلمين جميعاً إلا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بحلمه وحكمته آثر ورأى الصواب في الموافقة عليها رغم الاعتراض عليها من المسلمين، الذين أدركوا في نهاية الأمر مدى جدوى حلم الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك، إذ أنه أدى إلى فتح مكة المكرمة.

فقد وازن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بين الحلم والقوة التي تجلب العزة والرفعة، فلم يكن حلمه عن جهلٍ أو ضعف، بل عن علمٍ وقوة، فلا يكون الضعيف حليماً أبداً.

وهنالك أمور تعين الإنسان على أن يتحلى بالحلم منها:

١– ذكر الله تعالى:

من سكن حب الله تعالى قلبه فقد وصل إلى التحلي بأروع الخصال ومنها الحلم، فلا يمكن لعقلٍ يؤمن بالله وقلبٍ يخشى الله ولسانٍ يذكر الله تعالى أن يكون عجولاً هلوعاً لا يهدأ ولا يصبر على أمر ولا يحلم، لأن القلب لا يطمئن إلا بذكر الخالق عز وجل وبالتالي فالطمأنينة تبعث على الحلم والتأني والصبر، أما البعد عن المولى عز وجل فيجعل من الإنسان متوتراً

---

[٣٠٨] البقرة ٢٥٦.

لا صبر عنده ولا تأني، فتراه كثير الخطأ والزلل، فطوبى لمن سكن حب الله وخشيته قلبه وعقله فاستحق بذلك الأجر العظيم، قال جل جلاله في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[٣٠٩]، وبهذا الحب يقوى الإنسان داعماً ذاته بالصبر والحلم والحكمة وذلك من أسباب القوة، فيكون بذلك متغلباً بذلك على الطبع الغالب على أكثر البشر، قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}[٣١٠].

إذن فمداومة ذكر الخالق ومصاحبة حبه من أعظم أسباب اتصاف الخليفة بصفات الله سبحانه وتعالى، من رحمةٍ وحكمة وحلم وعلم وغيرها، فلا يستطيع الخليفة أن يصل إلى درجة الحلم وهو بعيد عن الله تعالى، فالبعد عن الله قربٌ من الشيطان الذي لا يترك وسيلة لإبعاد الإنسان عن الحلم لما في ذلك من خيرٍ للإنسان وصلاح أمره في الدنيا والآخرة، ففي الحلم إدراك للحقائق واستنباط للعبر ومعالجة صحيحة لما يصادفنا في الحياة ونشرٌ للفضيلة والحب بين البشر الأمر الذي ينفر منه الشيطان ولا ييأس من محاولة زرع الشر والفساد بدفع الإنسان للتهور والعجلة وإبعاده عن الحكمة والحلم، قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[٣١١]، فلا سبيل للتغلب على وسوسات الشيطان الرجيم إلا إذا امتلأ القلب بحب الله وذكره الدائم.

٢- اللجوء إلى الله:

الخليفة هو الذي يلجأ إلى الله تعالى في الفرح والترح، فلا يسكن الفرح قلبه فينسى بنشوته شكر الله تعالى على ذلك، ولا يحيط الحزن والألم حياته إلا وكان المولى عز وجل رفيقه وملجأه الذي يدعوه ويستعين به، واللجوء إلى الله يجعل الإنسان مترفعاً بذلك عن اللجوء لغيره

---

[٣٠٩] الملك ١٢.

[٣١٠] المعارج ١٩، ٢١.

[٣١١] البقرة ٢٦٨، ٢٦٩.

مما يصل به لأن يكون قوياً عزيزاً متوكلاً واثقاً من قدرة خالقه وقوته ورحمته، فمن شأن اللجوء إلى الله والتوكل عليه في جميع الأمور أن يعلمان الإنسان على الحلم ويعودانه على الصبر، قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[٣١٢]، فلا يمكن أن يكون الإنسان متوكلاً على الله وهو عجول لا يصبر على ما عند الله، فيسرع طالباً ما يحتاجه من غير الله بالرغم من عدم قدرتهم على منحه أي شيء إذا أمعن النظر وحكّم عقله وتأنى، ولكن من توكل على المولى عز وجل واتقى فينال بذلك البشرى والأجر العظيم، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}[٣١٣].

٣- الاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام:

من جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام مثلاً يسير عليه فقد وصل بالتأكيد إلى استحقاقه أن يكون خليفة الله، بتخلقه بخلقه ويعمل بعمله ويسير على نهجه، فحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذا تمكن من قلب المسلم أسكن فيه الحلم وتعوّد على الصبر لما كانت عليه سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من صبرٍ على الأذى وحلمٌ عن المسيئين مع توافر قدرته على عقابهم.

---

[٣١٢] النحل ٤٢.

[٣١٣] يونس ٦٢، ٧٠.

فإذا أردت أن تستسهل اتصافك بالحلم فليس عليك إلا أن تحب الله ورسوله الكريم وتجعله عليه السلام حياً دائماً ماثلاً بمواقفه بين عينيك، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[٣١٤].

ولكن في المقابل من اشترى حب الله ورسوله بمتاع الحياة الدنيا فقد سلّم بذلك نفسه للشيطان يعبث بنفسه ويقوده للهلاك والضلال، فلا يغلب سيطرة الشيطان على الإنسان ويرده إلا قلباً ممتلئاً بحب الله ورسوله الكريم، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[٣١٥].

٤- الإكثار من الطاعات التي منها:

أ- الصلاة:

بما أن الصلاة أساس لاتصال العبد بربه، وركن من أركان الإسلام فقد كانت لها من الأثر الكبير في بناء شخصية المؤمن، فالصلاة بنهيها الإنسان عن فعل المنكر والرذيلة تجعله حليماً وصبوراً، قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[٣١٦] وقال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}[٣١٧]، ففي الآية الكريمة السابقة نجد أن الله تعالى وضح الطبع الغالب على البشر وهو التسرع وعدم القدرة على تحمل الضيق والأزمات، ولكنه استثنى من كل البشر المصلين الذين يحافظون على صلاتهم، فلا ينقطعون عنها وكذلك المتصدقون بأموالهم.

---

[٣١٤] الأحزاب ٢١.

[٣١٥] التوبة ٢٤.

[٣١٦] العنكبوت ٤٥.

[٣١٧] المعارج ١٩، ٢٦.

فالصلاة هي بحد ذاتها تغرس في قلب المصلي الرحمة والعفو فتجعله حليماً برحمته على من حوله، لا يستسهل معاقبة المسيئين له، ولا يبادر بالغضب والانفعال المبالغ فيه.

ب- الصيام:

صيام شهر رمضان المفروض على المسلمين جميعاً في حقيقته هو درسٌ في تعليم المسلمين الحلم والصبر، فالذي يصبر على الجوع والعطش لابد أن يصبر على ما يصيبه من كربٍ أو هم، ومن ضمن آداب الصيام عدم غضب الصائم والخروج عن طوره.

(اللهم أني صائم) هذه الجملة التي على الصائم أن يكررها في حال تعرضه لضغطٍ نفسي أو عندما يواجه موقفاً يحتاج لكبح جماح نفسه، بذلك يكون من السهل على المؤمن الصادق الذي تعوّد الحلم في صيامه عن من أساء إليه، أن يحلم عن يصيبونه بالأذى والضرر المعنوي والمادي.

ج – الزكاة:

من شأن المحافظة على الزكاة أن تجعل من المسلم حليماً كيف ذلك؟.

أن إخراج الزكاة من مال المسلم الخاص يعني بالمفهوم الدنيوي أن هذا المال قد نقص، ولكن تعوّد المسلم على الزكاة تجعله متقبلاً ومحباً لذلك، وهذا الأمر يجعله مهيئاً لأن يكون حليماً مع نفسه في حال تعرض ماله للخسارة والضياع، بأن يكون حب الله وقناعته بأن هذا المال من عند الله وما هو إلا متاع الحياة الدنيا، عندها سيصل المؤمن إلى استسهال خسارة المال الذي يخصه، فلا يصل إلى درجة الجنون واختلال العقل كما نجد في بعض حالات رجال الأعمال والأغنياء الذين يخسرون أموالهم بسبب صفقة خاسرة، فنراهم متشددين في معاقبة أنفسهم ومن حولهم.

ولكن المؤمن الذي تعوّد وداوم على الزكاة وإخراج الصدقات فإنه سيواجه خسارته بنفسٍ راضية موكلاً أمره لله، فلا يأخذه الغضب والحزن عن تقَبُل الأمر الواقع ومعايشة الحقيقة بقلبٍ يتسع للأزمات ، فيصل به الحلم لأن يرضى بقضاء الله وقدره، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٣١٨].

فالحليم بالإضافة من واجه أزمته وكربه بالتوكل على الخالق عز وجل، فلا يبالغ في معاقبة نفسه على أمرٍ مكتوب ومقدّر عليه.

د- الحج:

من أركان الإسلام الخمسة فريضة الحج التي تتطلب من المسلم طلب السماح ممن أساء إليهم قبل توجهه لأداء فريضة الحج، وأن يطهّر قلبه من كل شر أو خطيئة، وأن يملأ نفسه بالصفات الحميدة التي يجب أن يكون عليها من أدى فريضة الحج ومنها الحلم، بأن لا يضيّع حجه بالغضب والانفعال السريع الذي يطفأ نور العقل فيتهور ويقوم بما لا يتناسب معه كحاج بيت الله الشريف.

وخليفة الله يجب أن تتوافر فيه صفاتٌ تدعم الحلم في نفسه منها:

أولاً: أن يكون حلمه عن قدرة وقوة:

فلا يمكن أن يقال عن إنسانٍ ضعيف متهاون في حقه رغماً عنه غيرُ قادر على رد حقه المسلوب حليماً، ولا يمكن أن يكون نهج الحليم بالإضافة الضعف والاستسلام والتنازل عن حقه، فلا يبحث عن الشفقة والرحمة ممن هم أقوى منه وأقدر، بل الحليم بالإضافة من كان حلمه نابعاً من قوته النفسية والجسدية، الأمر الذي يغنيه عن الاستجداء والتوسل للوصول لما يريد أو لاسترداد حقه، لأنه بعض الحقوق تضيع ولا سبيل لإرجاعها إذا تهاون المسلم في بعض الواقف مثل:

* الاعتداء على حرمات المسلمين من أرضٍ وعرض:

مصداقاً لقوله تعالى في كتابه الكريم: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[٣١٩]، فلا يمكن أن يكون الحلم في الرد بل يكون في كيفية الرد، فالتأني والحلم في اختيار طريقة الرد لها نتائج فعّالة وإيجابية أكثر من التهور في ذلك.

---

[٣١٨] البقرة ١٥٥، ١٥٧.

* الاستهزاء والسخرية والتطاول على الله تعالى ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام:
كما يحدث في عصرنا هذا من تطاول بعض الجهلة والحاقدين من الغرب على رسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين بحجة حرية التعبير، فلا مجال للحلم والصبر على مثل هذه الأفعال التي لا يرضاها المسلم الذي تربى على العزة والأنفة، والذي كبر على حب الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، فلا يجب أن نستمع ونرى كل ما ينشر وما يُقال عن ديننا ورسولنا ونبقى صامتين راجين أن يُقال عنا من أصحاب الحلم، بل الصمت هنا هو ضعفٌ وهزيمة نفسية كبيرة.

ثانياً: أن يكون حلمه مختلط بالحكمة وبعد النظر:
من شأن الحلم أن يرقى بالإنسان إلى درجة الحكمة في اتخاذ قرارٍ ما أو اختيار أسلوب للتفاهم، فالإنسان الذي يستحق أن يستخلفه الله في الأرض هو الذي يصل به حلمه إلى التوصل لأفضل الحلول واجتياز أصعب الأزمات والخروج منها بنفسية سوية وقوية قادرة على المضي في الحياة بثباتٍ وعزيمة ، فالحلم يترافق مع الحكمة ويشكلان معاً إنساناً فطناً بعيد النظر.

نحن نلاحظ أن ما من مشكلة أو معضلة تعامل معها الإنسان بعصبية وتضجر وتسرع إلا وتفاقمت وكبرت، لذلك لا يوجد أروع من الحليم الحكيم الذي يعطي للخليفة مساحةً للتمعن والتأمل ويمنحه فرصة للتحليل والأخذ بأسباب النجاح، ولا بد أن تكون الحكمة إحدى المكونات لشخصية الخليفة، ولا نستطيع أن نأتي على ذكر الحكمة دون ذكر الحكيم لقمان، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[٣٢٠]، فالحكمة والحلم نعمة من الله تعالى ينعم بها على خلفائه في الأرض.

* لابد أن يكون حلمه عن علمٍ ودراية:

---

[٣١٩] البقرة ١٩٠.

[٣٢٠] لقمان ١٢.

فالعلم بالأمر يتيح للإنسان تحديد سبل التعامل مع أي موضوع، فمن أكبر أسباب التوتر والعجلة في التعامل مع مشكلةٍ ما هو الجهل بأسلوب التعامل وقصر نظره فيما يحيط به.

وبذلك لا يجب أن نخلط بين الحلم والهوان، فالحلم في الواقع يجب أن يكون زيادة في الرفعة والسمو، وأن يكون نبعاً نستمد منه كرامتنا معيناً لنا في التحلي بالصبر والثبات والقوة، فلا يرضى الخالق عز وجل لخلفائه إلا العزة والأنفة، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[٣٢١].

وعلى خليفة الله أن يكون يقرن حلمه بالقدرة، إذ أنه لا يستقيم وجود الحلم في الإنسان بوجود الضعف والتخاذل داخله، فالحلم يرتكز ويقوم على أساس من ثقة الإنسان بقدرته وقوته النابعة من حبه للاتصاف بصفات الله تعالى، فلا يوجّه قدراته في نوبات الغضب والتهور، فلا يبالغ إذا امتلك القدرة في العقاب ولا يتجاوز الحد في أخذ حقه، قال تعالى في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[٣٢٢]، فمن الآية الكريمة السابقة نستطيع أن ندرك التالي:

* إن الإنسان يستطيع أن ينتصر على ظلمه بالصبر والحلم، وهذه قدرة لا تتوافر لدى البشر جميعاً، بل إننا نجد الأقلية النادرة هم من يتمتعون بهذه القدرة على الصبر والحلم.

* أوضح وأقرّ المولى عز وجل أنه لا يجوز للعبد المبالغة والتعدي في استرداد الحق، حتى وإن كان قادراً على ذلك، فلا يجوز استخدام القدرة التي وهبها الخالق عز وجل للإنسان في وجوه الباطل الذي من شأنه ضياع الحقوق وعدم الشعور بالأمان والحماية في المجتمع المسلم.

---

[٣٢١] المنافقون من ٨.

[٣٢٢] الشورى ٣٩، ٤٣.

* أردف الله تعالى أمره بالعدل في استرداد الحق بالأفضل من ذلك ألا وهو العفو والحلم عمن أساء وظلم، لأن في ذلك خيرٌ للإنسان وللمجتمع الإسلامي عامةً، فمن شأن العفو والحلم أن يشيع المحبة والود بين المسلمين، فلا يتردد مسلم عن العفو والحلم عند المقدرة.

* الظلم هزيمة بعكس العفو فهو انتصار وقوة، تكون ثماره عائدة على الإنسان وعلى من حوله، والصبر والجلد عند وقوع الظلم هذا بحد ذاته قوة وثبات، وخير دليل على ذلك أن جميع الرسل والأنبياء والصالحين قد كانوا أقدر الناس على فعل ما يريدون وذلك بسبب القدرات التي حباهم الخالق بها مثل ما وهب الله تعالى لسليمان عليه السلام من معجزات كتسخير الرياح وغيرها مما يمنحه القوة الفائقة لفعل ما لا يستطيعه باقي البشر وبالرغم من ذلك فقد جعل عليه السلام منها مصدراً للخير والصلاح، وكذلك سيدنا داوود عليه السلام، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}[٣٢٣] قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}.

وخليفة الله هو من عفا عند امتلاكه المقدرة على العقاب، وحلم عمن لم يحلم عليه قبلاً، فيرد عليه بحلمه وعفوه، فمن نتائج ذلك ما يلي:

١- إظهار سماحة ديننا الإسلامي للعالم:

فالدين الإسلامي عمل على ترسيخ أروع وأنبل الأخلاق بين البشر، فتسمو الآدمية فوق كل شيء، ومن بين هذه الأخلاق الدعوة للحلم والعفو عند المقدرة، ليشيع بذلك التسامح والأخوة بين المسلمين.

٢- نشر المحبة والرحمة بين العباد، فيتضاءل الظلم والطغيان في المجتمع، وبذلك ينمو الشعور بالأمان والود في نفوس المسلمين.

---

٣٢٣ الأنبياء من ٧٩.

٣- الأجر العظيم الذي وعد الله تعالى به عباده الصابرين واللذين يتميزون بالعفو عند المقدرة، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٣٢٤].

اللهم يا الحليم يا من كان حلمه رحمة ووداً يمده معينا لنا على التوبة والاستغفار، استر عيوبنا بحلمك علينا ورحمتك بنا، واجعل من قلوبنا وعقولنا مواطن الحلم والصبر، اللهم اجعلنا نتملك من الحلم ما نطفئ به نار الغضب والتهور فلا نكون من النادمين.

اللهم يا الحليم اجعل لنا من صفتك نصيباً نترفع به عن الصغائر والرذائل والنقائص والعيوب فنكون من عبادك الطائعين المتقربين إليك بالخيرات والمكارم.

اللهم يا الله يا أحلم الحالمين اجعلنا ممن يحلمون في التعامل مع الآخرين، فلا نتسرع في أحكامنا على من نتعامل معهم ويسيئون إلينا، ومكِنّا اللهم من الصبر حتى نمتلك القدرة على الحلم على من يظلموننا فنقابل أذاهم بإحسان فنكون بذلك ممن يتصفون بصفاتك ويدعون إلى سبيلك بالقول والفعل، ومن أرادنا بعد ذلك يا الحليم بمكر فامكر به ومن أرادنا بكيد فكده وكد كيده، ومن أخطأ فينا وندم واستغفر فأنت التواب الرحيم.

---

[٣٢٤] الشورى ٤٠.

العظيم

العظيم المطلق هو الذي جاوز جميع حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وذلك هو الله تعالى[٣٢٥].

العظيم في اللغة: عَظَّمَهُ يُعَظِّمُهُ تعظيماً، أي: كبّره. وسمعت خبراً فأَعْظَمتُه، أي: عَظُمَ في عيني. ورأيت شيئاً فاستعظمته. واستعظمْتُ الشيء: أخذت أُعَظِّمُهُ. وعُظْمُ الشيءِ: أعظمُهُ وأكبرُهُ، ومُعْظَمُ الشيءِ أَكْثَرُهُ. والعُظْم: جلّ الشيء وأكثره. والعَظَمَةُ من التَعَظُّمِ والزّهو والنّخوة، والعَظَمة بفتحتين الكِبْرِيَاءُ. وعَظُمَ الرّجُلُ عَظامةً فهو عظيمٌ في الرأي والمجد. والعظيمةُ: المُلِمَّةُ النّازلةُ الفظيعة[١]. ومن سُنن العرب الإتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان كقوله جلّ ثناؤه: (وَلِيَشْهَدْ عذابَهما طائفة) يُراد به واحد واثنان وما فوق. وقال قَتَادةُ في قوله جلّ ثناؤه: {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً}[٣٢٦]. كان رجلُ من القوم لا يمالِئُهم على أقاويلهم في النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ويَسير مُجانِباً لهم فسمّاهُ الله جلّ ثناؤه طائفة وهو واحد. ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع، فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري. وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأنّ الرّجل العظيم يقول: نحن فعَلْنا فعلى هذا الابتداء خُوطبوا في الجواب. قال الله جلّ ثناؤه: {قالَ ربِّ ارْجِعُون}[٢].

فالرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحسرت العقول دون معرفة قدره وردّت عظمته العقول فلم تجد مساغا فرجعت خاسئة وهي حسيرة وإنما امروا بالنظر والتفكير فيما خلق بالتقدير وإنما يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان؟ فأما الذي يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فانه لا يعلم كيف هو إلا هو وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ولا يموت ولا يبلى؟ وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى يعرفه عارف أو يحد قدره واصف على انه الحق المبين، لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه الدليل على

---

[٣٢٥] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٤.

[٣٢٦] التوبة ٦٦.

عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة اصغر خلقه لا تكاد تراه صغيرا يحول ويزول. ويخبر تعالى أن له أسماء وصفها بكونها حسنى أي حسان وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال فأسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمراد محض بل هو على سبيل التقريب والتفهم فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص فله صفة العلي العظيم؛ واسم العظيم هو المستحق لأوصاف العلو والرفعة والجلال والكمال والعظمة والتقديس وهو من الصفات التي يستحقها بذاته وهو في أول الوضع إنما أطلق على الأجسام فيقال هذا جسم عظيم وهذا الجسم أعظم من ذلك الجسم في مجالات المقارنة والفوارق في الأقوال والصفات والأفعال والمساحات والأطوال إذا كان امتداد مساحته في الطول والعرض والعمق والتجزئي، وفي مقابل ما يقارن بغيره بالشبه والتماثل والتطابق يأتي العظيم الذي لا يقارن بشبيه سبحانه واحد أحد لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيط بكل شيء ولا يحاط بشيء.

العظيم المطلق هو الذي يحيط بكل شيء علما وبصرا وسمعا، والعظيم بالإضافة هو الخليفة الذي يستمد عظمته من العظيم المطلق فيحيط بالأشياء في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع وفقا لنظرية النسبية.

ولذا في دائرة الممكن كل عظيم نسبي مهما عجبنا ومهما تفاخرنا بإعجابنا به، فالفيل عظيم مع أن البصر يحيط بأطرافه فهو عظيم إلى ما دونه، وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها من على ظهرها ويحوطها من علو من السماء، وهكذا وفقا لدائرة النسبية تتسع السماء وتمتد حتى يعجز البصر عن الإحاطة بها من قبل المستخلف في الأرض والوارثين فيها مهما تعاظم شأنهم، وفي غير محل للمقارنة إذ تحاط الأرض بهيمنة مع غيرها مما عرفنا واكتشفنا ولم نكتشف بالبصير العظيم جل جلاله.

وعليه أن في مدركات البصائر تفاوتا فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته ومنها ما تقصر العقول عنه وما تقصر العقول عنه، وينقسم إلى ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وذلك هو الله تعالى.
والعظيم من العباد الأنبياء والعلماء والخلفاء والسلاطين والحكام الذين إذا عرف العاقل شيئا من صفاتهم امتلأ بالهيبة صدره وصار مستوفى بالهيبة قلبه حتى لا يبقى فيه متسع، فالنبي عظيم في حق أمته والسلطان في حق رعيته والشيخ في حق مريده والأستاذ في حق تلاميذه، ولكن من أين أتت هذه الهيبة؟ هي تلك التي غرسها الله في قلوب الرعية حتى تكون له طائعة وهنا تكمن العظمة المطلقة لله تعالى، فهؤلاء الأنبياء والخلفاء والسلاطين تم اختيارهم ورعايتهم بحيث يكونوا على مقدرة للقيام بالمهام المنوطة بهم، ولكن كل عظيم غير الله عز وجل هو ناقص وليس بعظيم مطلق لأنه إنما يظهر بالإضافة إلى شيء دون شيء سوى عظمة الله تعالى فإنه العظيم المطلق لا بطريق الإضافة، والمعظم في صفة الله تعالى يفيد عظم الشأن والسلطان وليس المراد به وصفه بعظم الأجزاء لأن ذلك من صفات المخلوقين تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ولا شك أن ما وصف الله به من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذات المخلوق فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق. فالعزة لله والجبروت لله والعظمة لله والكبرياء لله والسلطان لله والملك لله والحكم لله والنور لله والقوة لله والتسبيح لله والتقديس لله رب العرش العظيم ، ما أعظم شأنك وأفخر ملكك وأعلى مكانك وأقربك من خلقك وألطفك بعبادك وأرفعك لسرك[٣].

العظيم والكبير:

لا فرق بين العظيم والكبير ولكن لكل صفة إضافة في الإعجاز، ولذا فمن الصعب علينا أن نذكر وجه الفرق بين معنييهما في حق الله تعالى ولكنا لا نشك في أصل الافتراق؛ فالعرب في استعمالها تفرق بين اللفظين إذ تستعمل الكبير حيث لا تستعمل العظيم ولو كانا مترادفين

لتواردا في كل. وأن العظيم قد يكون من جهة الكثرة ومن غير جهة الكثرة، ولذلك جاز أن يوصف الله تعالى بأنه عظيم وإن لم يوصف بأنه كثير، وقد يعظم الشيء من جهة الجنس ومن جهة التضاعف. وفرَّق بعضهم بين الجليل والكبير بأن قال الجليل في أسماء الله تعالى هو العظيم الشأن المستحق الحمد، والكبير فيما يجب له من صفة الحمد، والأجل بما ليس فوقه من هو أجل منه. والفرق بين عظيم القوم وكبير القوم: أن عظيم القوم هو الذي ليس فوقه أحد منهم فلا تكون الصفة به إلا مع السؤدد والسلطان فهو مفارق للكبير، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلى كسرى عظيم فارس"، والعظيم في أسماء الله تعالى بمعنى عظيم الشأن والامتناع عن مساواة الصغير له، وأصل الكلمة القوة ومنه سمي العظيم عظيما لقوته، ويجوز أن يقال إن أصله عظيم الجثة ثم نقل لعظيم الشأن كما فعل بالكبير وقال تعالى: {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[٣٢٧] فسماه عظيما لعظم ما فيه من الآلام والبلاء، وما اتسع لأن يكون فيه العظم استحق بأن يوصف أنه عظيم. والفرق بين العظيم والمتعظم: قيل: العظيم: الذي جاوز حدود العقول أن تقف على صفات كماله، ونعوت جلاله. وأصل العظم في الأجسام ثم استعمل في مدركات البصائر، وهي متفاوتة في العظم تفاوت الأجسام. فما لا يتصور أن يكون يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته وصفته منها، فهو العظيم المطلق، وهو الله تعالى. والمتعظم: البليغ العظمة أو المستنكف أن يكون له نظير في عظمته. قال تعالى: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٣٢٨]. فقوله: "العظيم"، ذو العظمة، الذي كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه. عن ابن عباس: "العظيم"، الذي قد كمل في عظمته. فقوله: "العظيم" معناه: المعظم الذي يعظمه خلقه ويهابونه ويتقونه. و تأويل قوله: "العظيم" هو أن له عظمة هي له صفة. وننفي عنه أن يكون ذلك على معنى مشابهة العظم المعروف من العباد. وكل ما دونه من خلقه هو صغير لصغرهم عن عظمته.

---

[٣٢٧] الأنعام، ١٥.

[٣٢٨] البقرة ٢٥٥.

ولذلك لا فرق بين العظيم والكبير، إلا بين المخلوقات إما بالنسبة للمطلق العظيم هو الكبير هو الله، ولأن لله أسماء حسان وصفات حسان كان لكل فعل وصفة خصوصية في الدلالة والمعنى دون أن يكون فارقا في تحديد المطلق عز وجل. قال تعالى: {وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلى العظيم}[٣٢٩] وقال في آية أخرى: {قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الحق وَهُوَ العلى الكبير}[٣٣٠]. ومن الأسماء المشعرة بالجسمية والجهة الألفاظ المشتقة من «العلو» فمنها قوله تعالى: (العلى) ومنها قوله : {سَبِّحِ اسم رَبّكَ الأعلى}[٣٣١]. ومنها المتعالي ومنها اللفظ المذكور عند الكل على سبيل الأطباق وهو أنهم كلما ذكروه أردفوا ذلك الذكر بقولهم: «تعالى» لقوله تعالى في أول سورة النحل: {سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٣٣٢]. إذا عرفت هذا فالقائلون بأنه في الجهة والمكان قالوا: معنى علوه وتعاليه كونه موجوداً في جهة فوق، ثم هؤلاء منهم من قال إنه فوق العرش، ومنهم من قال: إنه مباين للعرش ببعد لا متناه، وكيف كان فإن المشبهة حملوا لفظ العظيم والكبير على الجسمية والمقدار وحملوا لفظ العلي على العلو في المكان والجهة، وأما أهل التنزيه والتقديس فإنهم حملوا العظيم والكبير على وجوه لا تفيد الجسمية والمقدار: فأحدها: أنه عظيم بحسب مدة الوجود، وذلك لأنه أزلي أبدي، وذلك هو نهاية العظمة والكبرياء في الوجود والبقاء والدوام.

وثانيها: أنه عظيم في العلم والعمل.

وثالثها: أنه عظيم في الرحمة والحكمة.

ورابعها: أنه عظيم في كمال القدرة، وأما العلو فأهل التنزيه يحملون هذا اللفظ على كونه منزهاً عن صفات النقائص والحاجات.

الفرق بين العظيم والعلي:

---

[٣٢٩] البقرة ٢٥٥.

[٣٣٠] سبأ ٢٣.

[٣٣١] الأعلى ١.

[٣٣٢] النحل ١.

بدون شك أن العلو والعظمة درجتان من درجات الكمال والوحدانية، ومع ذلك بالعظمة يزداد العلو حتى يتجسد في الأفعال التي بها تتوحد الصفات مع الموصوف بها بالمطلق بالنسبة لله تعالى، وتتوحد في دائرة الممكن مع أفعال العظيم بالإضافة. ولذا فالخليفة هو الذي يستمد صفات عظمته من صفات خالقه تعالى بفروق بين عظيم وعلي.

ومع أنه لا فرق من حيث المطلقية بين العظيم والأعلى إلا أن على مستوى الخليفة فالعظيم يدل على القرب، والأعلى يدل على البعد، بيانه هو أن ما عظم من الأشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن، لأنه لو بعد عنه لخلا عنه موضعه، فالعظيم بالنسبة إلى الكل هو الذي يقرب من الكل، وأما الصغير إذا قرب من جهة فقد بعد عن أخرى، وفي هذا الأمر يتضح الفرق بين المخلف والمستخلف، وأما العلي فهو البعيد عن كل شيء لأن ما قرب من شيء من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلى فالعلي المطلق بالنسبة إلى كل شيء هو الذي في غاية البعد عن كل شيء مع أنه قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه مؤمنا بأنه الخليفة له في الأرض بغاية الإصلاح لا الإفساد.

والعظيم هو الذي بعلوه لا يحيط به إدراكنا وإذا علمنا منه وصفاً ثبوتياً من علم وقدرة يزيد تعظيمه أكثر مما وصل إليه علمنا ، فنقول: هو أعظم وأعلى من أن يحيط به علمنا، وقولنا: أعظم معناه عظيم لا عظيم مثله، وقوله: أعلى، معناه هو علي ولا علي مثله، فالأعلى مستعمل على حقيقته لفظاً ومعنى، والأعظم مستعمل على حقيقته لفظاً[٣٣٣].

الفرق بين العظيم والكبير:

العظيم المطلق هو الكبير المطلق ولهذا لا فرق بين صفات الخالق في المطلقية، ولكن الفرق في المعنى من حيث مستويات الدلالة والمضمون، فما يدل عليه العظم، لا يتجرد منه الكبير بالتمام ولكن لكل مسمى خصوصية في اللغة، فالعظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض

---

[٣٣٣] تفسير الرازي، ج ١٥، ص ١٨٠.

الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير من حيث الدلالة، وهكذا يكون حال الحقير دون الصغير على مستوى المخلوق لا الخالق[٣٣٤].

معاني العظمة في التفسير القرآني:

من صفاته العظام جل جلاله جعل العظمة في آياته الكريمة وهي في حالة التجزئة، وفي القرآن في حالة الشمول، ولذا جاءت الآيات السبع لسورة الفاتحة من المثاني في كل ركعة خير مثال من حيث التجزيء وكان الكمال في شمولية القرآن الكريم آية. قال تعالى: {وَلَقَدْ آتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني والقرءان العظيم}[٣٣٥]. ولهذا كان بأفعال وصفات البقاء والديمومة عظيماً مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ العلى العظيم}[٣٣٦]. وهكذا كان عرشه عظيما بعظمته جل جلاله {وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم}[٣٣٧] وكان كتابه عظيما قرآنا كريما مصداقا لقوله تعالى: {والقرآن العظيم}[٣٣٨]. ويوم القيامة عظيماً {لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبّ العالمين}[٣٣٩] وهكذا جاء أمر الزلزلة عظيم وعلمه عظيم وهو على كل شيء قدير.

وعليه من يستمد صفاته من صفات خالقه بالطبيعة سيكون أمره عظيماً وخلقه عظيماً مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيم}[٣٤٠]. وعلينا أن نفرق بين العظيم في الفعل الموجب {وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً}[٣٤١] وقوله: {وَعَدَ الله الذين امنوا وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[٣٤٢] وبين العظيم في الفعل السالب مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}[٣٤٣]، وقوله عز وجل: {وجاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}[٣٤٤].

---

[٣٣٤] المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٤.
[٣٣٥] الحجر ٨٧.
[٣٣٦] البقرة ٢٥٥.
[٣٣٧] التوبة ١٢٩.
[٣٣٨] الحجر ٨٧.
[٣٣٩] المطففين ٥، ٦.
[٣٤٠] القلم ٤.
[٣٤١] النساء ١١٣.
[٣٤٢] الفتح ٢٩.
[٣٤٣] يوسف ٢٨.

وقال ابن عَرَفة في قول الله: (فسبِّحْ باسم رَبِّك العظيم) أي سبِّحه بأسمائه ونزِّهه عن التَّسمية بغير ما سَمّى به نفسه. قال: ومَنْ سَمّى الله بغير ما سَمّى به نفسه فهو مُلْحد في أسمائه، وكلّ من دعاه بأسمائه فمسبح له بها إذ كانت أسماؤه مدائح له وأوْصافاً. قال الله جلّ وعزّ: (ولله الأسْماءُ الحُسنَى فادْعوه بها)، فكل من دعا الله بأسمائه فقد أطاعه ومدحه ولحقه ثوابه[٣٤٥].

قال تعالى: {والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[٣٤٦]. تخصيص الرحمة للذين يصلحون في الأرض وتخصيص العقاب للذين يُفسدون فيها، ولذا فإن مشيئة الله تعالى وعظمته إنه يجازي بالثواب عباده المصلحين ويجازي بالعقاب المفسدين منهم، وهذه آية من آيات العظمة التي جعلت من بني آدم خلفاء عظماء، وجعلت منهم كفرة فجرة، ولهذا لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة وكان الله غفورا رحيما، وفي هذا الأمر قال على ابن ابي طالب رضي الله عنه: "يختص الله برحمته تعني: نبوَّته خص بها محمد عليه الصلاة والسلام"[٣٤٧].

(والله ذو الفضل العظيم)، يقول: ذو فضل يتفضَّل به على من أحبّ وشاء من خلقه. ثم وصف فضله بالعِظَم فقال: (فضله عظيم)، لأنه غير مشبهه في عِظَم موقعه ممن أفضله عليه (فضلٌ) من إفضال خلقه، ولا يقاربه في جلالة خطره ولا يُدانيه. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[٣٤٨]. عظمة الله في هذه الآية الكريمة أنه لا يظلم أحدا مثقال ذرة، ومثقال الذرة هو الذي لا ثقل فيه وإن وضع على الميزان قد لا يحس بوزنه مع أنه موجود، وأن تكن الحسنة صغيرة جدا يضاعفها وزنا حتى

---

[٣٤٤] الأعراف ١١٦.

[٣٤٥] تهذيب اللغة ، ج ٢ ، ص ٤٦.

[٣٤٦] البقرة ١٠٥.

[٣٤٧] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، الجزء الثاني، ص ٦١.

[٣٤٨] النساء ٤٠.

تربوا على كفتي الميزان بالثواب والأجر العظيم في دائرة الممكن غير المتوقع في مدركات العقل البشري، وأمر هذا حاله ألا يكون من ورائه عظيم يُجل ويشهد له بالوحدانية.

قال تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}[٣٤٩]. كانت السيادة والنبوة والملك في آل إبراهيم من بعده حتى أنهم ورثوا ملكا لم يكن لأحد من قبلهم وهناك من ورث منهم ملكا لن يكون لأحد من بعدهم وهكذا كان الملك العظيم بخاتمة الرسالات السماوية على يد محمد صلى الله عليه وسلم. عن مجاهد في قول الله تعالى: وآتيناهم ملكًا عظيمًا"، قال: النبوّة.

وقوله(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) يقول: ولها كرسي عظيم. وعني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره، وعظم خطره، لا عظمه في الكبر والسعة. وعن ابن عباس، قوله: (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) قال: سرير كريم، قال: حَسن الصنعة، وعرشها: سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ. وقال تعالى: (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) ذِبْحًا وافيا متقبَّلا لا عيب ولا نقيصة فيه.

قال تعالى: {ولقد مننَّا على موسى وهارون وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}[٣٥٠]. يقول تعالى: ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نبيين، ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عُبودية آل فرعون، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق. وقيل من (الكرب العظيم) من الرق الذي لحق بني إسرائيل، وقيل من الغرق الذي لحق فرعون[٣٥١].

قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٣٥٢]. يعود ضمير له للمعلوم المطلق (لله تعالى) الذي يعود له كل شيء باعتباره أصل الأشياء وخالقها، وجاءت السماوات والأرض باعتبارها أماكن بينها مجالات للامتداد الذي يسع ويحتوي على ما تحتويه السماوات والأرض وأكثر، ولأنه العلي العظيم فهو القادر على أن يفعل الأكثر مما عرَّف به

---

[٣٤٩] النساء ٥٤.

[٣٥٠] الصافات ١١٥.

[٣٥١] تفسير البيضاوي، ص ٥٩٣.

[٣٥٢] الشورى ٤.

وهو السماوات والأرض، سبحانه ما أعظم شأنه وهو على كل شيء قدير. ولأن له ما في السماوات وما في الأرض فهو المتحكم والمهيمن على أمر كل ما في السماوات والأرض بقوة ونظام تام يملأه الكمال.

وقوله: {وكانوا يصرون علَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ}[٣٥٣] يعني: على الذنب العظيم، وهو الشرك بالله. وعن مجاهد (عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ) قال: على الذنب. وعن الضحاك قال: الشرك[٣٥٤]. والحنث كبيرة من الكبائر التي تستوجب الاستغفار والتكفير عن الذنب ولذا فالأمر عظيم أي ليس هينا.

وعليه عندما تسبح باسم ربِّك العظيم تعرف الحقيقة وعندما لا تسبح به قد تُشغل بغيره وفي هذا الأمر ذنب كبير، {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[٣٥٥]. تعني ذكره في كل كبيرة وصغيرة، والعودة إليه في كل حين، والاعتماد عليه في كل مكان وزمان، وتوحيده واحداً أحدا لا شريك له، فالرب الذي به يتم التسبيح هو الله الواحد القهَّار جل جلاله. والأرباب قد يكونوا كثرة على المستوى البشري النسبي، فهناك رب العمل وهناك رب الرزق، وهناك رب الفضل، وهناك رب الصدقة والمساعدة، وهذه الأرباب هي ما دون الرب الأعظم الذي يعطي ولا يطلب، ويخلق ولا يُخلق هو الله الواحد الأحد هو ربيّ جل جلاله الذي أسبحه كثيرا واذكره كثير وإليه أوليت أمري وأسرتي وما أملك، عليه توكلت فهو حسبي.

فضله العظيم

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[٣٥٦]، دائما وعد الله حق ولذا لن يكون للشك مكان في أن ينال الذين يعملون الصالحات المغفرة والأجر غير المتوقع وهنا تكن العظمة، فالعظمة دائما تأتي من دائرة الممكن في النصف غير المتوقع، وهذا يعني أن دائرة الممكن تتكون من نصفين: (النصف المتوقع، والنصف غير المتوقع)

---

[٣٥٣] الواقعة ٤٦.

[٣٥٤] تفسير الطبري ، ج ٦ ، ص ٥١٨.

[٣٥٥] الواقعة، ٩٧.

[٣٥٦] المائدة ٩.

ولذا لا استغراب في النصف المتوقع وما يحتويه، أما النصف غير المتوقع فهو دائما يأتي بالمفاجأت السارة أو غير السارة مما يحدث الاستغراب والتساؤل الذي لا يُطرح إلا والمفاجئة تحوطه من كل جانب.

(وأجر عظيم) جزاءً على أعمالهم التي عملوها ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها. فالعظيم هو من فعله وخيره غير محدود مبلغه، ولا يعرف منتهاه غيره تعالى. فإن قال قائل: إن الله جل ثناؤه أخبر في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولم يخبر بما وعدهم، فأين الخبر عن الموعود؟ قيل: بلى إنه قد أخبَر عن الموعود، والموعود هو قوله:"لهم مغفرة وأجر عظيم".

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[٣٥٧]. الخطاب موجه للخلفاء وهم الذين آمنوا مما يجعل القول لهم حقيقة خالية من الظن والشك، وذلك لأن المؤمنين هم الواثقون في قول مخاطبهم المطلق جل جلاله، بأنه الحق، وفي هذا الأمر وكأنه يخاطب الصفوة (الخلفاء) دون غيرهم، وذلك لعلمه أنهم سيتَّقون، وفي المقابل هم واثقون بأن يُكفِّر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم، ومغفرته بالنسبة لهم فضل عظيم عليهم.

تقوى الله هي التي بها يفرق الخليفة بين الحق والباطل الذي به يُعزُّ؛ وبه يُذل الكافرين والمشركين. والفضل العظيم على المؤمنين المستخلفين في الأرض جزاءٌ منه لهم على طاعتهم وعدم معصيتهم إياه جل جلاله.

قال تعالى: {فإن تولوا فقل حسبي الله لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[٣٥٨]. الخطاب موجَّه للخليفة الذي اصطفاه الله ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة السلام، وموجَّه للخليفة المقتدي بما أُرسِلَ به محمد عليه الصلاة والسلام، وفي هذه الآية الكريمة يستوجب الأمر طاعة الرسول وطاعة الأمر الذي به بُعث رسولا، (وهو رب العرش

---

[٣٥٧] الأنفال ٢٩.

[٣٥٨] التوبة ١٢٩.

العظيم)، العرش العظيم هو العرش الذي خلقه وهو الذي يملكه، وهو الذي لن يكون مثله عرش، ولهذا وصف عرشه بأنه العرش العظيم، ونحن نؤمن بأنه ربُّ العرش العظيم ونحمده على ملكه وعرشه ونسبح بحمده ونحن له شاكرون، ونؤمن أن ما دونه من ملوك كلهم مماليكه وعبيده. وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبرَ عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه، لأن (العرش العظيم)، إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه (ذو العرش) دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه.

ولأن الله تعالى يخاطب المؤمنين والكافرين (المستخلفين فيها وغير المستخلفين) إلا انه دائما يخص المستخلفين في الأرض بالفوز العظيم دون غيرهم ممن خلق وإن ورثوا في الأرض مع الوارثين مصداقا لقوله تعالى: {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}[٣٥٩]. الاستبشار مقدمات الفرحة والسعادة والتهيؤ والترقب لليوم الذي سيتحقق الفوز فيه، ويعني الظفر بالحاجة والطَّلبة والنجاة من النار. والبيع هو الطاعة التامة لله ربُّ العالمين، وقوله {وما يلقاها إلا الذين صبروا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[٣٦٠]. الصبر والمكابدة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل أفعال لا يقوم بها إلا المؤمن الذي سيكون له الجزاء الأوفر وهو الفوز بالجنة، أللهم اجعلنا من الوارثين والمستخلفين فيها واجعلنا من الصابرين ولا تكلفنا يا ألله ما لا طاقة لنا به وأعفوا عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فأنصرنا على القوم الكافرين والمفسدين في الأرض والسافكين الدماء فيها بغير حق.

وعليه، وما يلقى هذه إلا ذو نصيب وجدّ له سابق في المبرات عظيم. عن السديّ، في قوله: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ذو جدّ. وقيل: إن ذلك الحظ الذي أخبر الله جلّ ثناؤه في هذه الآية أنه لهؤلاء القوم هو الجنة. عن قتادة : والحظّ العظيم: الجنة[٣٦١].

---

[٣٥٩] التوبة ١١١.

[٣٦٠] فصلت ٣٥.

[٣٦١] تفسير الطبري ، ج ١٠ ، ص ٩٨ .

قال تعالى: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[٣٦٢]. (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) وليعلموا أن الفضل بيد الله دونهم، ودون غيرهم من الخلق،(يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) يقول: يعطي فضله ذلك من يشاء من خلقه، ليس ذلك إلى أحد سواه،(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) يعني أنه يهب لمن يشاء ما يشاء من خيرات وبركات ومغفرة ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو قريب مجيب لمن يدعوه بقلب سليم، دون أن تكون في نفسه حاجة منتظرة ممن يؤتيهم من فضله العظيم ولهذا فهو صاحب الفضل العظيم جل جلاله.

تفرده بالعظمة

ولأن الله تعالى خالق كل شيء ويملك كل شيء فهو بطبيعة الحال لم يكن في حاجة لأحد مثل حال العباد الذين مع أنهم خُلقوا في أحسن تقويم إلا أنهم خُلقوا وهم في حاجة ولذا فالفرق كبير بين من هو في حاجة وبين من هو في غير حاجة والكل في حاجة إليه، {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانتون بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٣٦٣]. نزلت هذه الآية لما قالت اليهود: "عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله"[٣٦٤]. فجاءت (سبحانه) للتنزيه تنزيهه من المشاركة وتأكيدا على الوحدانية الكاملة المطلقة، وهو خالق كل ما ذكر من عزير والمسيح والملائكة، ولذا تقول القاعدة (المخلوق مملوك لخالق وبالمطلق فهو لا يشارك الخالق في شيء). اشتملت الآيتان الكريمتان، على الرد على النصارى، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولدا. والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا

---

[٣٦٢] الحديد ٢٩.

[٣٦٣] البقرة ١١٦، ١١٧.

[٣٦٤] تفسير البيضاوي ، ص ٢٣.

صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٣٦٥]. وقال تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}[٣٦٦] وقال تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٣٦٧]. في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة ، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله تعالى: "كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا"[٣٦٨].

الجزاء العظيم:

{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[٣٦٩].

فقوله: (ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أضافه إليه ونسبه إليه لِيدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم هو الذي لا يعطي إلا جَزيلا كثيرًا، فالثواب رضاء يكافئ به من يفعل خيرا ويعمل صالحا يرضاه صاحب التواب العظيم الجليل.

وقوله: (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) أي: عنده حُسْن الجزاء لمن عمل صالحا ولذلك فالجزاء العظيم لا يكون إلا من عظيما. قال ابن أبي حاتم: أن شداد بن أوس كان يقول: "يا أيها الناس، لا تَتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يُحِب

---

٣٦٥ الأنعام ١٠.

٣٦٦ مريم٩١، ٩٥..

٣٦٧ الإخلاص ٣، ٤.

٣٦٨ ص حيح البخاري، ج ١٤، ص ٤٤٢.

٣٦٩ آل عمران، ١٩٥.

فليحْمَد الله، وإذا أنزل به شيء مما يكره فَلَيَصْبر وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب[٣٧٠]. لننظر إلى هذا الجانب من العظمة الإلهية عندما نبحث عنها في الطبائع البشرية فهل هذا سهلا في وجوده بين البشر؟ الجواب – بطبيعة الحال – يكون صعبا ولكننا نجده في فئة ألبسها الله ثوبه وهداهم بهداه ونوره الذي خصهم به عن غيرهم من الخلق ليكونوا خلفاءه في أرضه التي استخلفهم فيها وهؤلاء هم الذين اصطفاهم ليكونوا على رأس هذه المهام الصعبة، وهم الذين حملوا الرسالة بصعابها وجلالها قال تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفور رحيما}[٣٧١]. **__فالعظمة تتمثل في الآتي__:**

أولا: العظمة في الأمانة وهي الرسالة التي تحمل مضامين ومعاني الهداية ظاهرة وضمنية، ومعاني العذاب الظاهرة والباطنة، وكل المعجزات التي تبرهن على وجود العظيم من ورائها.

ثانيا: أن السماوات التي لا تُلمس كالمادة وأن لامستنا في طبقات الجو العليا ونحن في حالة طيران في آفاق أجوائها، وعبر مدارات ما تحمله من كواكب ونجوم سيارة ورجوم للشياطين، بالرغم من كل ذلك فهي تدرك ونحن لم ندرك مركز إدراكها، كما ندرك مراكز الإدراك في ادمغتنا، ألا يكون أمرها والأرض والجبال أمر عظيم؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يكون من ورائها عليّ عظيم؟ سبحانه ما من شيء إلا يُسبح باسمه جل جلاله. فالأرض التي خُلقت جلدتنا من أديمها، أبت والسماء والجبال أن تحمل الأمانة (فأبين أن يحملنها وشفقنا) وحملها الإنسان.

ثالثا: العظمة تكمن في ما تدل عليه الآية ضمنا وهو: إن السماوات والأرض والجبال، أدركت العبء العظيم الذي في الرسالة، ولهذا لم تأب لحملها، والإنسان لم يدرك بجهله للأعباء التي في الأمانة ومع ذلك قبل مسؤولية حملها فوالله لأمر عظيم.

---

[٣٧٠] تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٩١.

[٣٧١] الأحزاب، ٧٢، ٧٣.

رابعا: أن يكون الإنسان هو الحامل لهذه الأمانة، فلله الحمد الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم حتى يحمل الأمانة ويتحمّل ما يترتب عليها من أعباء ومسؤوليات جسام، فهذه المسؤوليات منها ما يعلمه ومنها ما لم يعلمه، ومع أنه بحمله لها يستمد عظمته من العظيم المطلق، إلا أن البعض تخلى عن حملها، ولذا كان أكثرهم لا يعلمون، وأكثرهم لا يعقلون وأكثرهم لا يفقهون، مما جعل القلة هي الوارثة للخلافة بحملها للأمانة. ونأمل والأمل الكبير أن تعم الهداية للأرض بمن باسمهم حُملت الأمانة.

خامسا: مع أن الإنسان ظلوما جهولا، إلا أنه على حظ مع العظمة بحمله للأمانة، التي فيها معطيات الاستخلاف في الأرض وورثة الجنة، وفي هذه الرسالة (الأمانة) كل مفاتيح اليقين التي من وقف عليها آمن وأسلم وجهه لله، وفي هذه عظمة لصاحب الأمانة والذي يؤمن بها (الخليفة)؛ ومن هنا يستمد الإنسان استخلافه في الأرض ويكون عظيما.

سادسا: إن امتناع السماوات الواسعة والأرض المكورة والجبال الصماء التي لا تهتز بيسر إن لم تتزلزل أو تثور البراكين بها، إن امتناعها كان نتيجة خوفا من الأعباء واعتراف بعدم المقدرة، وحملها الإنسان الذي لا يقارن بأي حجم من الأحجام الثلاثة (السماوات والأرض والجبال) إنه كان ظلوما جهولا، ولذا فالعظمة أن الأرض تحمل الإنسان الذي قَبِلَ بحمل الأمانة ولم تحمل الأمانة مباشرة، إنه الأمر العظيم.

سابعا: أن الأرض حملت الشيء (الإنسان) ولم تحمل ما يحمله الشيء (الأمانة) وفي هذا الأمر سر عظيم من ورائه عظيم لا إله إلا هو.

ثامنا: قال تعالى: (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات). الأمر العظيم الذي حمله الإنسان بصفته الخَلقيَّة، لم يحمله كل بني آدم، ولهذا سيكون العذاب للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات منهم، ويكون الجزاء العظيم توبة على المؤمنين والمؤمنات منهم وفي هذه عظمة يتميز فيها التائب والتائبة عن المنافق والمنافقة والمشرك والمشركة.

تاسعا: قوله تعالى: (وكان الله غفور رحيما) تبين هذه الآية الكريمة عظمة الله بصفته المطلقة بالمغفرة والرحمة، ولهذا فهو الذي يُعبد دون شريك، فله الحمد وله الشكر على غفرانه ورحمته الواسعة لمن آمن وحمل الأمانة يقينا.

قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[٣٧٢]. العظمة أن هذا الكتاب منزَّل بالحق، وهو المُصدَّق لِما بين يديه من الكتب السابقة عليه. عن ابن عباس: (وَمُهَيْمِنًا) أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب. إن اسم "المهيمن" هو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[٣٧٣]. أنه الأمر العظيم، الذي به نزَّل الذكر الحكيم، وإنه على حفظه لقادر، ولذا فلا خوف على الدين الخاتم الذي به أتم الله النعم على عباده، فالحمد لله للرب العظيم ألذي جعل في الأرض خليفة يؤمن بأنه لا خوف على الإسلام الدين العظيم.

من مظاهر أوجه عظمته تعالى:

الوجه الأول يوم المحشر:

قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزيلا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}[٣٧٤]. يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء

---

[٣٧٢] المائدة، ٤٨.

[٣٧٣] الحجر، ٩.

[٣٧٤] الفرقان، ٢٥، ٢٦.

الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء مصداقا لقوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}[٣٧٥].

الوجه الثاني الرياح والسحاب:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}[٣٧٦]. ومن قدرته التامة وسلطانه العظيم، أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّرا، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: (وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك[٣٧٧].

الوجه الثالث لينه مع الكفار:

قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٣٧٨]. يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

وقال السدي: ما عظموه حق عظمته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وعن ابن عباس: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، هذا المظهر العظيم من مظاهر قوته وعظمته وما يقابله من كفر وجحود يأتي في هذه الآية الكريمة في أسلوب ملؤه الرحمة والرأفة إذ هو قادر على أن يفعل بهم ما يريد، ولكن رحمته وكبرياءه تأبى

---

[٣٧٥] البقرة ٢١٠.

[٣٧٦] الفرقان، ٤٨، ٤٩.

[٣٧٧] تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ١١٤.

[٣٧٨] الزمر، ٦٧.

ذلك مادام فيهم من يذكره، هكذا تمتزج العظمة والقدرة مع رحمته تعالى، وهذا ما يجب أن يكون في من استخلفه في أرضه بعد أن ألبسه ثوب العظمة والعزة والولاية من الرحمة والرأفة والمحاورة حتى لا يقع في غضب مولاه فهذه الرعية لا يأتيها إلا من رضيه أن يكون خليفته فيهم وهو كذلك[٣٧٩].

الوجه الرابع نبات الأرض:

قال تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[٣٨٠]. نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً) أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره. وقوله: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) أي: الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه وهذه عظمة لعظيم، (الرحيم) أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل ينظره ويؤجله لأجل أن يستغفر ويتوب إن أخطاء أو غفل، فإن لم يتوب على ما فعل من باطل يؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبير: الرحيم بِمَنْ تاب إليه وأناب[٣٨١]. وهذا السلوك الرباني الذي التقت فيه العظمة والعزة مع الرحمة لابد وأن يكون لخلفائه نصيب منها؛ ولأنه تعالى جل شأنه لا يختار شيئا عبثا فحظ الخليفة منها أن يسير على هذا النهج كما أمر وما هذا الحمل الثقيل بسهل وإلا كلف به أيا كان. واعلم أيها العبد أنك لو بلغت إلى أن يحيط عقلك بجميع عجائب عالم الأجسام والأرواح فإياك أن تحدثك نفسك بأنك بلغت مبادئ

---

[٣٧٩] تفسير ابن كثير ، ج ٧ ، ص ١١٣.

[٣٨٠] الشعراء، ٥ . ٩.

[٣٨١] تفسير ابن كثير، ج ٦ ، ص ١٣٥- ١٣٦.

ميادين جلال الله فضلاً عن أن تبلغ الغور والمنتهى. ومن دعوات رسول الله عليه السلام وثنائه على الله: "لا ينالك غوص الفكر، ولا ينتهي إليك نظر ناظر، ارتفعت عن صفة المخلوقين صفات قدرتك، وعلا عن ذلك كبرياء عظمتك وإذا قلت الله أكبر فاجعل عين عقلك في آفاق جلال الله وقل: سبحانك اللهم وبحمدك"[٣٨٢].

الوجه الخامس في البحر:

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[٣٨٣]. لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)، فضربه بها وفيها، عظمة الله وسلطانه الذي أعطاه، فانفلق. (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)، وهذه من معجزات عظمته جل جلاله، أي تكومت المياه وكأنها جبال دون أن تكون ثلجا، وبني الإنسان مهما بلغوا من العظمة فهم حتى تاريخه لم يستطيعوا أن يجعلوا الماء كوما متراكما دون أن يسيل على الأرض أو يسيل في مجارٍ منحدرة في وديانٍ تجري، ولهذا أقول: بالعلم كل شيء ما لم يكن مستحيلا فهو ممكن في دائرة المتوقع وغير المتوقع.

الوجه السادس أم موسى عليهما الصلاة والسلام:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[٣٨٤]. كان فرعون يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، خوفا من أن يظهر بينهم الغلام الذي يكون سبباً في هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها

---

[٣٨٢] المصدر السابق ص ١٣٧.

[٣٨٣] الشعراء ٦٣.

[٣٨٤] القصص، ٧ . ٩.

بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب؛ ولهذا قال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}[٣٨٥]. وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}[٣٨٦]. وقال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[٣٨٧]، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلِّله، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن سبحانه لا إله إلا هو الرب العظيم[٣٨٨].

الوجه السابع في الأنهار والبحار:

هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعاقًا مُرَّة، ولهذا قال: (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)، أي: مُرّ. ثم قال: (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) يعني: السمك،

---

[٣٨٥] القصص ، ٦.

[٣٨٦] الأعراف، ١٣٧.

[٣٨٧] الشعراء، ٥٩.

[٣٨٨] تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ٢٢١

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)، كما قال تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٣٨٩]. وقوله: (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) أي: تمخره وتشقه بحيزومها. وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ). فأما قوله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِىَ في البحر بِأَمْرِهِ) ونظيره قوله تعالى: {وَمِنْ آياته الجوار في البحر كالأعلام}[٣٩٠]. ففي هذه الآية الكريمة الآتي:

أولا: أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هذه الآية.

ثانيا: أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيماً لشأنه، ومنهم من حمله على ظاهر قوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٣٩١].

الوجه الثامن في أليل والنهار:

قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}[٣٩٢]. وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء، (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) النجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن مصدرا وانعكاسا ونورا وضاحا، وأجرام السماوات الجميع يسيرون بمقدار

---

[٣٨٩] الرحمن، ٢٢، ٢٣.

[٣٩٠] الشورى ٣٢.

[٣٩١] النحل ٤٠.

[٣٩٢] فاطر، ١٣.

معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من العلي العظيم. (كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى) إلى يوم القيامة. (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ) الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، (مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ).

قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٣٩٣]. وقوله: (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، كما قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٣٩٤]. وقال تعالى: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[٣٩٥]. فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا[٣٩٦]. وقال تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ في أليل والنهار}[٣٩٧]. وهذا يدل على أن الزمان والزمانيات بأسرها ملك الله تعالى وملكوته، فتعالى وتقدس عن أن يكون علوه بسبب المكان وأما عظمته فهي أيضاً بالمهابة والقهر والكبرياء، ويمتنع أن تكون بسبب المقدار والحجم، فالحق أنه سبحانه وتعالى أعلى وأعظم من أن يكون من جنس الجواهر والأجسام تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً[٣٩٨]، ونسأل الله العظيم أن يرحم عجزنا وقصور فهمنا بالطاعة والعلم واليقين، وأن يعفو عن خطايانا، فإنا لا نطلب إلا الحق، ولا نروم إلا الصدق.

الوجه التاسع في بطشه شديد:

---

[٣٩٣] الحج، ٦١، ٦٢.

[٣٩٤] البقرة، ٢٥٥.

[٣٩٥] الرعد، ٩.

[٣٩٦] تفسير ابن كثير، ج، ٥، ص ، ٤٤٩.

[٣٩٧] الأنعام ١٣.

[٣٩٨] تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٤٥٣.

قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[٣٩٩]. (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ) أي: بغوا وعتوا وعصوا، (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) أي: منّوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}[٤٠٠]. فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا) قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا. واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى) أي أشد خزيا لهم. وهنا تظهر قوته تعالى وعظمته وقدرته التي ليس لها مقياس بشرى وخاصة لمن يريدون الفساد في البلاد وبين العباد، فأرسل الله جل في علاه العذاب من حيث لا يحتسبون، ونصر خلفاءه بنصره كما وعد ووعده الحق، فخلفاؤه منصورون أينما كانوا وحيثما وجدوا، فالرسول الكريم كان يقول: "نصرت بالرعب من مسيرة شهر" أو كما قال ، فهذه الخلافة منصورة بإذن ربها أينما حلت"[٤٠١].

الوجه العاشر كلهم خاضعون له:

---

[٣٩٩] فصلت، ١٥ . ١٨.

[٤٠٠] الذاريات، ٤٧.

[٤٠١] تفسير ابن كثير ، ج ٧ ، ص ١٦٩.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٤٠٢]. (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرْضِ إِلَهٌ) أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه وهذه بأسباب عظمته جل جلاله، (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ). وهذه الآية كقوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}[٤٠٣]، هو العظيم الواحد القهار وهو في كل مكان ولا تخفى عليه خافية، وهو الذي يعلم بأمر كل شيء في كل زمان ومكان في السموات والأرض. (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) التبارك إظهار للقوة والوجود الفعَّال وهو الذي لا يشغله شاغل وهو المحيط العليم في ملكه الذي لا ملك إلا له عز وجل، ولا ملك إلا منه مصداقا لقوله تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)، فسبحانه جل جلاله تعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الذي لا يعلمه إلا هو ولهذا لا يجليها لوقتها إلا هو، (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي: فيجازي كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر[٤٠٤].

الوجه الحادي عشر هو العظيم الممجد:

{وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤٠٥]. (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السمواتِ وَالأرْضِ) قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: "العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما أسكنته ناري". ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي

---

[٤٠٢] الزخرف، ٨٥.

[٤٠٣] الأنعام ، ٣.

[٤٠٤] تفسير ابن كثير ، ج ٧ ، ص ٢٤٣.

[٤٠٥] الجاثية ٣٧.

مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنحوه[٤٠٦]، وقوله: (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، (الحكيم) في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو. فهذه الكبرياء التي نراه على وجه الأرض جعلها في قلوب الخلق فإن جزءا منها منحه لخلفائه ليكون الخلائق مطيعين لخلفائه على ظهر البسيطة وإلا فكيف يستطيع رجل أن يسير على نهجه وأمره عدد لا يحصى من خلقه، تلك هي الخلافة التي أوردها تعالى في كتابه العزيز ، قال تعالى: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) يعني: ما أعطاه الله محمدا صلى الله عليه وسلم من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته صلى الله عليه وسلم إليهم[٤٠٧].

الوجه الثاني عشر عظيم في خلق السماوات والأرض:

قال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}[٤٠٨]. وقوله: (السماء بِنَاء) **فيه مسائل:**

الأولى: أنه تعالى ذكر أمر السماوات والأرض في كتابه في مواضع، ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى من ذكر السماوات والأرض يدل على عظم شأنهما، وعلى أن له سبحانه وتعالى فيهما أسراراً عظيمة ، وحكماً بالغة لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم.

والثانية: في فضائل السماء وهي من وجوه:

الأول: أن الله تعالى زينها بمصابيح تنير الليل وترشد الناس إلى سبلهم وحيث يشاءون.

الثاني: أنه تعالى سمى السموات بأسماء تدل على عظم شأنها: سماء، وسقفاً محفوظاً، وسبعاً طباقاً، وسبعاً شداداً.

---

[٤٠٦] صحيح مسلم، ج ٧، ٢٥٩.

[٤٠٧] تفسير ابن كثير، ج ٧ ، ص ٢٧٣ .

[٤٠٨] البقرة، ٢٢.

والثالث: أنه تعالى جعل السماء قبلة الدعاء: فالأيدي ترفع إليها، والوجوه تتوجه نحوها، فهي الأفق العظيم الذي يستوعب تضرع وتقرب الخليفة إليه، فرفع الرأس والأيدي معا للسماء هو في حقيقته تضرع إلى ربِّ السماء جل جلاله، وليس تضرعا للسماء مهما عظمة.

الرابع: تفكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملوناً بهذا اللون الأزرق، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان، وهو المستنير وشكلها أفضل الأشكال، وهو المستدير، ولهذا قال: {أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بنيناها وزيناها وما لَهَا مِن فُرُوجٍ}[٤٠٩] يعني ما فيها من فصول، ولو كانت سقفاً غير محيط بالأرض لكانت الفروج حاصلة[٤١٠].

الوجه الثالث عشر عظيم بكمال قدرته:

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[٤١١]. يقول تعالى مخبرا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه {أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[٤١٢]. وقال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَن فِيهنَّ}[٤١٣]. وقوله تعالى (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) أي سبعا أيضا، كما ثبت في الصحيحين "من ظلم قيدَ شِبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين"[٤١٤].

---

[٤٠٩] ق، ٦.

[٤١٠] تفسير الرازي ، ج ١ ، ص ٣٨١.

[٤١١] الطلاق، ١٢.

[٤١٢] نوح، ١٥.

[٤١٣] الإسراء، ٤٤.

[٤١٤] تفسير ابن كثير ، ج ٨ ، ص ١٥٦.

الوجه الرابع عشر عظيم بملكه وقدرته المطلقة:

إنه الخالق لكل مخلوق، ولهذا فهو الذي بيده أمر ما خلق ومُلك كل شيء حيث لا شيء إلا به، ولا شيء إلا منه جل جلاله، وهو الذي يخلق كل شيء ويباركه بقدرته وقوته المطلقة، وهو الغفور الرحيم.

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[٤١٥]. يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله. ولهذا قال: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). ثم قال: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟ ثم قال: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) أي: هو العزيز العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزا، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز[٤١٦].

الوجه الخامس عشر لا يقوم لغضبه شيء:

قال تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}[٤١٧]. يقول تعالى متوعدًا الكفار ومتهددًا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء: (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ) أي: دعني والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، (وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا) أي: رويدا، كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}[٤١٨]؛ ولهذا قال هاهنا: (إِنَّ

---

[٤١٥] الملك، ١، ٢.

[٤١٦] تفسير ابن كثير ، ج ٨ ، ص ١٧٦.

[٤١٧] المزمل، ١١، ١٢.

[٤١٨] لقمان، ٢٤.

لَدَيْنَا أَنْكَالا) وهي: القيود. (وَجَحِيمًا) وهي السعير المضطرمة. (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ) قال ابن عباس: "ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج"[٤١٩].

الوجه السادس عشر عظيم إعجازه وعلم غيبه جل جلاله:

قال تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[٤٢٠]. التساؤل يتضمن الحيرة والاستغراب ولذا فهو استفسار استغرابي في مضمونه حيرة وتعجب، وتكون النتائج المترتبة عليه استكشافية، كما هو الحال عند نيوتن الذي تساءل عندما شاهد التُفاحة تسقط من الشجرة بقوله: (لِما لا تصعد التُفاحة. لِما لا تصعد التُفاحة) حتى تمكَّن من اكتشاف قانون الجاذبية. ويتضح الاستغراب ألتساؤلي في قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[٤٢١]!!. وقوله تعالى في سورة يونس صلى الله عليه وسلم: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[٤٢٢]. وقوله تعالى في سورة هود صلى الله عليه وسلم: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[٤٢٣]!!.

التساؤل لا يلاحق الإجابة كما هو حال السؤال، بل يسعى لمعرفة الجديد الذي لم تسبق معرفته. فالتفاحة وسقوطها على الأرض عُرف بالمشاهدة المباشرة، ولكن القانون الذي على أساسه تسقط التفاحة على الأرض بالضرورة هو الذي ترتبت معرفته بعد تساءل نيوتن: لِما لا تصعُد التفاحة إلى أعلى!!.

وتأخذ التساؤلات الأوجه التالية:

---

[٤١٩] تفسير ابن كثير، ج ٨، ص ٢٥٦.

[٤٢٠] النبأ ، ١ . ٨.

[٤٢١] الغاشية ١٧ . ٢١.

[٤٢٢] يونس ٩٩.

[٤٢٣] هود ٢٨.

١ . في الأمور العظيمة التي يكون فيها الاختلاف والاستغراب. مصداقا لقوله تعالى في سورة النبأ: (عمّ يتساءلون، عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون).

٢ . عندما يكون موضوع البحث جديدا بالتمام. كما هو حال نيوتن والتفاحة.

٣ . في البحوث النظرية أو المكتبية. كما هو الحال في البحوث الفكرية والفلسفية التي تجرى في الدراسات العليا.

وتصاغ التساؤلات على الكيفية الآتية:

. ألا يكون ارتفاع مستوى الطلاق على علاقة ضعيفة بارتفاع مستوى التعليم.

. ألا يكون ارتفاع مستوى الأداء المهني على علاقة قوية وموجبة مع ارتفاع مستويي التعليم والتدريب.

. ألا تكون قوة علاقة الأم الموجبة بعملها تُضعف علاقاتها مع أبنائها وتجعلها سالبة.

. لِما لا تُتخذ احتياطات تحقيق السلامة والآمان للمواطنين فيما إذا تكرر إعصارا كإعصار كاترينا في أمريكا، أو كما الحال في سونامي باندونيسيا، والإعصار الذي ضرب أجزاء من عُمان وإيران ٢٠٠٧م، كل ذلك تذكير من الله لخلقه.

. لأجل سلامة المواطنين من الغارات الحربية والهزات الأرضية المفاجئة لِما لا تصدر قوانين تستوجب بناء مساكن آمنة وفقا للمواصفات الفنية وأن يكون من بينها طابقا للسلامة تحت الأرض.

ولأجل معرفة المزيد في هذا المضمار علينا أن نميز بين مستوجبات صياغة التساؤلات وبين مستوجبات صياغة الأسئلة.

السؤال: صيغة لغوية ذات أدوات استفهامية عن معارف سابقة، وبه تستدعى الإجابات مما يجعل الإجابة دائما سابقة على السؤال ويجعل السؤال دائما في حالة ملاحقة للإجابة.

وعند عامة الناس اعتقاد سائد بأن السؤال دائما يسبق الإجابة، وهذا الأمر غير صحيح، فلو لم تكن الإجابة سابقة معرفيا ما كان السؤال عنها. ولذا لا سؤال إلا بعد معرفة، وإلا هل هناك من يسأل عن من لا يعرفه، أو عن مالا يعرفه؟. ولهذا يتم التعليم أولا حيث تُعطى

المقررات والمحاضرات تم بعد ذلك تجرى الامتحانات فتصاغ الأسئلة وفقا لِما تم إعطاؤه للتلاميذ والطلبة أو المتعلمين والمتدربين بشكل عام.

السؤال لا يأتي بالجديد، بل يُعيد ما سبق وإن قيل أو أعطي أو طُبِعَ ونُشِرَ في دوائر المعرفة الواسعة، ومع أن المعلومة (الإجابة) تسبق السؤال، إلا أن التعرف عليها قد لا يتم، أو لا يتم التوفيق في عمليات استدعائها من قبل الذي أعطيت له عندما تدخل دهاليز النسيان، أو عندما لا تكون في مستوى القدرات المتلقية والداعية لها.

وعليه: من يصوغ أسئلة لبحوث علمية بغرض نيل إجازة عالية أو دقيقة فهو لن يأتي بالجديد، ويكون قد خلَّ بشرط أساسي لنيل الإجازة العالية أو الدقيقة. فالسؤال كما سبق أن بينا يلاحق إجابة سابقة عليه. أما البحث فينبغي أن يضيف شيئا جديدا، أو يأتي بالجديد المفيد. وهذا لن يتأتى إلا بفروض أو تساؤلات علمية متطلّعة للمستقبل.

يقول الله تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أي: عن أي شيء يتساءلون؟ من أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر. شرع تعالى يُبَيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا) ؟ أي: ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم، قارّةً ساكنة ثابتة، (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أي: جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. وقال: (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[٤٢٤]. {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}[٤٢٥]. أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يغالب، بل قد قهر كلّ شيء وذل له كل شيء[٤٢٦].

---

[٤٢٤] الروم، ١٢.

[٤٢٥] الانشقاق ٢.

[٤٢٦] تفسير ابن كثير ، ج ٨ ، ص ٣٥٦.

الوجه السابع عشر خلق الأشياء:

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[٤٢٧]. يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)؟ فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت؟ قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. وهكذا أقسم "ضِمَام" في سؤاله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما رواه الإمام أحمد حيث قال: "جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولُك فزعَم لنا أنك تَزعُم أن الله أرسلك. قال: "صدق". قال: فمن خلق السماء؟ قال: "الله". قال: فمن خلق الأرض؟ قال: "الله". قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: "الله". قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آللهُ أرسلك؟ قال: "نعم". قال: وزعم رسولُك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: "صدق". قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ الحديث إلى أن قال:(فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن صدق ليدخُلَنّ الجنة")[٤٢٨].

الوجه الثامن عشر عظيم بنعم الإيمان:

قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[٤٢٩]. إن نعمة الله بالإيمان أعظم النعم، والدليل عليه أن هذه النعمة لو فاتتك لكنت أشقى الأشقياء أبد الآبدين ودهر الداهرين، ثم هذه النعمة من الله تعالى لقوله: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ}[٤٣٠] ثم مع أن هذه النعمة منه فإنه يشكرك عليها مصداقا لقوله تعالى: {فَأُولَئِكَ

---

[٤٢٧] الغاشية، ١٧ . ٢٠.

[٤٢٨] تفسير ابن كثير ، ج ٨ ، ص ٣٨٧– ٣٨٨.

[٤٢٩] البقرة ١٢٢.

[٤٣٠] النحل ٥٣.

كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا}[٤٣١]. فإذا كان الله تعالى يشكرك على هذه النعمة فبأن تشكره على ما أعطى من التوفيق والهداية كان أولى، ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران على ما قال تعالى: {قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ}[٤٣٢] فهو تعالى وفى بعهده، وأنت نقضت عهدك. فعليك أن تنفق نعمه في سبيل مرضاته، فعهده معك أن يعطيك أصناف النعم وقد فعل وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته وأنت ما فعلت ذلك: {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى}[٤٣٣]. ثم أنعم عليك بأنواع النعم لتكون محسناً إلى المحتاجين: (وَأَحْسِنُواْ إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين) ثم إنك توسلت به إلى إيذاء الناس وإيحاشهم: {الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل}[٤٣٤]. بذلك أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلاً على حمده وأنت تحمد غيره فانظر إن السلطان العظيم لو أنعم عليك بخلعة نفيسة، ثم إنك في حضرته تعرض عنه وتبقى مشغولاً بخدمة بعض الأسقاط كيف تستوجب الأدب والمقت فكذا ههنا، واعلم أنا لو اشتغلنا بشرح كيفية وفائه سبحانه بعهد الإحسان والربوبية وكيفية نقضنا لعهد الإخلاص والعبودية لما قدرنا على ذلك فإنا من أول الحياة إلى آخرها ما صرنا منفكين لحظة واحدة من أنواع نعمه على ظاهرنا وباطننا وكل واحدة من تلك النعم تستدعي شكراً على حدة وخدمة على حدة، ثم أنا ما أتينا بها بل ما تنبهنا لها وما عرفنا كيفيتها وكميتها، ثم إنه سبحانه على تزايد غفلة البعض وتقصيرهم يزيد في أنواع النعم والرحمة والكرم، وهم من أول عمرهم إلى آخره لا يزالوا يتزايدوا في درجات النقصان والتقصير واستحقاق الذم، وهو سبحانه لا يزال يزيد في الإحسان واللطف والكرم، واستحقاق الحمد والثناء فإنه كلما كان تقصيرنا أشد كان إنعامه علينا بعد ذلك أعظم وقعاً وكلما كان إنعامه علينا أكثر وقعاً، كان تقصيرنا في شكره أقبح وأسوأ، فلا تزال أفعال البعض تزداد قبائح ومحاسن أفعاله على سبيل الدوام بحيث لا تفضي إلى الانقطاع إنه العظيم المتعال جل جلاله. قال تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين) وهذا تخويف

---

[٤٣١] الإسراء ١٩.

[٤٣٢] عبس، ١٧.

[٤٣٣] العلق، ٦، ٧.

[٤٣٤] الحديد، ٢٤.

شديد لكنا نقول: إلهنا صدر منك ما يليق بك من الكرم والعفو والرحمة والإحسان وصدر منا ما يليق بنا من الجهل والغدر والتقصير والكسل ، فنسألك بك وبفضلك العميم أن تتجاوز عنا يا أرحم الراحمين[٤٣٥].

الوجه التاسع عشر عظمة **المشورة:**

للمشورة معطيات وتترتب عليها أفعال وفقا للآتي:

أولا: وجود موضوع مشترك.

ثانيا: وجود أكثر من طرف على علاقة مباشرة بالموضوع أو على علاقة شبه مباشرة.

ثالثا: ضرورة لمن يُدير موضوع المشاورة بين من يتعلق الأمر بهم.

رابعا: نتيجة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

خامسا: فعل ورد فعل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٤٣٦]. بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرها. فالملك العظيم لا يشاور في المهمات العظيمة إلا خواصه والمقربين عنده، فهؤلاء لما أذنبوا عفا الله عنهم، فربما خطر ببالهم أن الله تعالى وإن عفا عنا بفضله إلا أنه ما بقيت لنا تلك الدرجة العظيمة، فبين الله تعالى أن تلك الدرجة ما انتقصت بعد التوبة، بل أنا أزيد فيها، وذلك أن قبل هذه الواقعة ما أمرت رسولي بمشاورتكم، وبعد هذه الواقعة أمرته بمشاورتكم، لتعلموا أنكم الآن أعظم حالا مما كنتم قبل ذلك، والسبب فيه أنكم قبل هذه الواقعة كنتم تعولون على أعمالكم وطاعتكم، والآن تعولون على فضلي وعفوي، فيجب أن تصير درجتكم ومنزلتكم الآن أعظم مما كان قبل

---

[٤٣٥] تفسير الرازي ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

[٤٣٦] آل عمران ١٥٩.

ذلك، لتعلموا أن عفوي أعظم من عملكم وكرمي أكثر من طاعتكم. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه[٤٣٧].

الوجه العشرون العظمة ثبات الأجر وحسن الثواب:

{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[٤٣٨]. ثم إن الله تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة:

أولها: محو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله: (لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سيئاتهم) وذلك هو الذي طلبوه بقولهم: (فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سيئاتنا).

وثانيها: إعطاء الثواب العظيم وهو قوله: (وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار) وهو الذي طلبوه بقولهم: وآتنا ما وعدتنا على رسلك.

وثالثها: أن يكون ذلك الثواب ثوابا عظيما مقرونا بالتعظيم والإجلال وهو قوله: (مِنْ عِندِ الله) وهو الذي قالوه: (وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة) لأنه سبحانه هو العظيم الذي لا نهاية لعظمته، وإذا قال السلطان العظيم لعبده: إني أخلع عليك خلعة من عندي دل ذلك على كون تلك الخلعة في نهاية الشرف وقوله: (ثَوَاباً) مصدر مؤكد، والتقدير: لأثيبنهم ثوابا من عند الله، أي لأثيبنهم إثابة أو تثويبا من عند الله، لان قوله لأكفرن عنهم ولأدخلنهم في معنى لأثيبنهم. ثم قال: (والله عِندَهُ حُسْنُ الثواب) وهو تأكيد ليكون ذلك الثواب في غاية الشرف لأنه تعالى لما كان قادرا على كل المقدورات، عالما بكل المعلومات، غنياً عن الحاجات، كان لا محالة في غاية الكرم والجود والإحسان، فكان عنده حسن الثواب[٤٣٩].

الوجه الحادي والعشرون العظمة بكمال الرحمة:

---

[٤٣٧] تفسير الرازي ، ج ٤ ، ص ٤٤٥.

[٤٣٨] آل عمران، ١٩٥.

[٤٣٩] تفسير الرازي، ج ٥ ، ص ٢٦.

{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٤٤٠]. اعلم أن كمال جود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم، فدعوته عبيده إلى دار السلام، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم إذا استعظم شيئاً ورغب فيه دل ذلك على كمال حال ذلك الشيء، لا سيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله تعالى: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ}[٤٤١] ونحن نذكر ههنا كلاماً كلياً في تقرير هذا المطلوب، فيقال: الإنسان إنما يسعى في يومه لغده. ولكل إنسان غدان، غد في الدنيا وغد في الآخرة[٤٤٢].

الوجه الثاني والعشرون عظمة الفاتحة:

ذكرت من الأسماء خمسة في الفاتحة، وهي الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الإلهية وهي إشارة إلى القهارية والعظمة فعلم أن الأرواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكر بعده أربعة أسماء تدل على اللطف، الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحداً فإنه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة ثم ختم الأمر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولأن عائشة قالت لعلي رضي الله عنه: "ملكت فأسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء"[٤٤٣].

{وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا}[٤٤٤] يعني بكل شيء من الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بجميع الأشياء وقادر على الإنشاء بعد الإفناء، فتبارك الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[٤٤٠] يونس، ٢٥.

[٤٤١] الواقعة، ٨٩.

[٤٤٢] تفسير الرازي ، ج ٨ ، ص ٢٦٥.

[٤٤٣] تفسير الرازي، ج ١٠، ص ٣٦٠.

[٤٤٤] الطلاق، ١٢.

اللهم باسمك العظيم نسبِّحُك ونحمدك ونشكرك كثيرا، اللهم يا العظيم عظّم أقوالنا بالحُجَّة التي تحق الحق وتدمغ الباطل حتى يزهق، وعظّم أعمالنا بكل ما يسبب إصلاحا في الأرض ويقضي على الفساد ويحرِّم سفك الدماء بين الناس بغير حق، اللهم إنك العظيم بوحدانيتك فنشهد إنك الله لا إله إلا أنت وحده لا شريك لك جل جلالك، ونشهد إن محمدا عبدك ورسولك فنصلي عليه ونسلم تسليما ونشهد إنك العظيم بخلقك خلقت الإنسان في أحسن تقويم فتبارك الله أحسن الخالقين، ونشهد إنك العظيم بعذابك فالويل للكافرين الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

الغفور

اسم الله الغفور "يدل على ذات الله وعلى صفة المغفرة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلي صفة المغفرة وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم علي الحياة والقيومية، والعزة والأحدية، والحكمة والعظمة، والرأفة والرحمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال واسم الله الغفور دل علي صفة من صفات الأفعال"[٤٤٥].

الغفور اسم من أسماء الله تعالى التي تحوي في ثناياها معاني الرحمة والود والقيومية وتمنح العبد المؤمن بالله عز وجل الذي قصّر في حق ربه بارتكاب بعض الذنوب أو تركه لبعض الواجبات، فهذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هذا المؤمن شبح اليأس ذلك لقوله تعالى مطمئناً عباده القانطين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤٤٦].

والغفور يدل على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أي عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وهذا ما نلاحظه من سهولة تركيب حروف الاسم (غفو) فحرف المد فيه يفيد الاستمرار

---

[٤٤٥] أسماء الله الحسنى، ج ٢٣، ص ٢٥.

[٤٤٦] الزمر ٥٣.

اللامحدود وهذا بخلاف اسم الغفّار الذي يفيد استمرار المغفرة اللانهائي أيضاً ولكن بشروط وتشديد فيها والدال على هذا المعنى هي حركة الشدة التي قبل حرف المد في اسم (الغفّار).

وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أي شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٤٤٧]، وكذلك قوله عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٤٨]، وأيضاً قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٤٩]، والكثير من الآيات القرآنية تُشْعرنا بيسر عملية الغفران وقربها منا وإمكانية الوصول إلى استحقاق مغفرة الغفور عز وجل.

وهناك أيضاً ارتباط للمغفرة بالرحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدل على أن المغفرة الميسَّرة للعباد نوع من أنواع اللين والرحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر الخطّائين وفي هذا أيضاً استشعار لليسر والسهولة في اسم الله (الغفور).

فالله عز وجل يغفر الذنوب لمن أراد بقوته وإرادته ولا يغفرها خوفاً أو طمعاً بل رحمةً بعباده ولطفاً بهم.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكل شيء سترته فقد غفرته والمغفرة التغطية على الذنوب.

واسم الغفور جل جلاله ورد في إحدَ عشرَ موضعاً من القرآن الكريم مطلقاً ومنوناً مراد به العلمية ودالاً على كمال الوصفية كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

---

[٤٤٧] البقرة ٢٢٥.

[٤٤٨] آل عمران ٣١.

[٤٤٩] البقرة ١٩٨، ١٩٩.

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤٥٠] وقوله تعالى أيضاً: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}[٤٥١]، وورد في صفة غفور اثنين وسبعين موضعاً من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[٤٥٢]، وقوله أيضاً: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٤٥٣].

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا أن الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه، فقد كانت الملائكة تسبح لله وتحمده وتطيعه وحتى الشيطان نفسه كان في طاعة الله لا يخرج عنها لمعصية إلا بعد أن خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له، هنا ظهرت أول معصية وبدأ البغض والحقد وظهر الغرور والتكبر من جانب الشيطان الذي توعد بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}[٤٥٤].

---

[٤٥٠] الحجر ٤٩.

[٤٥١] الكهف ٥٨.

[٤٥٢] البقرة ١٧٣.

[٤٥٣] البقرة ٢٣٥.

[٤٥٤] الإسراء ٦١ـ ٦٥.

وعندما ننظر في قصة خَلْق الله للإنسان نجد ولله الحمد أن أسماء الله وتعالى وصفاته الأزلية تمثّل الغطاء التام لحاجات الإنسان الكثيرة ، فلا يمكن للإنسان قضاء أي حاجة من حاجياته بدون اللجوء لله تعالى، فاسم (الرحيم) مثلاً يعطي معنى الرحمة التي نزلت من الله القوي بالإنسان الضعيف لخير ذلك الإنسان، واسم (الغفور) يمثّل حاجة الإنسان للمغفرة عند الخطأ واسم الشافي يحتاج إليه الإنسان المريض، واسم الغني يحتاج إليه الفقير وهكذا. وبما أن الله تعالى بعلمه المطلق يعلم أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك من يتوعد بتضليله فإن الذنوب والأخطاء تحتاج لمن يغفرها، ونجد هذه الحاجة أول ما نجدها في قصة سيدنا آدم ، فعندما خلق الله آدم وخلق منه حواء وأسكنهما الجنة وضّح لهما الحلال والحرام، ولكنهما وقعا في الذنب باستماعهما لوسوسات الشيطان الرجيم الذي أغراهما بالمُحرّم فكان لابد من أن يتوبا لبارئهما وهنا كانت مغفرة الله التي يحتاجها الإنسان لتقبل توبته فكانت التوبة بابا للمغفرة، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ **شِئْتُمَا** وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤٥٥]، وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

---

[٤٥٥] البقرة ٣٤ . ٣٧.

ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}[٤٥٦]، فخطأ سيدنا آدم وزوجه أظهرت حاجة الإنسان الضعيف إلى مغفرة الغفور المطلق الأزلية.

ومن هنا نجد أن أسماء الله تعالى وصفاته كلها رحمة للإنسان من حيث أنه يتضرع بها إلى خالقه عز وجل كلٌ حسب احتياجه ، فالفقير مثلاً يسأل الله الغني أن يعطيه، والمريض يسأل الله الشافي الشفاء، والضعيف يتضرع إلى الله القوي أن يسانده وينصره، والمذنب يسأل الله تعالى المغفرة حتى ينجو من عذاب الجحيم.

ونحن البشر لنا حالات حياتية معينة قد تختل فيها الموازين لدينا فلا نعود قادرين على التصرف الصحيح في الموقف الذي نتعرض له، فنجد أنفسنا تارة نسعى في عمل الخير ونحاول قدر الإمكان أن نبتعد عن الذنوب والأخطاء، وتارة أخرى نجد أن ذنوبنا التي نعتبرها بسيطة أو صغيرة تختلط ببعضها البعض فنحاسب أنفسنا بعد التدبر والتمعّن والتفكير في ما قدمنا من عملٍ نافع ووضعه في ميزان مع ما ارتكبناه من ذنب، ونجد أنفسنا أحياناً نخلط بين عمل صالح وآخر سيء، كما جاء في قوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤٥٧]، فإذا أحس العبد أن عمله السيئ قد غلب على الحسن تملّكه اليأس والخوف والحزن فيأتي اسم الغفور ليزرع فيه الأمل لكي ينهض من جديد فيتوب ويجدد أعماله ويقلبها إلى أعمال حسنة.

اسم الله الغفور يجعل الإنسان يشعر بضآلة حجمه وضيق قدراته في هذا الكون إذ أنه كثير الأخطاء والذنوب، وهذا من شأنه أن يجعله متواضعاً شاعراً بغيره من البشر، وكذلك يجعله هذا الاسم يدرك أنه لن يضر الله شيئاً إذا أذنب ولكنه لو تاب واستغفر الغفور وتراجع عن خطئه يستره الله ويغفر له.

---

[٤٥٦] طه ١١٦ . ١٢٥.

[٤٥٧] التوبة ١٠٢: ١٠٤.

الغفور هو المحاسب: فالحساب واقعٌ لا محالة يوم الدين فلا يمكن أن يفلت أحد من حسابه عز وجل وذلك تصديقاً لقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[٤٥٨] فالله تعالى لن يترك العباد سدى فيساوي بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، وكذلك لا يساوي بين كبائر الذنوب وصغائرها، وكذلك العلم بها والجهل بها، فكل ذلك يدخل في حساب الله تعالى للإنسان، فمثلاً من يعمل سوءاً وهو عالمٌ بذلك يحاسبه الله على علمه بذلك فيكون الحساب أشد من الذي يعمل السوء على جهلٍ منه، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٤٥٩].

فالمحاسب المطلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وليس للإنسان حجة على الله بعد أن أرسل رسله بالدعوة للتوحيد والتبشير بالجنة والتحذير من النار مع توضيح طرق الوصول لكل منهما وهذا بحد ذاته يرفع أي ستار من الممكن أن يختبئ الكافر أو العاصي خلفه يوم الدين ليبرر ما كان عليه في الحياة الدنيا فلا مغفرة تصيبه بما قدّمت يداه.

فالحساب يتضمن المغفرة والعقاب، المغفرة لمن يستحقها والعقاب لمن يستحقه، وكل إنسان حسابه وجزاؤه رهين بما قدّم من أعمال كما في قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[٤٦٠]، فهذه الآية الكريمة توضّح للإنسان أنه:

---

[٤٥٨] الزلزلة ١: ٨.

[٤٥٩] النساء ١٧.

[٤٦٠] الإسراء ١٣ . ١٥.

*الوحيد الذي يستطيع أن ينجو بنفسه التي أعطاها الله له أمانة من النار بأن يستحق مغفرة الخالق بما يقدّم من أفعال.

*إن صاحب العمل هو الذي سيجازى عليه ويحاسَب لا أقرباءه وأهله، فلن يشاركه أحد في أعماله وأفعاله التي قام بها.

* لا حجة للإنسان يوم القيامة بعد وجود كتاب أعماله وفيه مسجّل كل صغيرة وكبيرة، لأن حساب الخالق عز وجل دقيق إلى درجة أن الإنسان سيقول يوم الحساب: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٤٦١] .

* إن الله عادل لا يعذب ولا يحاسب الإنسان إلا بعد أن يرسل الرسل والأنبياء كما جاء في قوله تعالى:{ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٤٦٢].

إذن بهذا الحساب العادل ستكون مغفرته لمن يستحقها بعلمه وقيامه على أمر العباد، لأن أمر الحساب يتطلب أن يكون المحاسب قائماً على الأعمال والأقوال فكان الغفور حياً قيوماً كما في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

---

[٤٦١] الكهف ٤٧ . ٤٩.

[٤٦٢] النساء ١٦٥ . ١٧٠.

بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[٤٦٣]، بهذا يكون الحساب عادلاً والمغفرة تشمل العباد المستحقين لها .

فعلى خليفة الله أن يحاسب نفسه أولاً قبل أن يُحَاسب، فيعلم متى يستحق أن يغفر لنفسه ولغيره ممن حوله، فبحسابه للآخرين سيصل إلى معادلة صحيحة يدرك من خلالها كيف ومتى يغفر ويعفو، فيكون الخليفة بحق في الأرض فلا يتعدى على حق أحد ولا يتجاوز الحد في العقاب، ويغفر متى كان ذلك ميسّراً له ولمن حوله.

الغفور هو الغني: من صفات الخالق عز وجل أنه الغني المطلق فهو ليس بحاجة شيء أو مخلوق، والغني لا يحتاج أن يستأذن أحد في أن يغفر أو أن يعاقب، وبما أنه الغني فالبشر هم الذين بحاجة إليه وإلى مغفرته وعفوه، فلا نجاة لإنسان إلا أن يغفر له المولى عز وجل، فالخالق قوي متكبر عن كل الخلق، والعباد هم الضعفاء كما جاء في قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٤٦٤]، وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[٤٦٥].

فالضعيف هو دائماً بحاجة إلى عفو وكرم القوي، والله عز وجل لا يقهره كفر الكافرين وذلك لغناه عنهم، ولكنهم لا غنى لهم عنه سبحانه وتعالى، فلا ملجأ للإنسان إلا خالقه ولا معين له إلا هو الواحد الأحد، فالكافر سينقلب كفره عليه، قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٤٦٦] ولن يضر الله شيئاً ولن ينفعه بكفره وجحوده.

---

[٤٦٣] البقرة ٢٥٥ . ٢٥٦.

[٤٦٤] آل عمران ٩٧.

[٤٦٥] لقمان ١٢.

[٤٦٦] آل عمران ٩٦ . ٩٧.

وهذا أساس التفكير السليم الذي يقوّي العلاقة بين العبد وربه فيستحق أن يكون خليفة في الأرض، وهو يحمل في قلبه وعقله اعتقاداً راسخاً بأنه الضعيف المحتاج إلى الخالق وهو الغني سبحانه وتعالى عن الخلق، فيتودد هذا الخليفة إلى الله تعالى طالباً مغرفته لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو عز وجل، وهذا من شأنه مساعدة الخليفة على الارتقاء بنفسه فيستغنى عن رذائل الأمور وصغائرها فيكون غنياً عن كل الخلق بتوجهه لله تعالى ولجوئه إليه في كل أمره صغيره وكبيره.

وعلى الخليفة أن يعلم أن الغنى ليس بالمال والأولاد فكم من غني لم تسعفه أمواله من دفع الضرر عنه وأكبر شاهد على ذلك قارون إذ أن الغني المطلق وهب له من الأموال ما لا يستطيع إنسان حصرها وبالرغم من ذلك ظل ضعيفاً ومحتاجاً لله كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٤٦٧]، فقد كان قارون في الحساب البشري الدنيوي من الأغنياء وبالرغم من ذلك كان فقيراً في الحقيقة إلى رضا الغني المطلق وإلى مغفرته عز وجل، لأن الغنى الحقيقي هو استحقاق مغفرة الله فيكون رصيد الإنسان مليئاً بالعمل الصالح

---

[٤٦٧] القصص ٧٨ . ٨٣.

والتوبة الصادقة لتحل عليه مغفرة الله تعالى وعفوه، ولكن الغنى قد يكون مع فقر الإنسان، كما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٤٦٨].

الغفور هو الكريم: من صور كرم المولى عز وجل للإنسان مغفرته له على ما تاب ورجع عنه من ذنوب فيعفو الله تعالى عنه ويرضى عليه، فقد كرّم الخالق تعالى الإنسان بحمل الأمانة ، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}[٤٦٩]، فكان خليفته على الأرض ، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[٤٧٠]، وبعد ذلك كرّمه بالعفو والمغفرة التي لا تنزل إلا على عباده المؤمنين الذين يوحدونه ويطيعونه، فاستحقوا كرمه عز وجل واستحقوا مغفرته، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

---

[٤٦٨] البقرة ٢٧٢ . ٢٧٤.

[٤٦٩] الأحزاب ٧٢.

[٤٧٠] البقرة ٣٠ . ٣٣.

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٤٧١] .

فالكريم المطلق لم يبخل بمغفرته وعفوه عن المذنبين بل ودعاهم لطلب المغفرة فيستجيب لهم كما في قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٧٢]، فقد طلب الخالق عز وجل من عباده على لسان رسله وأنبيائه أن يستغفروه فيغفر لهم ويتوب عليهم، كيف لا وهو الرحيم الغفور الكريم؟

وليسم من خلفاء الله من يبخل على نفسه بالعمل الصالح أو التوبة الصادقة، فخليفة الله هو من اتصف بالكرم في عفوه عمن أساء إليه وأخطأ في حقه فلا يبخل عليه بالسماح والغفران، وأن لا يكون بخيلاً في طلب المغفرة من الغفور الكريم كما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}[٤٧٣]، وكذلك قوله تعالى في طلب سيدنا موسى عليه السلام الغفران منه سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[٤٧٤]، وأيضاً قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٤٧٥]، فمن الآيات الكريمة السابقة يتضح لنا قيمة الاستغفار، فإذا كان هذا حال الرسل والأنبياء والصالحين الذين اصطفاهم الله تعالى وميّزهم بالصفات النبيلة فكيف الحال بنا نحن البشر؟

---

[٤٧١] آل عمران ١٣٣ . ١٣٦.

[٤٧٢] هود ١ . ٤.

[٤٧٣] الشعراء ٨٢.

[٤٧٤] الأعراف ١٥١.

[٤٧٥] الحشر ١٠.

فلا تبخل أيها الخليفة في طلب المغفرة والعفو واجعل من المرسلين قدوة ومثل تسير عليه في كل أمر ومنها طلب الغفران وقبول التوبة، فلا تبخل في طلب المغفرة لنفسك ولوالديك وأهلك وجميع المسلمين.

الغفور هو القريب من عباده بعدة أمور منها:

١- حثهم على الاستغفار: كقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[٤٧٦].

٢- قبوله الدعاء وإجابته لعباده كل حسب حاله وأحواله: كقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٤٧٧] .

وإجابة الدعوة تعني قرب الله من الإنسان قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٤٧٨]، فالخالق عز وجل يحدد ويؤكد لعباده المؤمنين الذين يطلبونه دائماً ويلجأون إليه أنه قريب وليس ببعيد، والقرب هنا يوحي بمحبة المولى عز وجل بقربه لعباده وغفرانه لهم، والخالق قريب من البشر أجمعين بعدة أشكال منها:

١- إنه قريب من عباده التائبين بغفرانه لهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٤٧٩]، فيبعث الأمل بنفوسهم بتأكيده أنه قريب منهم يغفر لمن يطلب الغفران ويتوب ويرجع للحق.

---

[٤٧٦] هود ٥٢.

[٤٧٧] البقرة ٢٨٦.

[٤٧٨] البقرة ١٨٦.

[٤٧٩] آل عمران ١٣٥، ١٣٦.

٢- قريب من عباده الطائعين بأنه يلبي لهم رغبتهم بدخول جنته، كقوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٤٨٠].

٣- إن الغفور قريب من عباده أجمعين بعلمه بما توسوس به أنفسهم، كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}[٤٨١].

٤- وهو قريب من عباده بقيامه عليهم وحسابه لهم على كل صغيرة وكبيرة، فيغفر ويعفو عن من يستحق المغفرة، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٤٨٢]، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ}[٤٨٣].

فعلى الخليفة أن يكون قريباً من الله تعالى لا يترك مجالاً للشيطان أن يوسوس له أبداً لأن عباد الرحمن أي خلفاءه لا سيطرة للشيطان عليهم ذلك كما أكّد لنا الله تعالى في قوله عز وجل: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ

---

[٤٨٠] البقرة ٢٥.

[٤٨١] ق ١٦ . ٢٣.

[٤٨٢] الأنبياء ٤٧.

[٤٨٣] سبأ ٣ . ٦.

يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤٨٤] فالقرب من الله تعالى يحفظ الإنسان من أي سوء قد ينزل به، فيكون في أمان من كل شر، ولذلك فعلى الخليفة أن يكون قريباً من ربه جل جلاله.

أولا: بالطاعات والدوام على العبادات وذكره والاستغفار لذنوبه والخشوع له، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٤٨٥]، وكذلك بحبه للرسول – صلى الله عليه وسلم– لقوله تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٤٨٦]، فيستحق بذلك أن يكرمه الله تعالى بالمغفرة والعفو.

ثانياً: من قربه لنفسه: وذلك بأن يحاسبها بشكلٍ مستمر، فيرقى بها عن المفاسد والرذائل، وأن يبني صداقة مع ذاتها بأن يتصارح معها ولا يخاف من مواجهة نفسه، بذلك يقودها إلى

---

[٤٨٤] الحجر ٣٢ . ٥٠.

[٤٨٥] الأنفال ٢ . ٥.

[٤٨٦] النساء ٥٩.

التفكير الجدي والعميق الذي سيصل به إلى خلافته في الأرض، ويستحق غفران الله تعالى له.

ثالثاً: قربه من أهله: وذلك بالإنفاق عليهم والإحسان إليهم فيكون شاعراً بما يصيبهم، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[٤٨٧]، وكذلك قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}[٤٨٨].

رابعاً: قربه من أبناء الأمة: من حق المسلمين على الخليفة أن يحسن معاملتهم وخطابهم، وأن يرفع الأذى عنهم ومعهم، وأن يعود مرضاهم ويدعو لأسراهم ويعلّم جاهلهم لتكون أمة كلها خير ومنه الخير لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٤٨٩].

فالله قريب من عباده وهو يخبرهم بذلك لكي يكون قربه منهم لمنفعة تعود عليهم كأن يراقب الإنسان نفسه وأن يشعر بالخجل من أي فعلٍ قبيح ينوي القيام به لمعرفته أن الله يراقبه فيتركه ويتوب، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}[٤٩٠].

الغفور هو الحي القيوم:

---

[٤٨٧] البقرة ٢١٥.

[٤٨٨] الإسراء ٢٣ . ٢٦.

[٤٨٩] آل عمران ١١٠، ١١١.

[٤٩٠] النساء ١١٠ . ١١٣.

عملية المغفرة لا تأتي وحدها دون أي سابق فلابد للإنسان من ذنب لكي تطلب مغفرة الغفور عز وجل، وهذا بالتالي يتطلب أن يكون الله قائماً على أمور العباد فلا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٤٩١]، فالعلم بالذنوب يتطلب الحياة والقيومية فيكون بذلك الحساب عادلاً، فيغفر لمن يستحق ويعاقب من يستحق، ونجد أن هناك نوعين من الاستغفار:

- استغفار من تفكيرٍ سيء: كسوء الظن أو الشك في غير محله أو التفكير في المحرمات وغيرها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}[٤٩٢].
- استغفار من عملٍ سيء: والأعمال السيئة والفاسدة عديدة منها الأعمال القولية مثل: التجسس والغيبة لقوله سبحانه وتعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[٤٩٣]، ومنها الأعمال القصدية مثل: الزنا والقتل العمد والغش في الميزان وأكل مال اليتيم لقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٤٩٤]

وكل من هذين الأمرين يتطلب غفران الغفور وعفوه بأن يقبل توبة التائب، وغفران الخالق عز وجل ليست لغفلةٍ منه بل على وعي تام وكامل بمجريات الأمور، وكيف لا يكون قائماً على العباد وهو خالقهم؟

---

[٤٩١] البقرة ٢٥٥.

[٤٩٢] الحجرات ١٢.

[٤٩٣] الحجرات ١٢.

[٤٩٤] الإسراء ٣٢ . ٣٦.

الغفور هو الودود:

من أروع صور حب الله تعالى ووده لنا هي التي تتجلى في غفرانه ذنوبنا وستره لنا، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض ليسعى فيها بالإصلاح والإعمار ولنشر الحق، فكان نزول سيدنا آدم عليه السلام وزجه إلى الأرض رغم اعتراض الملائكة على خلافته منذ البداية كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[٤٩٥]، وهنا تتجلى محبة الخالق للإنسان وتكريمه وذلك بالآتي:

١- اختياره أن يكون خليفة له في الأرض دون سائر المخلوقات الأخرى من جن وملائكة، فقد كرّم الله تعالى الإنسان باستخلافه في الأرض وهذا أمرٌ عظيم.

٢- طلب الخالق من الملائكة السجود لآدم بعد خلقه، فمن غير المعقول أن تطلب التكريم والتقديم لأحدٍ ما من غير أن تكون على صلة وثيقة مبنية على المحبة والود.

٣- تقديم المولى عز وجل العلم للإنسان بما يجهله الملائكة والجن، وفي هذا تفضيل من الله تعالى للإنسان ولا يكون التفضيل إلا عند تواجد الود، فقد كان بالإمكان أن يعلّم الله تعالى الملائكة أو الجن مثلاً ما علّمه للإنسان ولكنه فضّل هذا الإنسان.

ونستطيع أن نلاحظ ونستنتج بالمقابل بغض الشيطان للإنسان وحقده عليه في بقية الآية الكريمة السابقة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٤٩٦] إذ أنه لا وجود للود في رد الشيطان على أمر الله تعالى بالسجود لآدم بل إننا نجد البغض والحسد والكراهية والاستكبار، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ

---

[٤٩٥] البقرة ٣٠: ٣٣.

[٤٩٦] البقرة ٣٤.

صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[٤٩٧]، ففي هذه الآية الكريمة تتضح كراهية الشيطان للإنسان، وقد كان نتيجة ذلك استحقاق الشيطان غضب الله تعالى عليه وعدم مغفرته تعالى له على تكبره وعصيانه لأوامر الله تعالى.

فمن ذلك نستنتج أنه من الأمور التي لا يغفرها الله تعالى عدم إطاعة أوامره والاستكبار عنها، وهنالك الكثير من الآيات والأدلة التي توضح وتؤكد ذلك نذكر منها:

١- {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}[٤٩٨]، فبذلك الاستكبار عن أوامر المولى عز وجل استحق الشيطان لعنة الله تعالى عليه.

٢- {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}[٤٩٩]، فتكبر الإنسان وعصيانه وكفره لا يغفرها الله تعالى للإنسان.

---

[٤٩٧] الأعراف ١١ . ١٨.

[٤٩٨] الحجر ٢٨ . ٣٥.

[٤٩٩] النازعات ١٥ . ٢٦.

فعلى خليفة الله أن يكون متواضعاً خاشعاً مطيعاً لما أمره الله منفذاً لها كي يستحق مغفرة الخالق لذنوبه وإدخاله دائرة رحمته التي وسعت كل شيء، وإطاعة هذه الأوامر من شأنها أن تفتح باباً من أبواب المغفرة، ومن ضمن هذه الأوامر:

أ – إطاعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

فقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[٥٠٠]، فمن الآية الكريمة السابقة نجد أن من شروط وسمات حب العبد لله ورسوله هي الطاعة وإتباع أوامره عز وجل وإتباع رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم– وبهذه الطاعة يستحق هذا المؤمن حب الله ، وهذا الحب المتبادل من شأنه أن يجعل مغفرة الله قريبة ورحمته من هذا العبد كذلك، قال تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٥٠١]، فالرسول عليه الصلاة والسلام لا ينطق إلا بما علّمه الله تعالى فمن أطاعه فقد أطاع الله، وإطاعة الرسول الكريم أمرٌ من الخالق يُلْزم به كل من أراد مغفرته ورضاه، فلا يمكن أن نكون مسلمين دون أن نطيع رسولنا الكريم، وهذه الطاعة إذا كانت موجودة استحق الإنسان مغفرة المولى عز وجل في حال ارتكابه ذنباً أو خطأً يستوجب الاستغفار، وكذلك لابد أن يكون حب الله والرسول الكريم متقدّماً عن أي حبٍ آخر في قلب المؤمن وإلا فإن الطاعة لن تكون كاملة إذا نازع محبتهما محبةٍ أخرى وذلك مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[٥٠٢].

---

[٥٠٠] آل عمران ٣١، ٣٢.

[٥٠١] النساء ٥٩.

[٥٠٢] التوبة ٢٤.

فعلى خليفة الله أن يكون مطيعاً بحب وود لله ورسوله، ومحباً بطاعته لله ورسوله، ليستحق مغفرة الخالق عز وجل ورحمته به، فمغفرة المولى عز وجل للخليفة بالإضافة هي أكبر فوز ونجاح لهذا الخليفة.

ب- الإحسان إلى الوالدين:

تنفيذاً لقوله تعالى في كتابه الكريم: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}[٥٠٣]، يتضح لنا من الآية الكريمة السابقة مدى ارتباط توحيد الله تعالى وعبادته بالإحسان إلى الوالدين، ذلك أنه ما من مؤمنٍ غفر الله له وهو عاق لوالديه أو لأحدهما، بل وقد أمرنا الخالق عز وجل أن نحسن معاملتهما ونطلب لهما الرحمة لنكون مستحقين لرحمة الله تعالى ومغفرته، فحبنا وودنا لله تعالى لا يمكن فصله عن حب الوالدين والإحسان إليهما فيرضى عنا الخالق بهذا الحب.

ولا يمكن أن يكون من بين خلفاء الله في الأرض من هو عاقٌ أو مسيءٌ لوالديه أو لأحدهما، فبرهما والعطف عليهما من سمات خلفاء الله في الأرض.

ج – الإنفاق في وجوه الخير:

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[٥٠٤]، فقد وضّح الله تعالى كيفية الإنفاق الصحيح في الأماكن التي تستوجب هذا الإنفاق، وهذا الإنفاق مرتبط بحب الله وتوحيده ، فهي عملية مترابطة ببعضها البعض فإذا أحب العبد ربه فإنه لن يحب زينة الحياة الدنيا

---

[٥٠٣] الإسراء ٢٣: ٢٥.

[٥٠٤] النساء ٣٦ ، ٣٧.

كمثل حبه له تعالى، وهذا الحب يجعل منه زاهداً في متاع الحياة الدنيا الفاني ويحثه للبحث عن الخير الباقي الذي يجعله عباد الرحمن الذي رضي عنهم فغفر لهم وعفا عنهم، وهذا الإنفاق له أساسيات يجب أن يسير عليها المسلم تنفيذاً لما أمره الله به بعلمه المطلق وخبرته اللامحدودة.

وخليفة الله هو من كان حب الخالق عز وجل ورسوله مهيمنا على كافة أنواع الحب الأخرى سواء كانت زوجة أو أولاد أو أموال أو غيرها من متاع الحياة الدنيا الفاني، فلا يحرّكه إلا حبه لله فيدفعه لكل ما فيه خيره وصلاحه.

د- الصبر على البلاء:

امتثالاً لقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٥٠٥]، فمن الأمور العظام التي لا يستطيعها كل البشر هو الصبر عند حلول المصيبة أو البلاء كالمرض والموت ونقص الأموال أو الأولاد فكل هذه الصعاب تحتاج إلى عزيمة وإرادة وقبلهما إيمان قوي، والإنسان الصابر له درجة عالية عند رب العالمين وهذه الدرجة التي نالها برحمة الله وصبره تغفر له زلاته أو أخطائه، فكل البشر خطاؤون ولا يوجد من هو معصوم عن الخطأ، ولكن هناك فرق بين خطأ هذا الإنسان الصابر المحتسب أمره لله وبين الإنسان المتذمر الذي لا يصبر على قضاء الله وقدره.

وخليفة الله لا يمكن أن يكون عجولاً هلوعاً بل لابد أن يملك من الصبر ما يجعله مستحقاً لمغفرة الله تعالى ، فيثبت عند الشدائد ويصبر لحكم الله ويكون صبره لثقته بأن الله رحيماً به غفوراً له.

هـ- الجهاد في سبيل الله:

---

[٥٠٥] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

من أروع صور الحب والود بين الخليفة وبين الخالق عز وجل هي تقديم الروح والنفس في سبيل إعلاء كلمة الحق والدفاع عن ديننا الحنيف ورسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم – فيستشهد المؤمن لتتجدد حياته فور استشهاده كما جاء في قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[٥٠٦]، فالبشرى لا تكون إلا للأحياء، والرزق لا يكون إلا للأحياء أيضاً، فالمولى عز وجل كرّم هؤلاء الشهداء بتلك المنزلة الرفيعة من الجنة، وبالطبع من وصل إلى هذه المنزلة فقد استحق مغفرة الغفور على ما ارتكب من أخطاء صغيرة في حياته لأنه قدّم أغلى ما يملك في سبيل المولى عز وجل فإذا كان هذا حال المخلوق فكيف يكون جزاء الخالق؟.

فطوبى للشهداء الأبرار الذين اختاروا الدار الآخرة على الحياة الدنيا فاشتروا حب الله ليستحقوا بذلك مغفرته ورحمته بهم.

و– الالتزام بالعبادات:

لقد جاء رسولنا الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم– بالعديد من الأوامر الإلهية الواجبة على المؤمن إتباعها، وكذلك اشتمل القرآن الكريم على العديد من النواهي التي لابد من الابتعاد والنهي عنها، وكلما كان المؤمن ملتزماً بهذه الأوامر مؤدياً للعبادات استحق بذلك غفران الخالق سبحانه وتعالى، فمثلاً الالتزام بأداء الصلاة في مواقيتها تجعل من العبد قريباً من ربه يناجيه ويطلب منه ويستغفره فيقبل الله منه ويغفر له ما قد وقع فيه من أخطاءٍ في حياته الدنيا، كما جاء في قوله تعالى في كتابه الكريم: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

---

[٥٠٦] آل عمران ١٦٩ . ١٧١.

رَحِيمٌ}[٥٠٧] فكما جاء في الآية الكريمة السابقة من الأمور التي تُنزل مغفرة الخالق على المخلوق هي قراءة القرآن الكريم وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والقتال في سبيله تعالى والإنفاق في وجوه الخير والاستغفار المرافق لكل ذلك، فبالرغم من الأعمال العظيمة التي لابد أن يقوم بها المؤمن إلا أن الله تعالى قرنها بالاستغفار الذي يذكّر العبد بالغفور المطلق الذي لا حد لمغفرته، كما جاء في قوله تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٠٨].

فالخليفة لابد أن يكون ممن يؤدون ما فرض الخالق عليهم من عبادات، وهو محبٌ له راضٍ كل الرضا بذلك، لا يمل ولا يتكلف ولا يتذمر، لا يفعل ذلك من أجل هدفٍ دنيوي كما وصف المولى المنافقين في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[٥٠٩].

ع – التوبة الصادقة:

التوبة قوة من بلغها كان عليها ومن لم يبلغها كان على الضعف، ولذلك المؤمن على القوة وليس على الضعف. لقد خلق الله تعالى الإنسان وخلق الخير والشر، وقد كان الإنسان ضعيفاً أمام الحياة ومغرياتها فأحياناً يضعف وأحياناً لا، ولكن الضعف البشري نوعان هما:

أ– الضعف المؤقت:

هذا الضعف يصيب المسلم القوي الذي قد يضعف في لحظةٍ ولكنه يستدرك نفسه ويسارع إلى استغفار ربه والتوبة مما كان فيه، كما حدث لسيدنا آدم عليه السلام عندما أزله الشيطان ووسوس له كما جاء في قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

---

[٥٠٧] المزمل ٢٠.

[٥٠٨] المائدة ٣٩ . ٤٠.

[٥٠٩] النساء ١٤٢ . ١٤٣.

حَيْثُ شئتما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٥١٠]، وكذلك يكون الضعف المؤقت الذي يوقع الإنسان تحت سيطرة الشيطان الرجيم في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٥١١] فينجو بنفسه من الهلاك، هذا المسلم يحمل بين جنبيه ضميراً وقلباً يفيضان بالخوف من الله ومحبته والرغبة في رضاه، فيخرجه هذا الحب من هذا الضعف فيقوى ويستمد هذه القوة مما ذكرناه ، فيستغفر لذنبه ويتوب كما جاء في قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥١٢].

ج – الضعف المستديم:

هذا الضعف يصيب نفس من لا يحمل إيماناً قوياً، ولا يسكن حب الخالق قلبه بشكل يكفيه من الضياع والهلاك، فيسيطر عليه الشيطان الرجيم ويجعله ضعيفاً تائهاً ويستمر هذا الضعف لعدم توجهه لله تعالى والتوكل عليه، فيكون هذا الإنسان من معصية لأخرى، ومن مفسدة لغيرها، فتنقضي حياته دون أن يشعر وهو غارق في الملذات والرذائل، أولئك الذين قال الله تعالى عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[٥١٣]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ

---

[٥١٠] البقرة ٣٥ . ٣٧.

[٥١١] آل عمران ١٣٥، ١٣٦.

[٥١٢] الأعراف ١٥٣.

[٥١٣] آل عمران ٩٠، ٩١.

بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا }[٥١٤].

ولا تتحقق التوبة الصادقة التي تستحق غفران الخالق إلا بالتالي:

أولاً: ترك المعصية:

للخروج من الذنب إلى المغفرة فإن أول خطوة لابد أن تكون الإقلاع عن الذنب نفسه، فلا يغرق فيه مرة أخرى، بل يجب عليه أن يملك من العزيمة والإصرار ما يجعله كارهاً لفعله عازماً على عدم العودة إليه باقتناعٍ تام ورغبة في أن يرقى بنفسه عن الذنوب، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ثانياً: العزم على عدم الرجوع إليها:

لا يعني ترك الذنب أو الخطأ مؤقتاً أو ترك جزء منه فقط هي توبة توجب المغفرة، بل لابد أن يقلع نهائياً لا جزئياً عن هذا الذنب مع مصاحبة العزم على عدم العودة لذلك الذنب مهما كانت مغريات الدنيا وشهواتها.

ثالثاً: الندم:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٥١٥]، فلابد أن يكون الشعور بالندم على ما ارتكبه هذا الإنسان المذنب مصاحباً ومرافقاً لنفسه لصيقاً بحياته، إذ أن الندم هو أول علامات التوبة النابعة من القلب والموجبة للمغفرة.

ويعد الجهل من الأمور التي تجعل من توبة الإنسان مقبولة، أما العلم بذلك فإنه يكون حجة على الإنسان يوم الدين كما جاء في قوله عز وجل: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ

---

[٥١٤] النساء ١٣٧ . ١٣٩.

[٥١٥] الزمر ٥٣.

التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٥١٦]، فالآية الكريمة وضّحت بعض الأمور التي هي في بالغ الأهمية:

أولهما: الجهل.

أن الجهل بالذنب يجعل من التوبة مقبولة والمغفرة حاصلة.

ثانيهما: التوبة.

أن للتوبة زمنٌ محدد وهي أثناء حياة الإنسان بطولها ولكنها لن تفيد إذا واجه الإنسان الموت فتاب حين يحضره الموت.

ثالثهما: الإسلام.

وعليه فالتوبة لا تُقْبل من كافر.

والتوبة لابد أن تكون مقرونة بالعمل الصالح الذي من شأنه أن يرفع درجة المؤمن عند ربه، كما جاء في قوله تعالى في كتابه الكريم: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}[٥١٧]، فالآية السابقة تقرن التوبة المقبولة عند الله بالعمل الصالح وهذا دليل على أن التوبة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعها كل مخطئ وكل مسيء بل إنها تتطلب عزيمة وإرادة يدعمهما إيمانٌ ثابت. والعمل الصالح لا يمكن حصره في أعمالٍ معينة بل أنه يشمل كل عملٍ مقصده الخير والصلاح ، يُقْصد به وجه الغفور.

والمولى عز وجل ودودٌ بمغفرته وحث الإنسان للسعي وراءها، فقد قدّم المولى عز وجل جميع أسباب المغفرة للإنسان وفي هذا ودٌ واضحٌ من الخالق لهذا المخلوق الذي كرّمه تعالى عن كل المخلوقات، وقبوله التوبة من أكبر الأمور التي تدل على الغفور عز وجل هو ودودٌ بهذه المغفرة.

---

[٥١٦] النساء ١٧، ١٨.

[٥١٧] الفرقان ٧٠، ٧١.

لذلك فخليفة الله عليه أن يكون ودوداً مع من أساء إليه فلا يبادله الإساءة وإذا طلب منه المسيء العفو والغفران فلا يمنعها عنه ولا يجعل من قلبه مستودعاً للحقد والبغض.

والسعي في طلب المغفرة والعفو من المولى عز وجل من شأنه أن يصل بالإنسان المسلم والأمة الإسلامية إلى أعلى درجات الرقي والتطور، {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥١٨]، فمن الممكن التخيل إذا كانت هذه أخلاق كل المسلمين فكيف سيكون حالهم؟

الغفور هو الرحيم:

من صور رحمة المولى عز وجل بنا هي مغفرته لنا وقبوله توبتنا، وقد قرن الله تعالى بين المغفرة والرحمة في كثير من الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[٥١٩]، وقوله أيضاً: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٥٢٠].

---

[٥١٨] الحجرات ٩ ـ ١٤.

[٥١٩] يونس ١٠٧.

[٥٢٠] الحجر ٤٩.

والله الغفور برحمته يترك لنا الفرصة تلو الأخرى في كل مرة نخطئ فيها أو نرتكب ذنباً، فرحمة الخالق جعلت مغفرته متكررة لتكرار الذنب، وإلا إذا تصورنا أن مغفرة المولى عز وجل لا تأتي للعبد إلا مرة واحدة لما كان لعبد أمل في دخول الجنة والفوز برضا الخالق.

ومن رحمته أيضاً المتجلية في غفرانه أنه يغفر للإنسان ما ارتكبه قبل أن يدخل الإسلام فلا يحاسبه عليه بل يبدأ حسابه له بعد دخوله الإسلام واعتناقه الدين الحنيف، وكذلك من صور رحمته الرائعة أنه لا يعجّل العقاب فور وقوع الذنب بل يترك الفرص للتوبة والرجوع للحق بالاستغفار والندم كما جاء في قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}[٥٢١]، فمن رحمته ترك الوقت للإنسان وإعطائه الفرص للتوبة ونيل غفران الله تعالى.

الغفور هو الستار:

مغفرة الذنوب نوعٌ من الستر ينعم الله تعالى به على عباده المستغفرين، فالخالق عز وجل عندما يغفر للمسلم ذنبه فهو بذلك يستره يوم يقوم الحساب، فالغفور سبحانه وتعالى يغفر أي يستر ويُخفي خطيئة العباد، فالعبد المخطئ حينما يتوب إلى الله تعالى ويتراجع عن ما قام به من خطايا وذنوب لا يجد سبيلا إلا أن يدعو الغفور العظيم المسئول عن حسابه بأن يسامحه ويغفر له إضافة إلى أن الله يجعل من ذلك سراً فلا يعلم به سواه عز وجل فهو العالم بذنوب عباده وهو العليم بالتائبين والمستغفرين ، وبهذا فإن هذا الستر بالمغفرة يجعل من العبد مستشعراً بالأمان لثقته بأن الله عز وجل لن يفضحه في ذنبه هذا، في حين أنه لو أفضى هذا الإنسان ما قام بارتكابه من ذنب لإنسان آخر فإنه بمجرد الانتهاء من الشكوى يملؤه الخوف من إفشاء سره وانتشاره بين الناس من ذلك الإنسان، وهذا من دواعي أن لا يتجه العبد إلا لخالقه الستار الغفور فلا أمان والثقة والحماية عنده هو الستار الكريم، وهذا الأمان يدفع العبد لمزيد من التعلق والارتباط بالخالق عز وجل الغفور ويزداد قرباً ورضا عندما يتذوق حلاوة الطمأنينة التي تبعثها هذه الثقة، فيحب الستر له ولغيره وبحبه للستر من عند

---

[٥٢١] الكهف ٥٨.

الله فإن ذلك يكون دافعاً له أن يستر على المسلمين، كما جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي –صلى الله عليه وسلم– قَالَ "لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٥٢٢].

ولو أن كل فردٍ منا تعلم ذلك الدرس وساعد الآخر على العودة عن ذنوبه وأخطائه بالنصح والإرشاد والدعم المعنوي والتذكير بالعقاب الرباني، وأن يستر غيره من العباد فإن ذلك يدعّم الثقة بينهم وتقوّي أواصر المحبة والإخاء بين البشر، وتلك غاية ينشدها كل مجتمع وكل ديانة والكل لا يعلم كيف السبيل لذلك احياناً، إنَّ الوصول لذلك ببساطة شديدة هو بالفهم والوعي الكامل لاسم الغفور الذي لا نستطيع الحصر الكامل لمعانيه فهو أكبر من قدرتنا البشرية على استيعابه بالشكل التام والكامل.

إذن فاسم الغفور يمدنا بالإيمان الكامل والثقة والطمأنينة التامة فتمتلئ النفس بالراحة والطاعة والخضوع للغفور المطلق الذي يستر العيوب ويغفر الخطايا.

والغفور سبحانه وتعالى يستر كل قبيح في الإنسان وقد دعا إلى أن يستر المسلمون بعضهم بعضا فيكونون رداءً يستتروا به كما جاء في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم– "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"[٥٢٣]، فمن ضمن أخلاق وصفات الخليفة الحق في الأرض أن يكون ستَّاراً لأخيه المسلم فيغفر له دون التشهير به، فكما أن الخليفة يحب أن يُغْفَر له ويُسْتَر عليه فكذلك يجب أن يَغْفِر ويَسْتُر كما

---

[٥٢٢] صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢١.

[٥٢٣] صحيح مسلم، ج ٨، ص ٧١.

جاء في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥٢٤]

فمن الآية الكريمة السابقة نجد أن:

أولاً: أن مغفرة وعفو وستر العباد المسلمين على بعضهم البعض هو أمرٌ من الله تعالى، وهذا يدل على أهمية وقيمة ذلك في المجتمع المسلم وما له من تأثيرات إيجابية في بناء مجتمع مسلم سليم وقوي وإلا لما كان أمر الله بذلك.

ثانياً: تعويد المسلم على الإحساس ببعضهم البعض فالذي يحبه المسلم لنفسه عليه أن يحبه لغيره، فإذا أحب المسلم أن يغفر له الله تعالى عليه أن يحب أن يُغفر لأخيه المسلم.

ثالثاً: أن غفران العباد المسلمين لبعضهم البعض في الدنيا سبب لمغفرة الله تعالى في الآخرة، وهذا بحد ذاته دافع لتزايد روح المحبة والترابط بين المسلمين.

وهذا يجعلنا نشعر بالخجل من أن نفضح حين يجب أن نستر، وأن نكون على يقين بأن الله يرانا، فالخليفة لابد له من أن يحاول ستر عيوب وأخطاء الغير من البشر سواء كان قريباً أو بعيداً هذا المخطأ عنه، وأن لا يتجه سوى لله عز وجل وكله ثقة وإيمان بأن الله لن يخذله عندها لن يلجأ لأي مخلوقٍ آخر، فيُسْتَر ويَسْتُر.

والغفور سبحانه وتعالى بغفرانه وستره لذنوب عباده يخاطب الخليفة بأن يكون متعالياً عن تصيّد أخطاء الغير وفضحها وإشهارها، وأن يرقى عن نواقص الغير بل عليه أن يعين الآخرين على الترفع عن ذلك وأن يملأ قلبه تسامحاً ومغفرةً وأن يكون متفهماً لدوافع الغير وشخصياتهم المختلفة من شخص لآخر، وأن لا يجعل من علمه بذنب إنسان سيفاً مسلّطاً على رقبة ذلك الشخص ، فيكون بذلك محل ثقة واطمئنان وستر للغير ، فيكون هذا الخليفة داعياً لمجتمع إسلامي منظّمٍ خالٍ من الخوف والتوتر تكون الثقة عنوانه، بذلك تنمو العلاقات الإنسانية الوطيدة بين العباد التي تكون حافزاً لكل فرد بأن يتخلص من عيوبه بستر عيوب غيره فلا يطارده الخوف من إنسانٍ آخر يعرف ما يعرفه عنه .

---

[٥٢٤] النور ٢١.

الغفور هو العليم

إن مغفرة الغفور المطلق ليست عشوائية بل هي عن علمٍ مطلق بالبشر وبمن يستحق هذه المغفرة، فليست المغفرة درجة واحدة بل هي درجات كما أن الذنوب درجات، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٥٢٥] .

ومغفرة الغفور المطلق ليست عن غفلةٍ بل هي عن علمٍ مطلق بكل شي بمن يتوب حقاً ومن يستحق مغفرته ومن لا يستحقها، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٢٦]

الغفور هو القادر:

من ثمرات الإيمان بهذا الاسم:

١- اللجوء إلى الله تعالى:

فالإنسان بطبعه دائم الخطأ ولما كان كذلك فهو يحتاج لطلب المغفرة والسماح والستر من خالقه عز وجل، فلا يجد المسلم العاقل من هو أقرب من الله تعالى لمناشدته الغفران، فلا يملك هذا الأمر إلا هو وهذا أساس اللجوء إليه تعالى، فلا غفور سواه يغفر لنا ويتوب علينا، ومن هنا يدرك المؤمن الحق أنه لا ملجأ له سوى المولى عز وجل فيناشده بالدعاء والرجاء بأن يقبل دعاءه، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ

---

[٥٢٥] النساء ٩٥، ٩٦.

[٥٢٦] المائدة ٣٩ ، ٤٠.

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٥٢٧].

٢- التوكل عليه:

لا فلاح لمؤمنٍ دون أن يتوكل على الخالق عز وجل، واسم الغفور يحمل بين طياته معنى التوكل، كيف ذلك؟

إن الغفور المطلق لم يضع حداً لغفرانه طالما التوحيد يسكن قلب المؤمن وهذا يدعو المؤمن لأن يكون في توبته متوكلاً على الله في غفرانه لما قام به من ذنوب وسيئات.

٣ . الأمل المتجدد في النفوس:

كلما ذُكِر اسم الغفور تزايد الأمل في النجاة في قلوب المؤمنين، فما من مؤمن إلا ارتكب سيئة أو ذنب لذلك فجميع المؤمنين يسعون لغفران الغفور المطلق وكلهم أمل في نيل ذلك الغفران لأن من ضمن أسمائه التي سمى نفسه بها الغفور.

فالمغفرة تفتح باب الأمل للمذنبين قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[٥٢٨]

٤. نشر المحبة والرحمة والتسامح في المجتمع المسلم:

من توصل إلى حب الله ورسوله وقدمّ حبهما عن ما سواهما فقد امتلأ قلبه بالحب والخير ولا مكان فيه للبغضاء والضغينة.

واسم الغفور يُعتبر درساً للإنسان الذي استخلفه الغفور المطلق في الأرض فهو يعلّمنا أنه أكبر من أن يعذّب عبداً ما بسبب خطأ تراجع عنه وندم عليه وطلب المغفرة وتاب ، وهذا بحد ذاته يعطي البشرية جمعاء درساً حيث أن الله استخلف الإنسان في الأرض ولكنه لم يتركه دون أن يعلّمه كيف يكون خليفة ، وتقبّل هذا العلم والعمل به هو من أساسيات أن يكون خليفته تعالى، ولله المثل الأعلى فمثلاً رب الأسرة عندما يكون أباً فإنه يسارع في تعليم

---

[٥٢٧] آل عمران ١٣٣ . ١٣٦.

[٥٢٨] الزمر ٥٣.

أبنائـه كيف يجب أن يكونـوا بتوضيحه لهم طـرق الخير والصـلاح من الشر والفساد، لكـي يكبروا على ذلك، وكذلك القائد العسكري فإنه يعلم على تدريب أفراد مجموعته على كل ما يمكن أن يفيدهم ويمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أرضـهم فيكسبوا المعركة بقوة عزيمتهم وثباتهم، وأيضاً الأستاذ الناجح هو من يعطي تلاميذه كل ما هو مفيد وأساسي في حياتهم العلمية والعملية على حدٍ سواء ليتخرجوا طلبة يعتمدون على أنفسهم فيحسنون التعامل مع متغيرات الحياة بقلبٍ قوي وعزيمة وإيمان، والخالق عز وجل بما أنه العليم المطلق والخالق الأوحد والخبير بعباده فإنه يعطي لكل إنسان مقدار من العلم هو ما يحتاجه ويخصص له درساً يحتاج إليه ليسمو هذا الإنسان بنفسه ويرقى عن الرذائل، ويترفع عن أخطاء من حوله وهذا له الانعكاس الرائع المثمر على تركيبته النفسية والشخصية ليصبح بحق خليفة الله في الأرض، ولو أن كل فردٍ استوعب هذا الدرس في هذه النقطة فقط لوجدنا أن كل فرد هو بحق إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولكنا قد وجدنا لغة التخاطب الوجداني البشري عالية ليكون مجتمعنا المسلم قد حقق نموذج المجتمع الفاضل الذي دعا لوجوده الخالق عز وجل وبعث الرسل والأنبياء كي يدعوا لهذا المجتمع، إذ أن هذا المجتمع جاء وصفه في آخر الكتب السماوية في قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[٥٢٩]، فالأمة الفاضلة ليست بخيال أو وهم ولكنها من الممكن أن تخرج للدنيا حينما نصل لفهم وعمق معنى أنه سبحانه وتعالى الغفور حينها نتوصل إلى الكيفية أو الوسيلة لإصلاح الكثير من أوجه حياتنا وأدوارها، فمثلاً الوالدان يقومان بكل ما عليهما من واجبات ويعطيان كل ما يملكان للأبناء ويقع على عاتقهما توضيح الصواب من الخطأ في الحياة والخير والفساد، وفي بعض الأحيان نجد أن أول ما يخطئ الأبناء يكون خطأهم في حق هذا الوالدان ، فهل يا ترى الوالدان بدورهما يغلقان قلبهما عن السماح والغفران؟

---

[٥٢٩] آل عمران ١١٣ . ١١٥.

أبداً بل أننا نجدهما مستمران في العطاء فيعطيان بذلك الفرص للأبناء للتراجع والندم وكلهما أمل في أن يرجع الابن عن هذا الخطأ ويندم ويدرك ما هو الخير والصلاح له هو لأن في ذلك سوء العاقبة لهذا الابن إذ أن الخالق أوصانا بهما خيراً في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}[٥٣٠]، وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[٥٣١]، فالإساءة إليهما تعود بالضرر على الأبناء أولاً وقبل كل شيء، فمسؤولية الوالدين على الأبناء تمنحهما حق السماح والمغفرة فإذا كان هذا حالنا نحن عباد الغفور الرحيم فما بلك بالله الغفور الرحمن الرحيم؟

والخليفة يرى في اسم الغفور نبراساً يدله على الخير والإحسان، فيكون متسامحاً ساتراً لغيره وهكذا تصبح لدينا معادلة على المستوى البشري سليمة الطرفين، الطرف الأول الشخص الذي أخطأ في حق نفسه أو غيره والطرف الآخر هو الذي وقع عليه الخطأ، فحين يتوب ويعترف الطرف الأول يجد تسامحاً وغفراناً من الطرف الثاني.

والاستغفار يعود على الإنسان بالتالي:

أ- تفريج الكرب:

كما جاء في قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٥٣٢]، ففي الآية الكريمة السابقة يتضح أنه من أهم أسباب تفريج الهم

---

[٥٣٠] الإسراء ٢٣ . ٢٥.

[٥٣١] النساء ٣٦.

[٥٣٢] الأنبياء ٨٧، ٨٨.

والكرب الاستغفار الصادق الذي يخرج من الإنسان المؤمن حين وقوعه في الخطأ فيفتح الله عليه بتفريج كربه ونجاته من الهم والضيق.

ب- فتْح باب النعم:

كما جاء في قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[٥٣٣]، وكذلك قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٣٤]، فالاستغفار يفتح باب النعم من الخالق على خلقه المستغفرين لاستحقاقهم هذه النعم باستغفارهم وتوبتهم، فالنعم من أحد الأبواب التي يفتحها الاستغفار فتصيب الإنسان المستغفر، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}[٥٣٥].

ج – النجاة من العذاب:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[٥٣٦].

د- استحقاق الجنة:

لقوله تعالى في كتابه الكريم: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}[٥٣٧]، فمن ضمن أسباب دخول المسلم الجنة استغفاره الذي يقرّبه من الخالق عز وجل.

---

[٥٣٣] هود ٥٢.

[٥٣٤] هود ١ . ٤.

[٥٣٥] نوح ١٠ . ١٢.

[٥٣٦] الأنفال ٣٣.

[٥٣٧] الذاريات ١٥ . ١٩.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون من أوائل المستغفرين، دائم الاستغفار في الحياة فلا ينشغل بالدنيا عن استغفاره ليستحق أن يستخلفه المولى عز وجل في الأرض، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٥٣٨].

فالاستغفار واجبٌ على الخليفة وهو أصل التوبة والتقرب للمولى عز وجل، فلذلك على هذا الخليفة أن يستغفر لنفسه وللمسلمين.

ولكن متى يكون الاستغفار مقبولاً ومتى يكون مرفوضاً؟

الاستغفار يكون مقبولاً إذا كان صادراً عن شخصٍ مسلم تائب يسعى للرجوع للحق، كما جاء في قوله عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٥٣٩].

أما الاستغفار غير المقبول فيكون في حق الكافرين والمنافقين كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

---

[٥٣٨] آل عمران ١٣٥، ١٣٦.

[٥٣٩] آل عمران ١٥٥.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[٥٤٠]، والنفاق من شأنه أن يكون مانعاً لحلول مغفرة الخالق على العبد كما جاء في قوله تعالى: {ذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[٥٤١].

إن مغفرة المولى عز وجل تسع كل شيء، وللظلم درجات كما للمغفرة درجات:

فإذا كان الإنسان ظالم قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ}[٥٤٢] فتاب سيجد الله تعالى غافر لذنبه كما في قوله تعالى: {حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [٥٤٣].

وإذا كان الإنسان ظلوماً كما في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٥٤٤] فسيجد الله تعالى غفوراً كما في قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٥٤٥].

وإذا كان الإنسان ظلّام كما في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}[٥٤٦] فسيجد الله تعالى غفّار للذنوب كما في قوله عز وجل: {فَقُلْتُ

---

[٥٤٠] التوبة ٧٣ . ٨٠.

[٥٤١] المنافقون ١ . ٦.

[٥٤٢] فاطر ٣٢.

[٥٤٣] غافر ١ . ٣.

[٥٤٤] الأحزاب ٧٢.

[٥٤٥] النساء ١٠٦.

[٥٤٦] الزمر ٥٣.

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}[٥٤٧]، فمن رحمة الله ووده بالإنسان أنه مهما تكاثرت ذنوبه وزادت سيجد الله عند توبته ذو مغفرة واسعة، فالظالم لنفسه ولغيره إذا تاب وأناب وجد الله غافر له، وإذا كان الإنسان ظلوماً وجد الله غفوراً، أما إذا كان ظلّاماً أي أنه أسرف في الذنب فسيجد المولى عز وجل غفّاراً، فكلما كان الذنب كبيراً كانت مغفرة الخالق عز وجل أكبر وأعم حين توبته فكيف لا يكون كذلك وهو الغفور الرحيم؟ قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}[٥٤٨]، فالإنسان بجهله يتدرج في الظلم والخالق برحمته يزداد في المغفرة إلى ما لا نهاية فلا حد لمغفرته، في حين أن ظلم الإنسان محدود في علم الله تعالى فلا يتجاوز قدر معين، فالمغفرة من عند المولى عز وجل تغلب على كل الذنوب طالما كان الإنسان بعيداً عن الشرك به، كما جاء في قوله عز وجل في كتابه الكريم: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}[٥٤٩]، فالشرك بالله تعالى يحجب مغفرته تعالى عن الإنسان الذي لا يوحد الخالق فيموت على كفره وشركه.

لذلك فإن الخليفة من كان متسامحاً غافراً لخطيئة من حوله، لا يُظْهِر إلا كل جميل فيمن حوله ويستر قبيحهم، ويدرك أن الله تعالى هو الغفور الذي يغفر ذنوب عباده وحده فكما أن الخليفة يحب أن يغفر الله له فيجب أن يغفر لغيره.

وهذا الاسم يعلّم الخليفة الحكمة على الأرض فلا يعجّل برد فعلٍ مماثل للفعل الذي يتلقاه، وأن يصبر ويترك المجال للإصلاح، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ

---

[٥٤٧] نوح ١٠.

[٥٤٨] الحجر ٥٦.

[٥٤٩] النساء ١١٦ . ١٢١.

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [٥٥٠]

فالآية الكريمة السابقة فيها قانون لو عملت به البشرية لوصلت إلى السعادة والأمان وذلك بالتالي:

أ- لا يتجاوز الإنسان الحد المشروع له في رد الإساءة، فلذلك قانون هو: أن لا يكون الرد بشيءٍ أكبر وأعظم، أي أن يكون العدل في استرداد الحقوق.

ب- إن العفو والغفران أفضل درجة عند الله من معاقبة بعضنا بعضا.

ج - لا حق لإنسان بظلم إنسان آخر وسلب حقوقه.

د- إن الصبر على الأذى ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه أي كان من البشر، بل هو أمر عظيم وشاق على النفس البشرية، لذلك كانت لهم البشرى في الدنيا والآخرة عند رب العالمين كما جاء في قوله تعالى للصابرين: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[٥٥١].

هـ- إن المغفرة تأتي مع الصبر فلا يمكن لإنسانٍ عجول متهور أن يغفر ويعفو، فالصبر يضيء العقل في التفكير الصائب ولا يجعل للشيطان سيطرة على هذا الإنسان الصابر.

وهذا كله يعطي حافزاً للخليفة ليأخذ خطوة المبادرة للإصلاح وتقديم العفو والمغفرة في نفسه عن الانتقام والعقاب، بما أن الله تعالى أعطاه الفرصة لذلك ووضّح له قانون الخلافة الحق، وهذا عامل مساعد على أن يكون الخليفة فرداً فعّالاً إيجابياً صالحاً متوازناً، لأنه يحمل في قلبه دائماً نقطة ضوء ونور وخير لابد من أن نتعاون نحن المؤمنون لكي يوسّعها ونثبّتها، فتصبح أكبر حجماً لتعُم قلبه وتسكن روحه بالكامل ، فالفرصة هنا التي أُعْطِيت للخليفة

---

[٥٥٠] الشورى ٣٩ . ٤٣.

[٥٥١] آل عمران ١٤٢.

تجعله يسلك مسلكاً واضحاً وصائباً في الحياة وهو درب العفو والخير والمحبة والإخاء، وأن يكونوا أسوة حسنة لغيرهم من البشر.

بذلك يتم تدريب الخليفة على أن يسير بما يرضي الله تعالى في الحياة فلا تعرف القسوة طريقاً لفؤاده، ولا يتمادى في معاقبة الظالم أو المسيء، فيتعلّم ويعلّم غيره على أن لا نأخذ الفرد بذنبه فور تمكننا من ذلك، بل نعطيه الفرص لكي يتراجع ويندم وأن يترك ما هو فيه، فيكون الخليفة قد أخذ بيد أخيه المسلم وستر عيوبه ومد له يد الأخوة والمحبة وهذا بحد ذاته كافٍ لكي يكون لدى المسلمين أفضل مجتمع يستند على أروع وأنبل القوانين التي تسيّر حياتهم بالعدل والخير والمعروف.

ولابد للخليفة أن يكون له في رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أسوة حسنة عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[٥٥٢]، فإذا كان هذا حال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهو خير الأنام والذي علّمه الله وأحسن أدبه كما في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٥٥٣]، فكيف يكون حالنا نحن عباد الله الخطاؤون الذين يقعون في السيئة تلو الأخرى؟

لذلك فالاستغفار يفتح باب المغفرة وقبول التوبة، فليستغفر عباد الرحمن مهما كان الخطأ صغيراً فالغفور يحب أن نتقرب إليه بالاستغفار والطاعة، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}[٥٥٤]، هذه هي صفات عباد الرحمن الذين رضي الله عنهم فغفر لهم ما تقدم من ذنوب وقبل توبتهم وأسكنهم جناته، وهم الخلفاء يسعون في الأرض بالإصلاح والخير ويحاربون الفساد والرذيلة ولا يحبون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين، فليغفر كل ذي مقدرة وكل إنسانٍ يأتمر بأمره عددٌ من الخلق، فلا

---

[٥٥٢] معجم المناهي اللفظية، ج ٣١، ، ص٧.

[٥٥٣] القلم ٤.

[٥٥٤] الذاريات ١٥ . ١٩.

يكون قاسياً بل رحيما كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٥٥٥]، فالاستغفار هو مطلب من الغفور المطلق للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأهميته بين المسلمين، فلنغفر لبعضنا البعض ونعفو فيغفر لنا الله تعالى ويعفو عنا.

إن الغفور المطلق يحب أن يغفر لنا وكيف لا وهو الغفور الرحيم الذي يحب أن يسمع عباده التوابين الذين يتضرعون إليه ويرجون مغفرته، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[٥٥٦].

فالمغفرة صفة من صفاته عز وجل التي تقرّب العبد منه فلولا الخطأ ما كانت التوبة ولولا التوبة ما استحققنا مغفرة الغفور، وهذا بحد ذاته يجعل الأمل يضيء صدر كل مذنب خائف من عقاب المولى طارداً اليأس بعيداً.

لأننا مؤمنون فإننا واثقون من أن الغفور يحب أن يغفر لنا وبغفرانه نتطهر من ذنوبنا وبطهارتنا منها نستطيع أن نكون من عباده أصحاب النعيم.

اللهم يا من سميّت نفسك بالغفور نسألك المغفرة، لا ملجأ لنا سواك ولا أمل ولا رجاء لنا إلا فيك أنت يا الغفور أن تغفر ذنوبنا، اللهم إننا نشهد أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر، واجعلنا نملك المقدرة على المغفرة والسماح ولا تجعلنا حاقدين على من يصلح في الأرض ويفلح واجعل على الأعمال التي تمكننا من الفوز بمغفرتك يا الله.

اللهم إنك الغفور العظيم بمغفرتك تغفر الذنوب لمن تشاء من عبادك فاغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا وفرج كربنا وأنر دربنا وارحمنا بدوام المغفرة يا الله.

---

[٥٥٥] آل عمران ١٥٩.

[٥٥٦] صحيح مسلم، ج ٨، ص ٩٤.

اللهم إننا نستغفرك ونعود بك من كل شر ومن كل بلاء فاغفر، اللهم إنك الغني بالمغفرة ونحن الفقراء فاغفر، اللهم ما إنك مالك الرحمة فلا تجعل ذنبا من ذنوبنا يحول بيننا وبينها وأنت الغفور الرحيم.

اللهم إننا نعلم أنك أنت الغفور الرحيم فلا نلتجئ إلا إليك، ونؤمن إنك أنت الغفور الرحيم فلا نركع ولا نسجد إلا إليك، ونعلم أنه من ظلم نفسه وأستغفرك تغفر، اللهم إننا نسألك المغفرة فاغفر.

اللهم يا الغفور يا من جعلت الملائكة يُسبِّحون بحمدك ويستغفرون لمن في الأرض فاجعل بيننا وبين استغفار ملائكتك صلة واجعلنا من المسبحين والمستغفرين في الأرض باسمك الغفور.

اللهم يا الغفور قلت وقولك الحق: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} اللهم إننا نسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر جميع ذنوبنا يا الغفار يا الله.

اللهم يا الغفور إنَّ بطشك لشديد وإنك تُبْدِئُ وتُعيد وإنك الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد فاغفر لا غفَّار للذنوب إلا أنت.

الشَّكُورُ

الشكور "هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة ومن أثنى على المحسن أيضا يقال إنه شكر فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله عز و جل"[٥٥٧].

الشَّكُورُ "هُوَ الَّذِي يَشْكُرُ الْيَسِيرَ مِنَ الطَّاعَةِ ، فَيُثِيبُ عَلَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الثَّوَابِ ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النِّعْمَةِ ، فَيَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِنَ الشُّكْرِ ، قَالَ : وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالشَّكُورِ تَرْغِيبُ الْخَلْقِ فِي الطَّاعَةِ"[٥٥٨].

قبل أن ندخل في عالم الاسم الشكور ونستكشف بعضاً من أسراره وأنواره ننظر في اللغة لنرى مدلول الاسم على الخالق البارئ الذي له الاسم الشكور بالأصل، وعلى المخلوق الذي له الاسم الشكور بالفيض من الله بحسن السير على المنهج الذي ارتضاه الله لعباده من الأنبياء والصالحين الذين أعدهم للخلافة في الأرض وكذلك من اتبعهم بإحسان منذ ظهورهم إلى يوم الدين ليكون نور الاسم هاديا لمن أراد شكورا.

---

[٥٥٧] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٥.

[٥٥٨] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١٧٩.

ويندرج تحت الاسم الشكور الاسم الشاكر ويعني في ذات الوقت الخالق والمخلوق فالله له الشكر على وجه الكمال والعبد له الشكر على وجه المثال، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكرا ثم يجتهد في الشكر فيكون شكورا، ويتجلى الله على العبد بالتوفيق فيعمل شاكرا وشكورا وينال بذلك الرضا من الله الشكور.

الشَّكُورُ لُغَةً:

(شكر) الشُّكْرُ عِرْفانُ الإِحسان ونَشْرُه وهو الشُّكُورُ شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْراً وشُكُوراً وشُكْراناً. وحكي اللحياني شكرت الله شكرت لله وشَكَرْتُ بالله وكذلك شكرت نعمة الله وتَشَكَّرَ له بلاءَه كشَكَرَهُ وتَشَكَّرْتُ له مثل شَكَرْتُ له[٥٥٩].

والشُّكْرُ لا يكون إِلاَّ عن يَدٍ والحَمْدُ يكون عن يد وعن غير يد فهذا الفرق بينهما والشُّكْرُ من الله المجازاة والثناء الجميل. والشكر عن يد وغير يد في حق العباد ولا يجب في حق الله لأنه لا يد لأحد على الله فالله صاحب النعم وموجدها لذا فالشكر منه عطاء صرف وإن بذل العبد قصارى جهده في العمل من أجل الثواب فلله الفضل والمنة في التوفيق لعمل الخير ولله الفضل والمنة في قبوله والثواب عليه[٥٦٠]. ورجل شَكورٌ كثير الشُّكْرِ وفي التنزيل العزيز (إِنه كان عَبْداً شَكُوراً). والشَّكُور من صفات الله جل اسمه ومعناه أَنه يزكو عنده القليلُ من أَعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء وشُكْرُه لعباده مغفرته لهم.

وأَما الشَّكُورُ من عباد الله فهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأَدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته وقال الله تعالى {اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْراً وقليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ}[٥٦١]. نصب شُكْراً لأَنه مفعول له كأَنه قال اعملوا لله شُكْراً وإِن شئت كان انتصابه على أَنه مصدر مؤكد والشُّكْرُ

---

[٥٥٩] لسان العرب، ج ٤ ، ص ٤٢٤

[٥٦٠] لسان العرب، ج٤ ، ص ٢٢٤ .

[٥٦١] سبأ ١٣.

مثل الحمد إلا أَن الحمد أَعم منه فإِنك تَحْمَدُ الإِنسانَ على صفاته الجميلة وعلى معروفه ولا تشكره إِلا على معروفه دون صفاته.

والشُّكْرُ مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثني على المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أَنه مُولِيها وفي الحديث عَنْ النَّبِيِّ قَالَ صلى الله عليه وسلم : ({لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ}[٥٦٢]. معناه أَن الله لا يقبل شكر العبد على إِحسانه إِليه إِذا كان العبد لا يَشْكُرُ إِحسانَ الناس ويَكْفُر معروفَهم لاتصال أَحد الأَمرين بالآخر وقيل معناه أَن من كان من طبعه وعادته كُفْرانُ نعمة الناس وتركُ الشُّكْرِ لهم كان من عادته كُفْرُ نعمة الله وتركُ الشكر له وقيل معناه أَن من لا يشكُر الناس كان كمن لا يشكُر الله وإِن شَكَرَهُ كما تقول لا يُحِبُّني من لا يُحِبُّك أَي أَن محبتك مقرونة بمحبتي فمن أَحبني يحبك ومن لم يحبك لم يحبني. والشُّكْرُ الثناءُ على المُحْسِنِ بما أَوْلاكَ من المعروف يقال شَكَرْتُه وشَكَرْتُ له وباللام أَفصح وقوله تعالى: {لا نريد منكم جزاءً ولا شُكُوراً}[٥٦٣] يحتمل أَن يكون مصدراً مثل قَعَدَ قُعُوداً ويحتمل أَن يكون جمعاً مثل بُرْدٍ وبُرُود وكُفْرٍ وكُفُورٍ والشُّكْرانُ خلاف الكُفْرانِ.[٥٦٤]

لذا فالخليفة الحق يجب أن يذيب نفسه تفانياً في شكر ربه وهذا التفاني يكون بالعمل أي بجوارح الإنسان جميعها باليد واللسان والقدم والعين والسمع وغيرها من جوارح وإن أردنا أن نزيد ذلك إيضاحاً قلنا باليد لا تسرق ولا تسمح لغيرها بالسرقة ولا تبطش بضعيف ولا تسمح لغيرها بذلك وأن تبني وتعمر ولا تهدم ولا تخرب حتى تكون أداةً في خدمة الخليفة وهنا يتجلى الله عليه كما في الحديث القدسي.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ

---

[٥٦٢] سنن آبي داود، ج ٤، ص ٤٦٣.

[٥٦٣] الإنسان ٩.

[٥٦٤] لسا ن العرب، ج٤، ص ٢٢٤

حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا"[٥٦٥]. وهذا جزاء من استعمل الجوارح في الشكر، ثم يزيد على ذلك أن يجعل لسانه ذاكرا لله متحدثاً بنعمه مصداقا لقوله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث}[٥٦٦]. وهذا الأمر لسيد الشاكرين الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيقابل ذلك الفضل العظيم من الله بأن يتفانى في شكر ربه عملا وقولاً ونيّةً، وعليه فمن أراد أن يكون له حظ في الخلافة فعليه بالشكر عملاً وقولاً ونيّةً للنعم التي أفاضها علينا المنعم وذلك بعبادته وإخلاص العبادة له بتوحيده وتمجيده، وبمقابلة النعمة التي أسداها إلينا بعض الناس بشكرهم لأن ذلك من شكر الله فلولا الله المنعم الأصلي ما وصلت إليهم تلك النعم وبالتالي ما وصلت إلينا وهنا يكون شكر الناس جزء من شكر المنعم الحقيقي وهذا الشكر بالثناء على أصحاب الأفضال من أنبياء وعلماء وآباء ومصلحين وقادة صالحين فيتحول الكون إلى منظومة متناغمة من الشكر والحب من الأدنى للأعلى وزيادة العطاء من الأعلى للأدنى، وهنا تحيط بنا أنوار الاسم الشكور وتتحقق الرتبة الشكورية في الخلق فيضًا ومن الله عطاءً ورحمةً وزيادةً فضل.

والخليفة هو المتخلق بتلك الصفة الحميدة في الظاهر والباطن وهو من يسعى لشكر الله على نعمه بالجوارح الظاهرة كاليد والقدم واللسان وهذا عمل الظاهر ويدخل فيه إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد وسعي بين الناس بالإصلاح وقضاء حوائجهم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وحث وتحريض علي الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا تصديقا لقوله تعالى: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[٥٦٧] لذا فالعمل شكرا لله من أفضل الأعمال الظاهرة والباطنة التي تطلب إخلاص النية لواهب النعم عز وجل فكما يكون الشكر من الخليفة باللسان يكون بالقلب وهذا الشكر

---

[٥٦٥] صحيح البخاري ، ج ٢٠ ص ١٥٨.

[٥٦٥] مصنف ابن أبي شيبة، ج ٨ ص ٣٦.

[٥٦٦] الضحى ١١.

[٥٦٧] هود ٨٨.

هو الإيمان بعينه لأنه كما قال الصادق المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل"[٥٦٨].

فالخلافة عمل وكد واجتهاد وليست كلمات تلوكها الألسن وإنما أعمال ظاهرة تدفعها نية صادقة مع حسن التوكل على الله، فعلى الخليفة العمل والرغبة في الإصلاح وعلى الله التوفيق، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا على التوكل المصحوب بالعمل المكلل بالنجاح والتوفيق وذلك من خلال مخلوق ضعيف في نظر البعض ولكنه في الحقيقة عظيم بفهمه الفطري لحقيقة العمل والسعي ومعرفة معنى التوفيق.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"[٥٦٩].

ويكون الشكر في الجهر بالعمل وفي السر بإخلاص النية حينئذٍ يتجلى الله على الخليفة بالشكر التام أي الشكر الرباني لأن الشكر صفة لله في الأصل وفى الخليفة بالفيض إن أعد نفسه لقبولها والتمسك بأهدابها.

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة، وفي عباده متحصله، بمعنى أن التجلي الأعلى للشكورية لله، والاقتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولا وعملا يورث هذه الرتبة في العبادة، وقليل من يتحصل عليها لقوله تعالى: {وقليل من عبادي الشكور}[٥٧٠]. وأولئك الذين اختصهم الله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلى منزلتهم عليه بالسير على نهجهم وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة.

---

[٥٦٨] مصنف ابن أبي شيبة ، ج ٨ ص ٢٥٧.

[٥٦٩] سنن الترمذي، ج ٨ ، ص ٣٤٢.

[٥٧٠] سبأ ١٣.

ولاكتشاف بعضاً من أسرار الاسم الشكور نتلمس ذلك في كتاب الله وتفسيره وفي سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم وهديه، ولأجل ذلك نرى الاسم في أصل مدلوله على الله، وفي فرعه على العباد، وسنحاول أن نبرزه في المظهر الذي يجب أن يكون عليه عند الخليفة الذي أسكنه الله الأرض ليصلح فيها ولا يسفك الدماء بغير حق.

الاسم في أصله:

أول ما نلقاه في كتاب الله عن مدلول الاسم الشكور المتصل بالله عّز وجل يقترن بتلاوة كتاب الله وتطبيق ما فيه بإقامة الصلاة لأن الصلاة إذا صلحت وُقبِلَتْ قُبِلَ وصلح كل عملٍ من الإنسان استقامة العلاقة بين الخالق والمخلوق وصار يخلفه في أرضه، ومن هذه الخلافة: الخلافة على مال الله الذي بين أيدينا وتحصل الخلافة السوية فيه بحسن صرفه في مصارفه الشرعية سرا، لأن عمل السر أقرب للتقوى والإخلاص وأبعد عن الرياء وهذه التجارة الرابحة لأننا أودعنا ما استخلفنا الله عليه عند الذي لا تضيع عنده الودائع فتذكو وتنمو عنده الأعمال التي وفقنا للقيام بها فيكون الجزاء منه بتمام الأجر وزيادة الفضل والستر على المعاصي بمغفرتها والشكر بما يليق برب غفور شكور فيقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٥٧١]. ثم نجد في كتاب الله أن من تمام شكره ميراث الكتاب والآن الميراث عند عباد الله من أمة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم الذي ينعم عليهم الله بإذهاب الحزن وبإدخالهم الجنة والتنعم فيها بنعم لا يعلم مدى جمالها إلا واهبها وهذا العطاء من فيض الله الغفور الشكور الرحيم\، أما جزاء من أهمل في حق الله ولم يقم بدور الخليفة على الوجه التام فهذا جاحد بنعمة ربه كفور بها مصيره من جنس عمله فيخلد في النار ذليلا مهانا وهذا جزاء الكفور.

---

[٥٧١] فاطر ٢٩، ٣٠.

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة في مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحق، ولأن الله عز وجل يريد للحق أن يُحق، ويُريد للباطل أن يُزهق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ولمن آمن واسلم وجهه إليه واحداً أحداً لا شريك له سبحانه.

قال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}[٥٧٢]. والبشرى العظمى بالمغفرة والشكر ودخول الجنة، والجنة لا تكون إلا لعباد الله الذين آمنوا بالله ربا وبسيد الخلق رسولا مصطفى صلى الله عليه وسلم والكتاب المنزل عليه منهجا وبالكعبة قبلة أي مقرًا ومركزا رئيسا لتنزل الرحمات والبركات وذلك إيذانا بأن الوجهة المثلى في التوجه للنبي العربي وللبيت الحرام بمكة لأن كل الشرائع السماوية محصورة فيه. فقوله: (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) تعني غفور للمذنبين، وشكور للمطيعين، ولهذا كان أصحاب الجنة هم الشاكرين لله على فضله عليهم بدخولها، فهي الدار التي لا يمسهم فيها تعب ولا كَلَال، قال تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}[٥٧٣]، ثم تمام ذلك بصلة القربى المحمدية والقربى الشخصية والقربى الآدمية في جميع بني آدم لأن الذين على الشريعة المحمدية هم الذين يؤدون حق الخلافة على الوجه الصحيح وهم الذين يتمم الله عليهم بزيادة الفضل وتمام المغفرة وكمال الشكر وهذه البشرى العظمى فقال الله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٥٧٤]. كما سبق أن بينا أن الشكر للمطيعين والمغفرة لمن تاب بعد معصية، فالله تعالى هو الشكور على أفعال نتائجها

---

[٥٧٢] فاطر ٣٤، ٣٥.

[٥٧٣] الحجر ٤٦، ٤٧.

[٥٧٤] الشورى ٢٣.

لا تعود عليه بل تعود على فاعليها ومع ذلك فهو الغفور الشكور الرحمن الرحيم الملك القدوس سبحانه رب العرش العظيم.

وقال تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥٧٥].

أي إن صرفتم المال في أوجه الحق، تجازون عليه أكبر الجزاء المرضي لكم وأكثر مما تتوقعون بالمضاعفة من الله تعالى، و (الله شكور حليم) لأنه لم يعجل بالعقوبة، ويجازي بالكثير، والله يحذرنا من الفتن المتربصة بنا ألا وهي الأزواج والأولاد والمال فيأمرنا الله باتقاء هذه الفتنة بالبعد عن الشح، كما يأمرنا بالعفو والصفح والإنفاق وبالتجارة التي لا تبور مع الله جلّ شأنه، ويبشرنا بأن نتيجة ذلك المغفرة والشكر من الله وتمام هذا بالحُلم الإلهي الذي يسع الجميع.

والخليفة لا تمنعه نعمة المال ولا نعمة الولد ولا نعمة الزوجة عن أداء الدور المنوط به في الخلافة فيشكر الله على هذه النعم فتتحول من عوائق عن السير في طريق الخلافة إلى محفزات لأداء دور الخليفة على الوجه الأكمل كما أراده الله، وكيف لا وقد استخلف الله الإنسان على كل شيء في الكون كبيرا كان أم صغيرا وله حق الرعاية عليهم وهذه الرعاية ليست لإنسان دون إنسان بل للجميع فالكل راعٍ أي خليفة والكل مسؤول عن رعيته بقدر ما أعطاه الله من مسئوليات تجاه الآخرين، ومن الشكر للمنعم حسن الرعاية لمن هم في حوزته وأداء دور الخليفة على الوجه الصحيح في الرعية كبرت أم صغرت، ويتزايد هذا الدور كلما زادت المسؤولية وكلما اتسعت دائرة المطلوب رعايتهم قال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[٥٧٦].

---

[٥٧٥] التغابن ١٧، ١٨.

[٥٧٦] صحيح البخاري، ج ٣ ص ٤١٤.

الرعاية أمانة تستوجب الصيانة والحفاظ مع تحمّل المسؤوليات المترتبة عليها، ومن تُقدم له الرعاية ينبغي أن يرتفع خلقا لأن يشكر مع فائق التقدير والاحترام من قدم له رعاية وعناية، وفي هذا الأمر اعتراف بالفضل والجميل الطيب الذي بأسبابه تصبح المحبة في حالة تبادل بين المستخلفين في الأرض، وأن يشكر ربه عز وجل على فضله الذي به نال الرعاية.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً"[٥٧٧].

ثم تتفرع الرعاية أو الخلافة في كل المجتمع، وبذلك تشمل الخلافة كل مناحي الحياة ولكنها في النهاية لابد أن تكون مجموعة في نموذج واحد وهو الخليفة الذي يؤدي شكر الله بالقيام بالرعاية الكاملة على الوجه الذي كلفه به المولى عز وجل، وهذه الرعاية من الخليفة بالرحمة والشفقة على من يرعاهم وبذلك يؤدي الخليفة الشكر لله في العباد سلوكا وتوجيها.

والرعاية من الخليفة تلزمها الرحمة والشفقة والحنو لأن شكر الله يكون برعاية خلقه والشكور في الخليفة فيض من الاسم الشكور الذي هو صفة لله والخليفة متخلق بأخلاق الله على قدر استطاعته لذا فهو عطوف على رعيته يؤدي الصلاة التي تصله بالخالق، ويشكر الخالق في خلقه ويخالق الرعية بالخلق الحسن الذي هو خلق الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وخير ما أعطي الإنسان حسن الخلق ألا وإن حسن الخلق من أخلاق الله عز وجل"[٥٧٨].

والرحمة ملازمة للخليفة فهو يؤمن بالله ويتودد إلى الناس لأن هذا التودد من أفضل الأعمال بعد الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس"[٥٧٩].

---

[٥٧٧] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٢ ص ٣٥٠.

[٥٧٨] كشف الخفاء ، ج ١ ص ١٥٢.

[٥٧٩] السابق ص ١٥٢.

والتودد إلى الخلق من الشكر بإدخال السرور عليهم أو قضاء دين لمن ضاقت به السبل أو إطعام خبز لجائع بتوفير عمل شريف له أو بتعليمه حرفة يتكسب منها وهذا من باب شكر النعمة التي وهبها الله للخليفة من حكم ورجاحة عقل بتدبير أمر عجز عنه إنسان أقل منه خبرة ودراية وهذا ما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاءه سائل يسأله فنصح له وأرشده إلى طريق أفضل من مسألة الناس وهو العمل والاجتهاد فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ فَقَالَ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ قَالَ ائْتِنِي بِهِمَا قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ"[٥٨٠]. وهنا نتذكر الحكمة القائلة: من أعطاك سمكة أطعمك يوما ومن علمك الصيد أطعمك كل يوم.

وتندرج هذه الصفات الودية تحت النفقة المادية بالمال والخبز وما شابه ذلك، والنفقة المعنوية بإدخال السرور ولو بكلمة أو ببشرى طيبة أو بسمة صافية أو بنصيحة مخلصة فيقول الحبيب صلى الله عليه وسلم: "أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضي عنه دينا أو تطعمه خبزا"[٥٨١].

---

[٥٨٠] سنن أبي داود ، ج ٤ ص ٤٤٩.

[٥٨١] كشف الخفاء ، – ج ١ ص ١٥٢.

والنصيحة الخالصة لوجه الله تدخل السرور على المؤمن وتقضى عنه الدين وتطعمه الخبز وهذا من شكر الخليفة لنعمة الحكمة ورجاحة العقل والعلم الذي يفيضه على أتباعه، والخليفة من يرث الإيمان الكامل عن علم وعمل ومن هذا الميراث الشكر والصبر فهما لا يحصلان من دون العلم قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل العلم: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[٥٨٢].

وبالعلم يرث الخليفة الأنبياء ومن هذا الميراث العلم بأسماء الله وصفاته فيعرف معناها وفوائدها ويتخلق بها فينشر نور العلم في الأرض ويكون في الأرض مثل النجم في السماء.

وخير العلماء من يتعلم لنفسه ولغيره فيحثهم على العلم وعلى السير للوصل إلى الحظ الأوفر من ميراث الأنبياء. وقد ورد في الأثر: حدثنا عفان قال حدثنا أبو عقيل بشير بن عقبة قال: "سمعت الحسن يقول: العلماء ثلاثة: منهم عالم لنفسه ولغيره فذلك أفضلهم وخيرهم، ومنهم عالم لنفسه فحسن، ومنهم عالم لا لنفسه ولا لغيره فذلك شرهم)[٥٨٣].

ونعم الله لا تحصى في الأرض والبحر ولا يعتبر بها ولا تمتلك عليه خلجات نفسه إلا الصبار الشكور وهو الخليفة الذي لا يفتأ عن النظر في ملكوت الله وآياته لأنه عالم بحق الاسم الشكور ومن هذا الحق الحرص والنظر إلى العلماء للتعلم منهم لأنهم ورثة الأنبياء وورثة المعرفة الكاملة بأسماء الله تعالى.

والاسم الشكور: من أسماء الجمال والرحمة والبسط واللين لذا فقد جاء مقترناً بالاسم الغفور والاسم الحليم، إلا أن الاسم الحليم جاء بعده ليتمم الشكر المفاض على العباد مع العلم بأن كل اسم إلهي اسم مكتمل تام في ذاته لأنه من أسماء الله وحاشا أن يلحق أسمائه نقص.

---

[٥٨٢] سنن أبي داود، ج ١٠ ص ٤٩.

[٥٨٣] مصنف ابن أبي شيبة، ج ٨ ص ٢٦٩.

والله هو: (الشاكر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره"[٥٨٤]

وهنا يتضح أن الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر وكلاهما من نبع الشكر الإلهي الذي يفيض مغفرة وعطاء وثوابا وسترا على من يتصف بهذه الرتبة الإيمانية من العباد، ولا تتأتى هذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق كما ورد في القرآن الكريم بصيغة **(صبّار)** والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة **(شَكُور)**ولم يصل إلى الدرجة الأعلى في هذه المنزلة إلا القليل من عباد الله الذين وصفهم بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهؤلاء يتمم الله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر، وهذا كرم خالص من الله عز وجل فيفيضون مما أفاض الله عليهم بالشفاعة لمن أراد الله أن يخرجه برحمته من الشقاء إلى النعيم وهذا فيض شكوري آخر من الله الشكور وذلك ما ورد في كتب التفسير لقوله تعالى:

{لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٥٨٥]. (ليوفيهم أجورهم) التوفيه: تمام الأجر و ثواب العمل وهو متعلق بلن تبور على معنى انه ينتفي عنها الكساد وتنفق فلا وقف على لن تبور (ويزيدهم من فضله) أي جوده وتفضله وخزائن رحمته ما يشاء مما لم يخطر ببالهم عند العمل ولم يستحقوا له بل هو كرم محض ومن فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ليشفعوا فيمن وجبت لهم النار من الأقرباء وغيرهم (إنه غفور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة وهذه مغفرة من غفور شكور.

و(غفور) ستار لكل ما صدر عنهم مما من شأنه (شكور) لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ومثيب.

والشكر على ثلاثة أوجه:-

---

[٥٨٤] تفسير السعدي، ج ١، ص ٩٤٨.

[٥٨٥] فاطر ٣٠.

الوجـه الأول: الشكر ممن دونـه يكون بالطاعـة وترك مخالفتـه. (وهذا من الخليفـة إلـى الله) فالإنسان بكل المقاييس دون الله لذا وجب عليـه أن يشكره ومن ألوان هذا الشكر طاعتـه فيما أمر وترك ما نـهى عنه وفي ذلك صبر أيما صبر وشكر أيما شكر ومن هنا تحصل الخيريـة العظمـى لكل من يقتدي بهذا السلوك وتتحقق فيـه الخلافـة المرجوة وكونـه من الأخيار ممن قيل فيهم[٥٨٦]. قـال تعـالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٥٨٧]. قال الزجـاج: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } ظـاهر الخطـاب فيه مـع أصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم، ولكنـه عام فـي كل الأمـة، ونظيره قولـه {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام}[٥٨٨]، و{كتب عَلَيْكُم القصـاص}[٥٨٩]. فإن كل ذلك خطـاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنـه أيضا يفيد العام في حق الكل[٥٩٠].

و أصـل الأمـة الطائفـة المجتمعـة علـى الشـيء الواحد فأمـة نبينـا صلـى الله عليـه وسلم هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوتـه، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوتـه أنهم أمتـه إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول، ألا ترى أنـه إذا قيل أجمعت الأمـة على كـذا فهم منـه الأول وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: "أمتـي لا تجتمـع علـى ضـلالة" وقـد ورد الحديث بلفظ آخر:

فعن أبي بصرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال: (سألت ربي عز وجل أربعاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة سألت الله عز وجل أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها[٥٩١].

---

[٥٨٦] تفسير حقي، ج ١١ ص ٢٨١

[٥٨٧] آل عمران، ١١٠.

[٥٨٨] البقرة ١٨٣.

[٥٨٩] البقرة ١٧٨.

[٥٩٠] تفسير الرازي ، ج ٤ ص ٣٤٢.

[٥٩١] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١ ، ص ١٠٧

وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة "أمتي أمتي" فلفظ الأمة في هذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم: إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط.

أما قوله (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ففيه قولان:

الأول: أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، فقوله (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها.

والثاني: أن قوله (لِلنَّاسِ) من تمام قوله (كُنتُمْ) والتقدير: كنتم للناس خير أمة.

ثم قال: (تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ باللهِ). والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، فهاهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر بعد هذا الحكم وهذه الطاعات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات.

وهاهنا ينبغي طرح السؤال الآتي:

من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟.

الجواب: تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأقوى الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل.

وأعرف المعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع، لا جرم صار ذلك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: قوله (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقروا بما أنزل الله جل جلاله، وتقاتلونهم عليه و«لا إله إلا الله» أعظم المعروف، والتكذيب هو أنكر المنكر[٥٩٢].

الوجه الثاني من الشكر: الشكر ممن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة وهذا من إنسان إلى إنسان أي يشكر إنسان لإنسان آخر أسدى إليه معروفا فمن لم يشكر الناس لمعروفهم لم يشكر الله.

الوجه الثالث من الشكر: والشكر ممن فوقه يكون رضا منه باليسير، وهذا من الله العلي العظيم إلى الإنسان لأن شكر الله أعلى وأجل وأسمى من شكرنا[٥٩٣].

والشكور هو المجازى بالخير الكثير على العمل اليسير والمعطى بالعمل في أيام معدودة نعما في الآخرة غير مجذوذة ومن عرف أنه الشكور شكر نعمته وآثر طاعته وطلب رحمته وشهد منته.

وعطاء الله الشكور– لمن أراد الخلافة – بشروط منها تلاوة القرآن واتخاذه منهجاً وشريعة، وإقامة الصلاة بوصفها وسيلة الاتصال المباشرة بين العبد وربه، وإقامة بيوت الله التي يذكر فيها اسمه ويسبح بحمده فيها بالغدو والآصال من رجال لا تلهيهم الدنيا بفنائها عن الآخرة بنعيمها ودوامها فهذه التجارة الرابحة التي لا تبور وجزاؤها تمام الأجر وزيادة الفضل وستر الذنب في الدنيا والآخرة والتجلي عليهم بالشكورية الإلهية التي تحوي المغفرة والنعيم الدائم الذي لا يعرف قدره إلا الله. ويقول ابن كثير عن هذا المعنى في تفسير الآية التي تتناول هذه الجزئية: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٥٩٤].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات والأوجه المشروعة ليلا ونهارا، سرا وعلانية،

---

[٥٩٢] تفسير الرازي، ج ٤ ، ص ٣٤٢.

[٥٩٣] تفسير حقي، ج ١١ ص ٢٨١.

[٥٩٤] فاطر ٢٩، ٣٠.

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله. كما جاء عن فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: "إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة"؛ ولهذا قال تعالى: (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم على بال، (إِنَّهُ غَفُورٌ) أي: غفور لذنوبهم، (شَكُورٌ) للقليل من أعمالهم. وقوله: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر[٥٩٥].

والذي يتحلى بالشكر ويكون مصبوغاً بهذه الصفة يزيده الله من فضله وهذه الزيادة بالمغفرة ودخول الجنة لأنه قد مارس عملاً من أعمال الخلافة وهو التحلي بالطاعة والخيرية التي تورث الشكر الإلهي وقليل ممن هم على هذه المنزلة، أما من سار في طريق الغي والضلال ولم يتحلى بالطاعات والخيرية التي أرادها الله في الخليفة فجزاؤه من جنس عمله وهل يجازى بالنار إلا الكفور الجاحد لنعمة الخلافة التي لم يؤد شكرها، وقد وضح الله في منهجه الذي أرساه طريقا للخلافة أنها لا تتحقق إلا بالعمل بالقرآن تلاوة وتطبيقا، وإقامة الصلاة اتصالا بالخالق فتكون نورا هاديا للعمل الصالح في الأرض عمرانا، ومع العباد سلوكا طيبا ومعاملة حسنة، وبإنفاق المال في مصارفه الصحيحة لنشر الخيرية الإنسانية بسد حاجة المحتاج وبتوفير الحياة الكريمة لمن استخلفنا عليهم.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى

[٥٩٥] تفسير ابن كثير، ج ٦ ص ٥٤٥.

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[٥٩٦].

(إِنَّ الذين يَتْلُونَ كتاب الله) يداومون على تلاوة القرآن (وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً) أي مسرين النفل ومعلنين الفرض يعني لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به (يَرْجُونَ) خبر «إنّ» (تجارةً) هي طلب الثواب بالطاعة (لَّن تَبُورَ) لن تكسد يعني تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله { لِيُوَفّيَهُمْ } متعلق ب (لَّن تَبُورَ) أي ليوفيهم بنفاقها عنده (أُجُورَهُمْ) ثواب أعمالهم (وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ) بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه. أو (يَرْجُونَ) أي راجين. واللام في (لِيُوَفّيَهُمْ) تتعلق ب (يَتْلُونَ) وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض و (إِنَّهُ غَفُورٌ) لفرطاتهم (شَكُورٍ) أي غفورٌ لهم شكور لأعمالهم أي يعطي الجزيل على العمل القليل (والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب) أي القرآن. و«من» للتبيين (هُوَ الحق مُصَدّقاً) حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق (لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) لما تقدمه من الكتب (إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلاً لأن يوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب ولتكون مستخلفا به في الأرض دون غيرك.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب) أي أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا) وهم الخلفاء من أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثم رتبهم على مراتب فقال (فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ) وهو المرجأ لأمر الله (وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً (وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات) وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال:

---

[٥٩٦] فاطر ٣١ . ٣٧.

{والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين}[٥٩٧]. وقال تعالى: {وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ}[٥٩٨]. وقال عز وجل: {وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله}[٥٩٩].

(فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ) والظالم من رجحت سيئاته، والسابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون، وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله: (والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ) وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، وكلهم راجع إلى قوله (الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا) وهم أهل الإيمان المستخلفون في الأرض والمصلحون فيها. وفي الآية الكريمة السابقة قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه. وقال سهل: السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل. والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصد من يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال. (ذلك) أي إيراث الكتاب (هُوَ الفضل الكبير جنات عَدْنٍ) خبر ثان ل (ذلك) أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر (يَدْخُلُونَهَا) أي الفرق الثلاثة (يَدْخُلُونَهَا) (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) جمع أسورة جمع سوار (مّن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً) أي من ذهب مرصّع باللؤلؤ أي يحلون أساور ولؤلؤاً (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) لما فيه من نعومة الملمس والزينة الجمالية مع الذوق الرفيع.

(وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن) خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ) يغفر الجنايات وإن كثرت (شَكُورٌ) يقبل الطاعات وإن قلت (الذي أَحَلَّنَا دَارَ

---

[٥٩٧] التوبة ١٠٠.

[٥٩٨] التوبة ١٠٢.

[٥٩٩] التوبة، ١٠٦.

المقامة) أي الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت إقامة ومقاماً ومقامة (مِن فَضْلِهِ) من عطائه وأفضاله لا باستحقاقنا (لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) تعب ومشقة (وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) إعياء من التعب وفترة[٦٠٠].

ويأتي الاسم الشكور بين المغفرة والحلم كما ورد في الحديث النبوي الشريف الحليم ثم الغفور ثم الشكور ويتناغم القرآن الكريم مع الحديث الشريف فيعطينا لمحة باهرة بأن المغفرة تسبق الشكر، والحلم يحتوي الاثنين ويأتي ذلك باتقاء الفتنة من المال والولد وعلى الخليفة أن يتقي الله بقدر المستطاع وأن يطيع الله ورسوله فيما أمر ونهى وأن ينفق عن طيب خاطر وأن يبتعد عن الشح لكي يكون من المفلحين وأن يقرض الله قرضا حسنا من مال حلال بنفس مطمئنة لما عند الله من ثواب وأجر عظيم وحينئذ يضاعف الله له الأجر والثواب ويشمله بعطاء الغفور الشكور الحليم تقدس في ذاته وعظم في صفاته فيقول في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٦٠١]. (إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ) بلاءٌ ومحنةٌ يوقعونَكُم في الإثمِ من حيثُ لا تحتسبون (والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) لمن آثَرَ محبةَ الله تعالَى وطاعَتَهُ على محبةِ الأموالِ والأولادِ والسعيِ في تدبيرِ مصالحِهِم (فاتقوا الله مَا استطعتم) أي ابذلُوا في تقواهُ جهدَكُم وطاقَتَكُم (واسمعوا) مواعظَهُ (وَأَطِيعُواْ) أوامرَهُ (وَأَنْفِقُواْ) مما رزقكُم في الوجوهِ التي أمركُم بالإنفاقِ فيها خالصاً لوجهِهِ (خَيْراً لأَنفُسِكُمْ) أي ائتُوا خيراً لأنفسِكُم وافعلُوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ وهو تأكيدٌ للحثِّ على امتثالِ هذهِ الأوامرِ وبيانٌ لكونِ الأمورِ المذكورةِ خيراً لأنفسِهِم، أي يَكُنْ خيراً لأنفسِكُم (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون) الفائزونَ بكلِ مرامٍ. (إِن تُقْرِضُواْ الله) بصرفِ أموالِكُم إلى

---

[٦٠٠] تفسير النسفي ، ج ٣ ص ١٦٩.

[٦٠١] التغابن ١٥ . ١٨.

المصارفِ التي عينها (قَرْضًا حَسَنًا) مقروناً بالإخلاصِ وطيبِ النفسِ (يضاعفه لَكُمْ) بالواحدِ عشرةً إلى سبعمائةٍ وأكثرَ. وقُرِىءَ يُضعّفهُ لكُم (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) ببركةِ الإنفاقِ ما فرطَ منكُم من بعضِ الذنوبِ (والله شَكُورٌ) يَعطى الجزيلَ بمقابلةِ النزرِ القليلِ (حَلِيمٌ) لا يعاجلُ بالعقوبةِ مع كثرةِ ذنوبِكُم (عالم الغيب والشهادة) لا يَخفى عليهِ خافيةٌ (العزيز الحكيم) المبالغُ في القدرةِ والحكمة[٦٠٢].

في الآيات السابقة نلاحظ أن الاسم الشكور يأتي مقترنا بالإنفاق سراً وعلانيةً وإقامة الصلاة وتلاوة القرآن وهو ما يعد بمثابة النهج الذي إذا سار عليه العبد كان مستحقا للمغفرة والشكر من الله إلا أن الآية الآتية فيها أمر آخر وهو المودة في القربى قربى الرسول صلى الله عليه وسلم أو قربى الإنسان الشخصية أو قربى المسلمين عامة المهم أن تكون المودة حاضرة في قلوب المؤمنين لله وللرسول وللمسلمين وللخلق جميعاً لأنهم صنعة الله.

ولا يصل القربى إلا عباد الله الذي يتوجه لهم بتلك الآيات الباهرات وهم من يستحقون الخلافة إن نفّذوا ما أُمِرُوا به من أوامر واجتنبوا ما نهوا عنه من نواه وهذه المودة إن وصفت بأنها حسنة إلا أنها من أعظم الحسنات عند الله فيزيد الله فيها أحسن منها ويغفر ويشكر لمن قام بها وأداها على الوجه الأكمل، وهذه بشرى عظيمة لهؤلاء العباد الذين يصلون القربى الخاصة بالحبيب صلى الله عليه وسلم، وبذويهم أي القربى الخاصة بكل إنسان ممن تربطهم به صلة، وبقربى الإسلام في الأرض شرقا وغربا شمالا وجنوبا وذلك بتمني الخير لكل مسلم والدعاء له ظاهرا وباطنا، والخوف على مصلحة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والدعوة الصادقة المخلصة إلى طريق الهداية لجميع البشر لأنه توجد قربى غفل عنها الكثير إلا الخليفة لم يغفل عنها وهي قربى آدم وحواء عليهما السلام في البشر بوجه عام ممن ليسوا على الطريق الصحيح، وهؤلاء بالطبع غير قربى الرسول صلى الله عليه وسلم أو القربى الخاصة أو القربى العامة من المسلمين، ونقصد بذلك أول قربى من رحم حواء وصلب آدم عليه الصلاة والسلام الذي خرجنا جميعا منه ونندرج كلنا فيه، فإن وصلنا هذه القربى تحققت

[٦٠٢] تفسير أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٣٣٤.

فينا الخلافة وكنا أهل لها كلٌ على قدر ما وصل منها وهذه المكانة لا تتحقق إلا في الخليفة الذي يعمر الأرض بفكره وترتفع بساعده وتزهو برؤيته الثاقبة وتوجيهه المستنير وهذا الخليفة هو المتحقق بالشكر على تمامه ويتجلى الله عليه بالشكر على كماله بالقبول في الدنيا بين بني جنسه والرضا في الآخرة بالجنة ونعيمها والبعد عن عذاب النار وجحيمها.

قال الله تعالى:

{ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٦٠٣]. يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: هذا حاصل لهم كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شرَّكم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: (إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة)[٦٠٤].

وحتى لا يُحْرَمُ إنسانٌ من شرف الانتساب إلى أهل البيت فهناك رأي يدخل الأمة المحمدية كلها في قربى النبي صلى الله عليه وسلم أليس النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم وزوجاته أمهات للمؤمنين؟ قال الله تعالى:

---

[٦٠٣] الشورى ٣٣.

[٦٠٤] تفسير ابن كثير، ج ٧ ص ١٩٩.

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}[٦٠٥].

فعليه فكلٌّ من آمن بالله رباً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً وأحب المسلمين ونصح لهم وعمل على نشر الخير المحمدي لتتحقق الخلافة المثلى للإنسان على الأرض فهو من القربى ويؤكد ذلك التفسير الآتي:

(وقيل آل الرسول أمته الذين قبلوا دعوته قال ابن عطاء لا أسألكم على دعوتكم أجرا إلا أن تتوددوا إلى بتوحيد الله وتتقربوا إليه بدوام طاعته وملازمة أوامره وقال الحسين كل من تقرب إلى الله بطاعته وجبت عليكم محبته أي فإن المحب يحب المحب لكونهما محبين لمحبوب واحد وكذا المطيع مع المطيع لشركتهما فئ الطاعة والانقياد.

(ومن يقترف حسنة) من يكتسب حسنة يكون له الجزاء الأوفى (نزد له فيها) أي في الحسنة (حسنا) بمضاعفة الحسنة والتوفيق لمثلها والإخلاص فيها وبزيادة لا يصل العبد إليها بوسعه مما لا يدخل تحت طوق البشر (إن الله غفور) هو صاحب المغفرة ومالك أمرها (شكور) لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة فالشكر من الله مجاز عن هذا المعنى لأن معناه الحقيقي وهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعما لا يتصور من الله لامتناع أن ينعم عليه احد حتى يقابل بالشكر شبهة الإثابة والتفضل بالشكر من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير وإكراما لأجله وفى بحر العلوم أو معتد بالحسنة القليلة حتى يضاعفها فان القليل عند الله كثير[٦٠٦].

ولما طلب النبي صلى الله عليه وسلم ألا يؤذى لقرابته من أهل مكة أو لا يؤذى في أهل بيته أو في أمته فالأحرى بنا ألا نؤذيه في سنته وأن ندفع عنه أذى الجاهلين الذين يحاولون من أمته بكل السبل وذلك نوع من القربى إلى الله بالبعد عن أذى الله ورسوله وتلك القربى

---

[٦٠٥] الأحزاب ٦.

[٦٠٦] تفسير حقي ، ج ١٣ ، ص ٨٠.

تأتي من العمل الصالح والطاعة المثلى لله والفرصة واتية للوصول إلى هذه القربى لنصل إلى تجلي الله علينا بالشكورية الإلهية.

ومن الشكر للنعمة التي أنعم الله علينا بها وهي نعمة إتباع الخليفة الحقيقي صلى الله عليه وسلم بحبه والدفاع عنه والتأسي بسنته بحب أهل بيته وبحب البشر عموما وبحب الخير وبحب الله وحب كل عمل يقربنا من الله وهذا الحب من الشكر لأن النبي صلى الله عليه وسلم طلب منا ذلك وحثنا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي"[٦٠٧].

وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ليس هم آل بيته، ولذا فالفرق كبير بين آل إبراهيم، وآل عمران، وآل يعقوب وآل داود وآل ياسين، وبين أهل محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام، فآل إبراهيم يمتدوا حتى يشملوا محمد عليه الصلاة والسلام من حيث الأصل، وأهل محمد هم الذين آمنوا به رسولا (قربى وبعدى) من خديجة الكبرى وابوبكر الصديق إلى بلال رضي الله عنهم، وأسرة محمد القريبة أزواجه أمهات المؤمنين وفاطمة الزهراء رضي الله عنهنَّ هُنَّ من أهله وليس من آله. ولأن صلة الدم ترتبط بالمسمى الذي يُنسب النسل إليه وهو المذكر، ومحمد لم يبق له أبناء ذكور حتى سن الزواج والإنجاب، وهذا أمر يعلمه الله جل جلاله، لذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: {إنما يُريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}[٦٠٨]. جاء في الآية (عنكم) لأجل أن تحتوي المذكر والمؤنث، ومع أن بداية الآية الحديث موجه فيها موجه صراحة إلى نساء النبي أمهاتنا الكريمات، إلا أن خاتمة الآية جاءت بالضمير المحتوي للمذكر والمؤنث لتعم الطهارة جميع أهل البيت الكرام. قال تعالى: {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدا مجيد}[٦٠٩]. فأهل البيت هم أصحابه الذين يطوفون ويسعون في ذكر الله موحدين لا مشركين.

---

[٦٠٧] شعب الإيمان للبيهقي ، ج ٣ ، ص ٤١٨.

[٦٠٨] الأحزاب، ٣٣.

[٦٠٩] هود ٧٣.

يقول القرطبي: "هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت، فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت، فعائشة رضي الله عنها وغيرها من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم"[٦١٠]. قال تعالى: {فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين}[٦١١]. أهله تعود على الذين آمنوا بسيدنا لوط عليه الصلاة والسلام، وهي لا تقتصر على من هم من صلبه أو دمه، ولهذا فالأهل امتزاج انتمائي للقرى أو المدن أو الكتب السماوية وهي أشمل من (آل) التي تقتصر على رابطة الدم من صلب الأبناء. ولهذا فالله يخاطب العموم بكلمة (أهل) ويخاطب الخاصة بكلمة (آل). أهل الكتاب الذين أستهدف به، وأهل الإنجيل هم المستهدفين به، وأهل القرى ساكنيها وأهل المدينة كذلك، وهكذا أهل الذكر هم الذين يعلمون مما علمهم الله به.

والأهل تتضمن في معناها أصحاب، أي ذوي العلاقة المباشرة بالموضوع المشترك، مصداقا لقوله تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها}[٦١٢] أي إلى أصحابها مباشرة وهم الذين لا شك فيهم.

ولأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي الخاتمة وهي للكافة لذا بطبيعة الحال أن يقول الله تعالى: (إنما يُريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويقول (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدا مجيد). وعليه لو قال تعالى: (آل محمد) ولم يقل (أهل محمد) لكان الإسلام للخاصة مثله مثل الرسالات السابقة على نزوله. ولأنه للكافة جاءت كلمة أهله جامعة لا مانعة مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}[٦١٣]. وقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[٦١٤]. ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحد من

---

[٦١٠] تفسير القرطبي، الجزء التاسع، ص ٧١.

[٦١١] الأعراف، ٨٣.

[٦١٢] النساء ٥٨.

[٦١٣] سبأ ٢٨.

[٦١٤] الأحزاب ٤٠.

رجالكم[٦١٥]. هذه الآية الكريمة نزلت في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينب بعد أن طلقها زيد، الذي تبناه رسول الله في صغره وهو لم يكن ولده من صلبه ليقال عنه انه تزوج حليلة ابنه، فنزل قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٦١٦].

وقد ورد في التفسير في قوله تعالى: (إِلاَّ المودة في القربى) أيْ إلا أن تودُّون لقرابتي منكم أو تودُّوا أهل قرابتي، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألُكم أجراً قَطُّ ولكنْ أسألُكم المودَّةَ، ولهذا فالمودة بين الأهل واجبة، وكذلك المودة فيهم بما يقدمونه من خير وعمل صالح لأجل الهداية للدين الكافة (الرسالة الخاتمة). وفي القُربي حالٌ منَها أيْ إلا المودَّةَ ثابتةً في القُربى متمكنةً في أهلِها أو في حقَ القرابةِ. والقُرْبى مصدرٌ كالزُّلْفى بمَعْنى القَرَابةِ. وقرابة الأهل متانة العلاقات على الدين الكافة. وفي هذا الأمر يبتعد القريب الذي يعود إلى الآل مثل أبي لهب، ويقترب البعيد مثل بلال ابن رباح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما. وفي هذا الأمر قال تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد}[٦١٧]. وعليه من ينظر إلى هذا الأمر ليس له بدا إلا أن يشكر الله جل جلاله ويوحده باسمه الشكور وأسمه العدل الذي لم يترك للظلم مكانة لتتم فيها مغالبة الحق بالباطل حتى لا يتم الانحياز فيه للدم على حساب الأهل الذين يدخلون دائرة الممكن بمعطيات (الأصل والدين والانتماء) أي الأهل تشمل وتحتوي الآل كجزء من الأهل الذين يتكونون تحت مظلة الأصل والدين الكافة وليس أي دين. ولذا فما على العباد إلا أن يتوجهوا بالشكر للشكور المطلق جل جلاله الذي لم يُقرَّ عليهم مغالبة ذو

---

[٦١٥] تفسير الطبري، ج ٢٠ ، ص ٢٧٨.

[٦١٦] الأحزاب ٥.

[٦١٧] المسد ١ . ٥.

القرى عندما يكونوا مناصرين للباطل أو عندما يكون قولهم أو فعلهم في مواجهة الحق، ولهذا كان بلال من أهله ولم يكن أبو لهب منهم وإن كان من آله.

وقيلَ: القُرْبَى التقربُ إلى الله أيْ إلاَّ أن تودُّوا الله ورسولَهُ في تقربكم إليهِ بالطاعةِ والعملِ الصالحِ. وقُرِىءَ إلا مودَّةً في القُربَى. (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً) أي يكتسبْ أيَّ حسنةٍ كانتْ فتتناولُ مودَّةَ ذِي القُرْبى تناولاً أولياً. وعن السُدِّيِّ: أنَّها المرادةُ، وقيلَ: نزلتْ في الصدِّيقِ رضيَ الله عنه ومودَّتهُ فيهم. (نَّزِدْ لَهُ فِيهَا) أيْ في الحسنة (حَسَنًا) بمضاعفةِ الثوابِ. وقُرِىءَ يَزِدْ أيْ يزدِ الله وقُرِىءَ حُسْنَى. (أَنَّ الله غَفُورٌ) لمن أذنبَ. (شَكُورٍ) لمن أطاعَ بتوفيقِه للثوابِ والتفضلِ عليهِ بالزيادةِ[٦١٨].

وبناء على ما تقدم: فإن أهل البيت هم المستخلفين في الأرض، وليس آل البيت، وذلك لارتباط الآل بصلة الدم كما هي الصلة بأبي لهب، وارتباط الأهل بالدين الكافة كما هو حال الناس كافة، ولهذا قال تعالى: {ونادى نوح ربه فقال ربِّ إنَّ أبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين}[٦١٩]. فمع أنه ابن نوح (أي من آله) إلا أنه لم يكن من أهله، وذلك بأسباب الكفر، فأبنه كان يُسر الكفر ويظهر الإيمان ولذا فهو لم يكن من أهله[٦٢٠]. ولأن نوح لا يعلم علم الغيب الذي لو كان به عليم لما نادى ابنه بما جاء في قوله تعالى: {ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}[٦٢١] ولأن ابنه يعرف أمر نفسه والحال الذي هو عليه قال الله جل جلاله: {قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من الغارقين}[٦٢٢]. فقوله (سآوي إلى جبل يعصمني) دليل إثبات عدم الإيمان فلو كان مؤمنا

---

[٦١٨] تفسير أبي السعود، ج ٦ ص ٨٠.

[٦١٩] هود ٤٥، ٤٦.

[٦٢٠] تفسير القرطبي، الجزء الرابع، ص ٤٥.

[٦٢١] هود ٤٢.

[٦٢٢] هود ٤٣.

لعرف إنّ الجبل لا يعصمه إن لم يكن الله عاصم له برحمته. فالمؤمن دائما يعلم أنه لا عاصم إلا الله عز وجل، ولهذا كان الفرق كبير بين قوله (سآوي إلى جبل يعصمني) وبين قول أبيه عليه الصلاة والسلام الذي يملأه الإيمان: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم).

إذا فالشكور هو الله عز وجل والمتخلق بهذا الوصف هو الخليفة الذي يستحق الخلافة من العباد وعليه فعلينا أن نستبين صفات الخليفة المتحقق بصفة الشكور وذلك من خلال آيات الذكر الحكيم ومن هدي سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

الشكور- فرعا- في العباد:

الشكور في الأصل الله عزّ وجل وهو بعد الاسم الغفور في الترتيب الوارد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فالشكور يسع الغفور، والغفور فيه الستر، والشكور فيه العطاء والثواب، ويسع الشكور الحليم لأن الله بستره لذنب عبده ومغفرته له قد أمهله ليقبله والإمهال من الحلم والحلم من الرحمة والرحمة من الله والله يسع الأسماء والأسماء تسع الأفعال والعبد يتقلب في تجليات الأسماء والأفعال ويحتويه الله الرحيم الحليم، ولكن من الذي تنطبق عليه الشكورية أو مرتبة الشكر أو مرتبة شكر الشكر فقليل ما هم على هذه المنزلة وليس عليها إلا نبي من أولي العزم من الرسل، أو ولي كامل عامل بمنهج نبي من أولي العزم، ولم يبق من مناهج أولي العزم إلا منهج المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان يمارس الشكر وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لذا فمن أراد أن يكو ن من أهل الشكر فعليه الاقتداء بالنهج المحمدي. وقد وصف بهذه المرتبة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وطلبت من سيدنا داود وآله عليهم السلام بقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ

الشَّكُورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}[٦٢٣]. (اعملوا آل داود شكرا) أي قولوا. الحمد لله. و " شكرا ": أي اعملوا عملا هو الشكر. وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي الشكر في ذاته، ويبين هذا قوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقليل ما هم وهو المراد بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور).

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: {أن اشكر لي}[٦٢٤]. ويقال في صحيح البخاري: إن المراد بالشكر الصلوات الخمس. وعَنْ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"[٦٢٥].

فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالقلب واللسان والأركان.

قوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) تدل على أن القلة هي المؤمنة وهي الشاكرة والحامدة لفضل الله مصداقا لقوله تعالى: (أكثرهم لا يعلمون) و (أكثرهم لا يؤمنون) و(أكثرهم فاسقون) و(أكثرهم لا يعقلون) و (أكثرهم يجهلون) و (وأكثرهم لا يشكرون) و(أكثرهم الكافرون) و (أكثرهم لا يعقلون) و(أكثرهم مشركين).

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول: "اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور)، فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر! وروي أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار (ما خشن من الطحين – فارسية –)، ويطعم المساكين الدرمك (الدقيق الأبيض) وروي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. وهذا من الشكر، ومن القليل[٦٢٦].

---

[٦٢٣] سبأ ١٠. ١٤.

[٦٢٤] لقمان ١٤.

[٦٢٥] صحيح البخاري، ج ٤ ص ٢٩٢.

[٦٢٦] تفسير حقي، ج ١ ص ١٦٧.

والخليفة الذي يرى الشكر من الشكور ويرى وجوده وشكره نعمتين من نعم المنعم ورؤية المنعم والنعمة نعمة أخرى إلى غير نهاية، فَيُعْلَمُ أن لا يقوم بأداء شكره ولا يشكره إلا الشكور.

والشكر على ثلاثة أوجه:

١ . شكر بالأقوال.

٢ . شكر بالأعمال.

٣ . شكر بالأحوال.

فشكر الأقوال: أن يتحدث بالنعم مع نفسه أسرارا ومع غيره إظهارا ومع ربه افتقارا كما قال تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث).

وشكر الأعمال: أن يصرف نعمة الله في طاعته ولا يعصيه بها ويتدارك ما فاته من الطاعات وبادره من المعاصي كقوله تعالى: (اعملوا آل داود شكرا).

وشكر الأحوال: أن يتجلى المنعم بصفة الشكورية على سر العبد فلا يرى إلا المنعم في النعمة والشكور في الشكر ويرى المنعم في النعم والنعمة من المنعم والشكور في الشكر[٦٢٧].

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[٦٢٨]. وأفادت الآية أن خواص الله فيهم قليلة مصداقا لقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهذا في كل زمان لكن الشيء العزيز القليل أعلى بهاء من الكثير الذليل. فالقليل الشكور هو المستخلف المراد به استعمار الأرض والإصلاح دون سفك دماء فيها بغير حق.

---

[٦٢٧] تفسير حقي ، ج ٢ ص ٢٩.

[٦٢٨] البقرة ٢٤٦.

ومع أن الإنسان لم يُخلق كاملا إلا أنه خُلق في أحسن تقويم عقلا وصورة ودلالة ظاهرة وباطنة، ولهذا فهو القادر على التمييز والإدراك الواعي مع الإحساس والاستنباط والاستقراء مما يؤهله لأن يكون الخليفة، ولكن أكثرهم لا يؤمنون وهذه نقيصة في حق من خلق في أحسن تقويم. وهؤلاء ومن هو على مثلهم لا يستطيعون حمل الرسالة التي يُراد لهم الاستخلاف بها.

ويقصد بالإنسان الخليفة الذي ملأ الإيمان قلبه وعرف الباطل فاجتنبه ونهى عنه، وعرف الحق فأحقه وناصره ولهذا كان الأنبياء هم أول المستخلفين فيها، ويأتي من بعدهم خلفاء مهديون يسيرون على منهجهم لعبادة الله وتعمير الأرض والأخذ على يد المفسدين وهؤلاء هم خاصة الله في عباده الذين عليهم العبء الأكبر في عمارة الأرض.

الشكور: المبالغ في أداء الشكر على النعماء والبلواء بان يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته وأغلب أحواله ومع ذلك لا يوفى حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر[٦٢٩].

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى أن لا يستعملها في معاصيه بل في طاعاته". وعن جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول: (إن داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى) وعن النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا إن داود أشكر العابدين وأيوب صابر الدنيا والآخرة[٦٣٠].

وقوله (قليل من عبادي الشكور) يشير إلى قلة من يصل الى مقام الشكورية وهو الذي يكون شكره بالأحوال. والشكور هو الله تعالى لقوله تعالى: {إن ربنا لغفور شكور}[٦٣١] أي أنه هو الذي يغفر للمذنبين، ويشكر المطيعين الشاكرين له سرا وعلانية (تسبيحا وعملا نافعا).

---

[٦٢٩] تفسير حقي ، ج ١١ ، ص ١٨٣.

[٦٣٠] السابق، ج١١، ص ١٨٣.

[٦٣١] فاطر ٣٤.

وقد وصف الله سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام (إنه كان عبدا شكورا)، وجاء هذا الوصف في القرآن الكريم الذي ارتضاه الله ليكون المنهج الخاتم للإنس والجن ولنرى كيف كان سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عبدا شكورا:

قال تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[٦٣٢]. قال سبحانه: (وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب) أي أعطينا موسى التوراة، (وَجَعَلْنَاهُ هُدًى)، يعنى التوراة هدى، (لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) من الضلالة، (أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً) يعنى ولياً، وفيها تقديم. يا (ذُرِّيَّةَ) آدم، (مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) في السفينة، ألا تتخذوا من دوني وكيلاً، يعنى ولياً، قال سبحانه: (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)، فكان من شكره أنه كان يذكر الله عز وجل حين يأكل ويشرب، ويحمد الله تعالى حين يفرغ، ويذكر الله سبحانه حين يقوم ويقعد، ويذكر الله جل ثناؤه حين يستجد الثوب الجديد، ويذكر الله عز وجل حين يدخل ويخرج، وينام ويستيقظ، ويذكر الله جل ثناؤه بكل خطوة يخطوها، وبكل عمل يعمله، فسماه الله عز وجل عبداً شكوراً[٦٣٣]. أي انه المتصف بالشكر لله تعالى. ولهذا كان نوح عليه الصلاة والسلام (كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) أي أنه كثيرَ الشكر في مجامع حالاتِه، وفيه إيذانٌ بأن إنجاءَ مَنْ معه كان ببركة شكرِه عليه الصلاة والسلام وحثٌّ للذرية على الاقتداء به وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكُفرانِ. وكان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء جردني وإذا تغوط قال: الحمد لله الذي اخرج عنى أذاه في عافية ولو شاء حبسه – روى – أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجا آثره به وفيه إيذان بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره عليه السلام وحث الذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران. فلما بالغ في الشكر سمى شكورا فالله تعالى بالغ في ازدياد النعمة جزاء لمبالغته في الشكر

---

[٦٣٢] الإسراء، ٢ ، ٣.

[٦٣٣] تفسير مقاتل ، ج ٢ ، ص ٢٥٠.

حتى انعم على ذرية من حملهم مع نوح وهم بنو إسرائيل بإيتاء التوراة الهادية الى التوحيد المنجية من الشرك[٦٣٤].

وأول الخلفاء هم أول العابدين، وأول العابدين هم الأنبياء. قال تعالى:{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}[٦٣٥]. عن ابن عباس في قوله: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي[٦٣٦].

وقال أبو صخر: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أي: أول من عبده ووحده وكذبكم[٦٣٧].

والخليفة هو الذي يجتهد لإظهار الحق وإرشاد الناس لطريق النور عملا واقتداءً بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من هدي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وهذا الدور نفسه الذي أرسل الله من أجله سيدنا موسى عليه الصلاة السلام ولا يفهم ذلك ولا يقتدي به إلا العبد الخليفة الصبار الشكور قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٦٣٨].

فالنبي صلى الله عليه وسلم جاء ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الشكر والتوحيد، والشكر بإثبات النعمة للمنعم الأصلي الذي وهبها والكفر بحجب إثبات تلك النعمة عن

---

[٦٣٤] حقي ، ج٧ ص ١٧٢.

[٦٣٥] الزخرف، ٨٠ . ٨٤.

[٦٣٦] تفسير ابن كثير، ج ٧ ، ص ٢٤٢.

[٦٣٧] المصدر السابق ص ٢٤٣.

[٦٣٨] إبراهيم ٤، ٥.

خالقها، والله يكفر الذنوب أي يغطيها ولا يكشف ستر العبد لذا فمن أراد العبودية الحقّة فعليه بكشف حقيقة النعمة التي يتقلب فيها وإظهارها إلى النور بردها إلى الله وشكره عليها وهذا دور الخليفة الذي لا يكل ولا يمل من العمل شكرا لله وحث الآخرين على إتباع ذلك النهج وهو بذلك يخرجهم من ظلم الجحود وظلام إنكار النعمة بإثباتها لغير واجدها وواهبها إلى النور، نور الشكر والاعتراف بأن كل النعم من الله ولا يستحق الشكر عليها غيره، ولكن أعوان الضلال يريدون أن يعيش الناس في ظلمات الكفر، والله يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور لذا أرسل الرسل وختمهم بخير رسول وأكمل رسالة وأتم منهج وجعل فيه الخلافة الحقيقية على الأرض وتعهد بنشر منهجها وعلو نورها على جميع الأنوار فيقول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[٦٣٩].

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ) أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: (وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحق: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها" [٦٤٠].

---

[٦٣٩] التوبة، ٣٢، ٣٣.

[٦٤٠] صحيح مسلم ، ج٤، ص ٣٢٨.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة"[٦٤١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر"، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية[٦٤٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها"[٦٤٣].

ومقام الشكر يأتي بالاستغراق في العبادة فرضا ونافلة وبكل الجوارح وبالظاهر والباطن وعلى جميع الأوجه، وبهذا تتحقق الخلافة الآدمية على الأرض يقول الله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٦٤٤].

(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) نعت لأولى الألباب أي يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين (يتفكرون في خلق السموات والأرض) يعنى يعتبرون في خلقهما[٦٤٥].

وفى التفضيل وجهان: أحدهما: أن التفكر يوصلك الى الله والعبادة توصلك إلى ثواب الله والذي يوصلك الى الله خير مما يوصلك الى غير الله.

---

[٦٤١] المسند ، ج ٥، ص ٣٦٦ .

[٦٤٢] المسند، ج ٤، ١٠٣، وقال الهيثمي في المجمع ، ٦ ، ص ١٤ .

[٦٤٣] تفسير ابن كثير، ج ٤ ، ص ١٣٦.

[٦٤٤] آل عمران ١٩١.

[٦٤٥] » كشف الخفاء، ج ١ ، ص ٣١٠.

والثاني: إن التفكر عمل القلب والطاعة عمل الجوارح والقلب اشرف من الجوارح فكان عمل القلب اشرف من عمل الجوارح.

ثم شرع في تعليم الدعاء تنبيها على أن الدعاء إنما يجدي ويستحق الإجابة إذا كان بعد تقديم الوسيلة وهى إقامة وظائف العبودية من الذكر والفكر فقال (ربنا) يعنى يتفكرون ويقولون ربنا (ما خلقت هذا)[٦٤٦].

والشكر يكون بالعمل لا بالقول فقط وهذا الذي يقوم به الخليفة بصفته الوارث للأخلاق المحمدية والذي يعمل جاهدا على نشرها اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم

فعَنْ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: (إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[٦٤٧].

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّة الصَّلَاة لِلشُّكْرِ، وَفِيهِ أَنَّ الشُّكْر يَكُون بِالْعَمَلِ كَمَا يَكُون بِاللِّسَانِ كَمَا قَالَ اللَّه تَعَالَى (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: ظَنَّ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ سَبَب تَحَمُّله الْمَشَقَّة فِي الْعِبَادَة أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْبُد اللَّه خَوْفًا مِنْ الذُّنُوب وَطَلَبًا لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَة فَمَنْ تَحَقَّقَ أَنَّهُ غُفِرَ لَهُ لَا يَحْتَاج إِلَى ذَلِكَ، فَأَفَادَهُمْ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقًا آخَر لِلْعِبَادَةِ وَهُوَ الشُّكْر عَلَى الْمَغْفِرَة وَإِيصَال النِّعْمَة لِمَنْ لَا يَسْتَحِقّ عَلَيْهِ فِيهَا شَيْئًا فَيَتَعَيَّن كَثْرَة الشُّكْر عَلَى ذَلِكَ، وَالشُّكْر الِاعْتِرَاف بِالنِّعْمَةِ وَالْقِيَام بِالْخِدْمَةِ، فَمَنْ كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ سُمِّيَ شَكُورًا، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ سُبْحَانه وَتَعَالَى: (وَقَلِيل مِنْ عِبَادِي الشَّكُور). وَفِيهِ مَا كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الِاجْتِهَاد فِي الْعِبَادَة وَالْخَشْيَة مِنْ رَبّه، قَالَ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا أَلْزَم الْأَنْبِيَاء أَنْفُسهمْ بِشِدَّةِ الْخَوْف لِعِلْمِهِمْ بِعَظِيمِ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ اِبْتَدَأَهُمْ بِهَا قَبْل اِسْتِحْقَاقهَا. فَبَذَلُوا مَجْهُودهمْ فِي عِبَادَته لِيُؤَدُّوا بَعْض شُكْره، مَعَ أَنَّ حُقُوق اللَّه أَعْظَم مِنْ أَنْ يَقُوم بِهَا الْعِبَاد[٦٤٨].

---

[٦٤٦] المصدر السابق، ج٢ ، ص ٣٧٤.

[٦٤٧] فتح الباري لابن حجر، ج ٤ ، ص ١١٠.

[٦٤٨] السابق، ص ١١٠.

وهذه مرتبة الشكورية عند الأنبياء وعلينا أن نقتدي بهم ونعمل بهديهم؛ وقد ذكر الله في كتابه صفات الشكور التي سبقها صفة (صبار) فلنقطف من بساتين القرآن لنتذوق ما قيل في هذا الموضوع حول الشكور من العباد من غير الأنبياء قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }[٦٤٩].

(لّكُلّ صَبَّارٍ) على بلائه (شَكُورٍ) لنعمائه، وقيل: لكل مؤمنٍ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشعار بأن الصبرَ والشكرَ عنوانُ المؤمن أي لكل مَن يليق بكمال الصبرِ والشكر أو الإيمان، فإن من تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَنْ قبله من النعماء والبلاءِ وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقهما، وتقديمُ الصبَّار على الشكور لتقدم متعلَّقِ الصبر أي البلاء على متعلّق الشكر أي النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر[٦٥٠].

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}[٦٥١].

(إِنَّ في ذلك لآيات لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) تعليلٌ لما قبله أيْ إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتِها كثيرةً في عددِها لكلِّ مَن يُبالغ في الصَّبرِ على المشاقِّ فيتعبُ نفسَه في التفكرِ في الأنفسِ والآفاقِ ويبالغُ في الشُّكرِ على نعمائِه وهما صِفتا المُؤمنِ فكأنَّه قيلَ لكلَّ مؤمنٍ (وَإِذَا غَشِيَهُمْ) أي علاهُم وأحاطَ بهم (مَّوْجٌ كالظلل) كما يظل من جبلٍ أو سحابٍ أو غيرِهما. (دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين) لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهوَى والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ (فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ) أي مقيمٌ على القصدِ السويِّ الذي هو التَّوحيدُ أو متوسطٌ في الكُفر لانزجارِه في الجُملةِ (وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ) غدَّارٍ فإنَّه نقصٌ

---

[٦٤٩] إبراهيم ٥.

[٦٥٠] تفسير أبي السعود، ج ٤ ، ص ١٨.

[٦٥١] لقمان ٣١.

للعهدِ الفطريَّ أو رفضٌ لما كان في البحرِ. والخترُ أشدُّ الغدرِ وأقبحُه. (كَفُورٍ) مبالغٌ في كفرانِ نعمِ الله تعالى[٦٥٢].

(إِنَّ فِي ذَلِكَ) أي فيما ذُكر من قصَّتهم (لآيَاتٍ) معجزات عظيمةً (لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أي شأنه الصَّبرُ عن الشَّهواتِ ودواعي الهَوَى وعلى مشاقِّ الطَّاعاتِ والشُّكرُ على النِّعمِ. وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنهم المُنتفعون بها[٦٥٣].

(لِّكُلِّ صَبَّارٍ) كل صبور على أمر الله، (شَكُورٍ) لله تعالى في جميع الأحوال وعلى كل النعم[٦٥٤].

والإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر لا ينزل هذه المنزلة إلا المؤمن الذي ارتضاه الله للخلافة وذلك الخير كله؛ وفي ذلك يقول الخليفة الأمثل السراج المنير والهادي إلى الطريق المستقيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا"[٦٥٥].

وفي الحديث أيضا: "وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَدْعُو بِهِنَّ فِي صَلَاتِنَا أَوْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلَاتِنَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ"[٦٥٦]

حَدَّثَنَا عَبْد اللَّهِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدَّثَنَا أَبُو وَكِيعٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى

---

[٦٥٢] تفسير أبي السعود، ج ٥ ، ص ٣٠٣

[٦٥٣] تفسير أبي السعود، ج ٥ ، ص ٣٦٩

[٦٥٤] تفسير مقاتل، ج٣، ص ٢١٠.

[٦٥٥] مسند أحمد، ج ٣٨ ، ص ٤٠١

[٦٥٦] مسند أحمد، ج ٣٤ ، ص ٤٩٧.

هَذِهِ الْأَعْوَادِ أَوْ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ: "مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ"[٦٥٧].

(صبَّار) مبالغ في الصبر على طاعة الله وعلى البلايا (شكور) مبالغ في الشكر على النعم والعطايا كأنه قال لكل مؤمن كامل إذ الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر[٦٥٨].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "لينظر العبدُ في نعم الله عليه في بدنه وسمعه وبصرِهِ ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيءٌ إلاَّ وفيه نعمةٌ من الله – عز وجل –، حقٌّ على العبد أنْ يعملَ بالنِّعم التي في بدنه لله – عز وجل – في طاعته، ونعمة أخرى في الرزق، حق عليه أنْ يعمل لله – عز وجل –، فمن عمل بهذا ، كان قد أخذ بحزم الشُّكر وأصله وفرعه"[٦٥٩].

ورأى الحسن رجلاً يتبختر في مشيته، فقال: للهِ في كُلِّ عُضوٍ منه نعمة، اللهمَّ لا تجعلنا ممن يتقوَّى بنعمك على معصيتك.

والشكر المستحبُّ هو أنْ يعملَ العبدُ بعد أداءِ الفرائض، واجتنابِ المحارم بنوافل الطَّاعات، وهذه درجةُ السَّابقين المقرَّبين، وهي التي أرشد إليها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، وكذلك كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يجتهد في الصَّلاة، ويقوم حتَّى تتفطَّر قدماه، فإذا قيل له: أتفعلُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: "أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟"[٦٦٠].

والله ما خلقنا ليعذبنا فإن عذابنا لا ينفعه ولا يضره ولكننا بالشكر له وبالإيمان به يشكر الله لنا بمغفرته وحسن ثوابه، والشكر يحتاج إليه العبد لأنه بالشكر يأمن غضب الله وعذابه ويزيده من واسع فضله؛ والله غني عن شكرنا ولا يفيده ذلك الشكر ولا يزيد في ملكه شيء، ولا ينقص من ملكه شيء بعدم الشكر، لكن الله تعالى يقابل الشكر بالشكر والثواب

---

[٦٥٧] مسند أحمد، ج ٣٧ ، ص ٤٠٣.

[٦٥٨] تفسير حقي – ج ٦ ص ٣٠٠.

[٦٥٩] جامع العلوم والحكم ، ج ٢٧ ، ص ٢٠.

[٦٦٠] تفسير حقي ج٦، ص ٣٠٠.

الجزيل[٦٦١]. يقول سبحانه وتعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثار، أم يستجلب به نفعاً، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم وهو الغنيّ الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك. وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء، فإن قمتم بشكره على نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب (وَكَانَ الله شاكرا) مثيباً موفياً أجوركم (عَلِيماً) بحق شكركم وإيمانكم. فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً[٦٦٢]. فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره .

ومن فضل الشكر الرحمة والمغفرة ومنح الذرية وإن انتفت أسبابها وذلك كما حدث مع نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[٦٦٣]. فقيل أنه صام عن الكلام إلا الشكر لله عزّ وجل، وحبس لسانه عن كلام الناس ليخلص في هذه المدّة لذكر الله ولا يشغل لسانه بغيره، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر[٦٦٤].

وعن الشكر بين المهاجرين والأنصار وتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم لهم حتى يكونوا قدوة في الشكر: عن أنس بن مالك قال: "قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم

---

[٦٦١] المصدر السابق، ج ١ ص ١٦٧.

[٦٦٢] الكشاف، ج١ ، ص ٤٨٢.

[٦٦٣] مريم ٣٨ . ٤١.

[٦٦٤] السابق، ج١ ، ص ٢٧٤.

قدمنا عليهم أحسن مواساة في قيل، ولا أحسن بذلا من كثير، كفونا المؤنة وأشركونا في المهني، حتى لقد خشينا أن قد ذهبوا بالأجر كله. قال: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتهم لهم. قال أبو بكر: فَلَو كانَ يَستَغني عَنِ الشُّكرِ ماجِدٌ ... لِعِزَةِ مُلكٍ أَو عُلُوِّ مَكانِ لَما أَمَرَ اللَهُ العِبادَ بِشُكرِهِ ... فَقالَ: اشكُروا لي أَيُّها الثَقَلانِ. و عن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لجليس له يوما: اشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك، فإنه لا نفاد للنعم إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغِير"[٦٦٥].

هكذا تنقلنا بين الاسم الشكور على الخالق سبحانه وتعالى، وعلى المخلوق الذي يفترض فيه التفاني في الشكر ليصل إلى مرتبة الشكورية لينعم الله عليه بالتجلي بالاسم الشكور الذي فيه توفية العبد لما قدم من عمل وزيادة تليق برب العالمين وليكون أهلا للخلافة في الأرض.

اللهم أجعلنا من الحامدين الشاكرين الذين يقولون الحق ويعملون عليه ويعملون به، ويجتنبون الباطل ويعملون على إزهاقه، ويصلحون في الأرض ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق واستغفر الله العظيم عن أية مخالفة أو خطأ أو ذنب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم لك الحمد والشكر على ما خلقت وأنعمت وحفظت وهيمنت ورحمت وعفوت وسلَّمت من الشرور والأضرار ومن الحاجة والفاقة ومن الألم والعناء يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى، اللهم لك الشكر على خلقك وإحيائك وإماتتك وبعثك لنا مسلمين مؤمنين بك واحداً أحداً لا شريك لك سبحانك جل جلالك، اللهم لك الشكر على خلقك للجنة والنار ليكون الفوز للمتقين بالجنة وتكون لهم عقبى الدار (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)[٦٦٦].

---

[٦٦٥] فضيلة الشكر لله على نعمته ، ج ١ ص ٩.

[٦٦٦] الرعد ٢٣ . ٢٥.

اللهم يا الشكور إننا نشكرك على استخلافك لنا في الأرض ونشكرك لخلقك لنا في أحسن تقويم، ونشكرك على أمرك لنا بطاعة الوالدين في غير معصيتك، ونشكرك على وحدانيتك واحداً أحداً لا شريك لك، ونشكرك على كل ما فرضت لنا وفرضت علينا، إنك أنت الشكور فلا تجعلنا جاحدين نعمك، اللهم يا من تفضّلت علينا بالكثير تفضل علينا بنعمة شكرك لأنه ما من فضلٍ أصابنا إلا منك، واجعل شكرنا في الضرّاء والسراء على السواء، فلا نطلب شكر سواك بل نطلب رضاك عنا، اللهم اجعلنا شاكرين لك ولآبائنا كما أمرتنا في كتابك الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[٦٦٧].

---

[٦٦٧] لقمان ١٤.

الْعَلِيُّ

العلي: "هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه"[٦٦٨].

الْعَلِيِّ: "إِنَّهُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ فِيمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ مَعَالِي الْجَلالِ أَحَدٌ ، وَلا مَعَهُ مَنْ يَكُونُ الْعُلُوُّ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، لَكِنَّهُ الْعَلِيُّ بِالإِطْلاقِ"[٦٦٩].

حتى نستطيع أن نستجلي بعضا من ملامح الاسم العلي علينا أن نستكشف اللغة وما فيها حول الاسم من معان لنتعرف على ثلاث مراتب للاسم هي:

-المرتبة الأولى:

الله بوصفه العلي في الأصل وما دونه العلي بالإضافة.

-المرتبة الثانية:

ما يخص الخليفة وهو العلي بالإضافة وفي هذه المرتبة يندرج الأنبياء ومن سار على نهجهم الذين تواضعوا لله فرفعهم الله وألبسهم ثوب العلي.

-المرتبة الثالثة:

تخص الأشقياء المتكبرون الذين أرادوا أن يتصفوا بهذا الوصف بالتجبر والبغي والقهر والظلم فقسمهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته.

الْعَلِيُّ لغَةً:

من أسمائه تعالى العلىُّ ، فالعليّ الذي ليس فوقه شيء وعلا الخلق فقهرهم بقدرته، ويكون بمعنى العالي الذي لا يعلوه أحدا سبحانه فوق كل شيء.

فالعلي من حيث المعنى يتضمن الأعلى والعالي فهو يفوقهما لأنه ليس هناك من صفة تدل على الرفعة والعلو المتناهي إلا العلي.

---

[٦٦٨] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٦.

[٦٦٩] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ٥٤.

واللهُ عز وجل هو العَليّ تَعالى عَمَّا يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً، والعلي هو الذي يُدرَك عقلا ومعرفة ولا يُرى بالأبصار وذلك لتناهيه في العلو والرفعة، ومع أنه لا مثيل له في شيء، إلا أن صفات علوه تستمد ويستخلف بها في الأرض، ويُورَّث بها في الجنة، ولذا فمن يستمد صفاته منه لا يدخل النار أبدا.

والعلي لغة مصدر لكل علو، وهو ما يدل على الرفعة في القول والفعل، وهو على كل شيء قدير، ولذا فهو الفعَّال لما يُريد. فالعليّ الذي ليس فوقه شيء وعلا الخلق فقهرهم بقدرته، ويكون بمعنى العالي والأعلى الذي هو أعلى من كل عال.

والعلي بالإضافة: هو المستخلف بعلوه في الأرض عن كل نقيصة قولية أو فعلية، وذلك بإتباع ما أمر به العلي المطلق والانتهاء عما نهى عنه إيمانا تاما وقصدا واضحا لا يصاحبه تردد ولا شك. وهو المصلح في الأرض، الممتنع عن الفساد وسفك الدماء فيها بغير حق، ويجاهد بنفسه في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل. ولذلك فمن يعلو في الأرض بغير ذلك طغى وتكبر، مصداقا لقوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا}[٦٧٠].

قال الأزهري في تفسيره للصفات الحسان سبحانه يَقْرُب بعضُها من بعض فالعَلِيُّ الشريف من عَلا يَعْلُو وهو بمعنى العالِي وهو الذي ليس فوقه شيء ويقال هو الذي عَلا الخلقَ فَقَهَرهم بقدرته[٦٧١].

ويكون العُلي جمع الاسم الأَعْلى وصفةُ الله العُلْيا شهادةُ أَنْ لا إله إلا الله فهذه أَعلى الصفات ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له ولم يزل الله عَلِيّاً عالياً متعالياً تعالى اللهُ عن إِلحاد المُلْحِدين وهو العَلِيُّ العظيم[٦٧٢].

---

[٦٧٠] الإسراء ٤.

[٦٧١] تاج العروس، ج ١ ، ص ٨٥٠٨

[٦٧٢] لسان العرب، ج ١٥ ، ص ٨٣

والعُلُوُّ العظَمة والتَّجبُّر، قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٦٧٣]. تلك الدار إشارة للجنة وفخامتها وعظمتها التي سيرثها بالحق الخلفاء في الأرض، وهم الذين يريدون العلو في الجنة ولا يردون علوا في الأرض، وذلك لأن العلو في الجنة لا يتحقق إلا بطاعة تامة وتواضع في الأرض، ولهذا فمن تواضع لله رفعه، ومن افسد فيها لا ينال جزاءاً ولا شكورا قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٦٧٤]. ولهذا فالعاقبة للمتقين الذين آمنوا ولم يشركوا وانتهوا فتابوا وهم الذين استثناهم الله تعالى من العقاب والعذاب فغفر لهم ورحمهم بواسع فضله، وفي مقابل ذلك لا ينال عهد الله الظالمين {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[٦٧٥]. يفهم من هذه الآية الكريمة إن الظلم هو الاستثناء والعدل هو القاعدة والحمد لله رب العالمين، ولذا {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٦٧٦].

وعليه الله عليٌّ فيغفر ويرحم ويكفِّر عن السيئات ويجازي بالجنة، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد فهو العادل في ملكه سبحانه جل جلاله، ولذا **فالذين لا يريدون علوا في الأرض هم الخلفاء فيها بالصفات الآتية:**

---

[٦٧٣] القصص ، ٨٣، ٨٤.

[٦٧٤] المائدة ٣٢ . ٣٤.

[٦٧٥] البقرة ١٢٤.

[٦٧٦] القصص ٨٤.

١ . **الإيمان:** قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[٦٧٧]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}[٦٧٨] وقال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}[٦٧٩].

٢ . **الإصلاح:** قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٦٨٠]، وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[٦٨١].

٣ . **العدل:** قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[٦٨٢]، وقال تعالى: {وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}[٦٨٣]. وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٦٨٤].

٤ . **الأمر بالمعروف:** قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ

---

[٦٧٧] النساء، ٥٧.

[٦٧٨] النساء ١٢٤.

[٦٧٩] الإسراء ١٩.

[٦٨٠] البقرة، ٨٢.

[٦٨١] النساء، ١١٤ . ١١٦.

[٦٨٢] البقرة، ٤٨.

[٦٨٣] الأنعام ٧٠.

[٦٨٤] النساء، ٥٨.

بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٦٨٥]، وقال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٦٨٦]

٥ . **النهي عن المنكر.** قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ}[٦٨٧]، وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٦٨٨] وقال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[٦٨٩].

٦ . **إحقاق الحق:** قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}[٦٩٠]، وقال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٦٩١]، وقال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[٦٩٢]. وقال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[٦٩٣]

٧ . **إزهاق الباطل.** قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[٦٩٤]، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٦٩٥].

---

[٦٨٥] البقرة، ١٧٨.

[٦٨٦] آل عمران ١٠٤.

[٦٨٧] الأعراف ١٦٥.

[٦٨٨] آل عمران، ١١٠.

[٦٨٩] الحج، ٤١.

[٦٩٠] الكهف، ٨٨.

[٦٩١] البقرة، ٤.

[٦٩٢] سبأ ٤٩.

[٦٩٣] الأنفال، ٧، ٨.

[٦٩٤] الأنبياء ١٨.

٨ . **الإقدام على ما يجب في مرضات الله:** قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}[٦٩٦]، وقال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}[٦٩٧].

٩ . **الانتهاء عما يجب الانتهاء عنه طاعة لله.** قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[٦٩٨]، وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٦٩٩].

١٠ . **الإيفاء بعهد الله: قال تعالى:** {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}[٧٠٠] وقال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}[٧٠١].

١١ . **الاتقاء:** قال تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

[٦٩٥] الإسراء ٨١.

[٦٩٦] النساء ٨٥.

[٦٩٧] الليل ١٧ . ٢١.

[٦٩٨] المائدة، ٩١، ٩٢.

[٦٩٩] النحل ٩٠.

[٧٠٠] النحل، ٩١.

[٧٠١] الرعد ١٩ . ٢٢.

الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ}[٧٠٢]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[٧٠٣].

١٢ . **الاهتداء:** قال تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[٧٠٤]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}[٧٠٥]، وقال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[٧٠٦].

١٣ . **الإحسان:** قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٧٠٧]، وقال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[٧٠٨].

وفي مقابل ذلك المتعالون والمفسدون في الأرض هم:

١ . **الكفرة الفجرة:** قال تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[٧٠٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

---

[٧٠٢] النحل، ٣٠، ٣١.

[٧٠٣] الرعد ٢٨.

[٧٠٤] الأنعام، ٨٢، ٨٣.

[٧٠٥] الرعد ١٠٨.

[٧٠٦] الإسراء ١٥.

[٧٠٧] يونس، ٢٦.

[٧٠٨] الإسراء ٢٣٢٤.

[٧٠٩] عبس، ٤٠ . ٤٢.

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[٧١٠]

٢ . **سافكو الدماء فيها بغير حق:** {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[٧١١]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٧١٢].

٣ . **المفسدون في الأرض:** قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[٧١٣]

٤ . **العتاة المتكبرون:** قال تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[٧١٤]، وقال تعالى: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[٧١٥].

---

[٧١٠] الإسراء، ١٥٠، ١٥١.

[٧١١] آل عمران، ٢١، ٢٢.

[٧١٢] البقرة، ٣٠.

[٧١٣] البقرة، ٨ . ١٦.

[٧١٤] الأعراف، ١٦٥، ١٦٦.

[٧١٥] النحل، ٢٩.

٥ . **الظلمة:** قال تعالى: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا}[٧١٦]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[٧١٧].

٦ . **المسيئون:** قال تعالى: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٧١٨] وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٧١٩]، وقال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[٧٢٠].

٧ . **العصاة:** قال تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[٧٢١]، وقال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[٧٢٢].

٨ . **المغرورون:** قال تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ}[٧٢٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[٧٢٤]، وقال تعالى: {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى

---

[٧١٦] الكهف، ٨٧.

[٧١٧] الطلاق، ١.

[٧١٨] البقرة، ٨١.

[٧١٩] يونس، ٢٧.

[٧٢٠] الأنعام، ٣١

[٧٢١] البقرة، ٦١.

[٧٢٢] آل عمران ١١٢.

[٧٢٣] الأنعام ٧٠.

[٧٢٤] فاطر ٥.

جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[٧٢٥].

٩ . **العاجلون:** قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا}[٧٢٦]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}[٧٢٧].

١٠ . **المتفرقون والمختلفون من بعد البينات:** قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٧٢٨]، وقال تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}[٧٢٩]، وقال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٧٣٠].

١١ . **ناقضو العهد:** قال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[٧٣١]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[٧٣٢].

---

[٧٢٥] الحديد، ١٤، ١٥.

[٧٢٦] الإسراء ٨.

[٧٢٧] مريم، ٨٣، ٨٤.

[٧٢٨] آل عمران ١٠٥.

[٧٢٩] الشورى ١٤

[٧٣٠] البقرة، ١١٣، ١١٤.

[٧٣١] البقرة، ٢٧.

[٧٣٢] الرعد، ٢٥.

١٢ . ناقضوا الإيمان بعد توكيدها: قال تعالى: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[٧٣٣]، وقال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}[٧٣٤].

١٣ . المنافقون: قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[٧٣٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[٧٣٦].

قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٧٣٧]. جاءت خاتمة هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: (وهو العلي العظيم) وكأن هذه إجابة على تساؤل ضمني مفاده من هو الله؟.

هو العلي العظيم.

. من هو الذي لا إله إلا هو؟.

هو العلي العظيم.

. من هو الحي القيوم؟.

هو العلي العظيم.

---

[٧٣٣] النحل، ٩١.

[٧٣٤] آل عمران، ١٦٧.

[٧٣٥] النساء، ١٣٨، ١٣٩.

[٧٣٦] النساء، ١٤٢، ١٤٣.

[٧٣٧] البقرة ٢٥٥.

. من الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟.

هو العلي العظيم.

. من الذي له ما في السماوات وما في الأرض؟.

العلي العظيم.

. من ذا الذي لا يُشفِع عنده إلا بإذنه؟.

العلي العظيم.

من ذا الذي يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ؟.

العلي العظيم.

. من ذا الذيَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ؟.

العلي العظيم.

. من ذا الذي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟.

العلي العظيم.

. من ذا الذيَ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا؟.

العلي العظيم.

. ومن هو العلي العظيم؟.

هو (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهو العلي العظيم). ولذا هو هو، لا إله إلا هو جل جلاله.

{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ} أي: نعاس {وَلا نَوْمٌ}؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا {يَشْفَعُ عِنْدَهُ} أحد {إِلا بِإِذْنِهِ} فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، وإتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها {وَمَا خَلْفَهُمْ} من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله {إِلا بِمَا شَاءَ} منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: {سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا}.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك {لا يَئُودُهُ} أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ} بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

{الْعَظِيمُ} الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء والكمال، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

ثم نجد أن هناك فريقين من الناس:

الأول: الذي سار في طاعة الله وهم الأنبياء والرسل والصالحون والأولياء الذين تولوا الله ورسله وهؤلاء تتحقق فيهم وبهم الخلافة التي أنزل الله آدم وذريته الأرض بسببها وهذا الفريق يتواضع للعلي العظيم في الدنيا فيرفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة.

الثاني :الذي سار في طريق المعصية والعلو علي الأمر الإلهي والتكبر على الخلق البسطاء بقهرهم وبسط النفوذ الكاذب عليهم وإرهابهم لمنازعة الله في صفة لا تحق له وهي العلو والكبر.

لذلك فإَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ"[٧٣٨].

فالفريق الأول؛ فريق الحق أي فريق الخلافة الذي يتواضع لله وفي الله ولله ويعلو بالله ولله فإن تولَّ الملك عدلْ وإن حاز المال أنفق وإن تولى القضاء أنصف ليحق الحق ويبطل الباطل ويقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه ويزهقه من خلال الخليفة الذي يعلو بالحق للحق ليقهر الباطل ويمحقه ويزيله.

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة فلما أعلاه الله وأعزه وقذف به على جحافل الكبر والشر أزال رموز الجهل والاستعباد التي لا تنفع ولا تضر فقد جاء في السيرة: عن ابن عمر،: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة وجد بها ثلاثمائة وستين صنما، فأشار إلى كل صنم بعصا وقال: " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " فكان لا يشير إلى صنم إلا ويسقط من غير أن يمسه بعصاه"[٧٣٩].

لذا فالخليفة منوط به أن يعلي الحق ويظهره وأن يقهر الباطل ويقبره وأن يحطم أصناما ظهرت في هذا العصر من جهل وتخلف وتبعية وعبودية وذلك بنشر العلم والمعرفة فهما حق طبيعي لكل إنسان، وأن يحّرض الآخرين علي تولي المسئولية بعزة وشرف وأن يزرع في

---

[٧٣٨] مسند أحمد ، ج ٢٣ ، ص ٣٤٤

[٧٣٩] السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣ ، ص ٥٧٢

نفوسهم أنهم سادة وما استعبدوا إلا لأنهم رضوا بالذل طوعا، وكما أن الملك لله لذا فالإنسان خليفته وعليه أن يضع فوق رأسه تاجا من العزة والكرامة ولا ينحني إلا لله صاحب العزة والعلو والسلطان الذي لا يزول ومن يقوم بهذا الدور فقد أحيا الخلافة للاسم العلي في نفسه وفي الآخرين.

والله أعلى وأكبر وأجل وأعظم فهو غني عن خلقه حتى بإظهار علوه عليهم لأنه عليّ في ذاته وقد عرف هذا العلو العارفون به المتحقّقون. أن جلاله يملأ قلوبهم فيظهر أثر ذلك الجلال تواضعا له في خلقه.

وعليه، فعلى الخليفة أن يسبح باسم الله العلي العظيم الذي يحيطه بالعناية ويحفظه من كل شيء ضار أو مخيف. ولأنه جل جلاله هو العلي العظيم قال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٧٤٠].

والعلو بالقهر كما سبق أن بينا يكون بالغلبة فيقول الله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[٧٤١].

---

[٧٤٠] البقرة، ٣٠ ـ ٣٧.

[٧٤١] آل عمران ١٦٠.

والعلو بالجبروت وبالتفرد بالملك في الدنيا والآخرة ومن ينازعه في ملكه وفي صفاته الذاتية يأخذه أخذ عزيز مقتدر ويقسمه ولا يبالى به.

والخليفة المتحقق بنور العلي يقهر المتغطرسين المتكبرين ويقهر كذلك أذيالهم الداعين بدعوتهم المبشرين بفسادهم وكسادهم الذين يستعلون بالمال أو السلطة أو الجاه ولا يعرفون أن العلي هو الذي على كل شيء قدير.

والعلي ذو المكانة التي لا تطال والقدرة التي لا تغفل ولا تبطل بيده القوة التي بها يملك كل شيء ويقهر وسيطر على كل شيء سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله. وله ملك لا ينازعه فيه أحد من خلقه حتى ولو بالمعصية كإبليس وجنوده و أتباعه وأعوانه ومن سار على الغي والضلال والكبر والعلو في الأرض بغير الحق كفرعون وقارون وهامان ومن قلدهم وانتهج نهجهم ولم يرضوا أن يكونوا خلفاء لله ورضوا أن يكونوا خلفاء لإبليس وصدّق إبليس عليهم ظنه فأضلهم وأوردهم إلى النار وبئس المصير.

والعلي هو العلي عن النظير والأشباه، صاحب الرفعة العالية والمكانة العالية المستوي على العرش مصداقا لقوله تعالى: {تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}[٧٤٢]، بطبيعة الحال بما أن كرسيه وسع السماوات والأرض وذلك لعظمة الكرسي، فما بالك بصاحب الكرسي (خالق الكرسي) ألا يكون بحق هو الملك المتعال وهو العلي العظيم؟.

واستوى تعني سيطر بالتمام والكمال، ولذا فنرى أن العلو بالقهر والغلبة وليس بالمكان تعالى الله على ذلك علوا كبيرا فالعرش والكرسي من خلقه وهما يحيطان بالكون والله من وراء الكل محيط فهو في كل مكان وزمان بكيفية لا يعلمها إلا هو جل وعلى.

{الحي} الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر. و{القيوم} الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، قال ابن الرقاع العاملي:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

---

[٧٤٢] طه، ٤ ـ ٦.

أي لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً. {مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِندَهُ} بيان لملكوته وكبريائه. وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله تعالى: { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآَبًا إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}[٧٤٣].

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} يعلم ما يظهرونه وما لا يظهرونه وما يعلمون به وما لا يعلمون، وما كان قبلهم وما هم عليه وما سيكون من بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض لأنّ فيهم العقلاء، أو لما دل عليه {مَّن ذَا} من الملائكة والأنبياء {مّنْ عِلْمِهِ} الذي لا يعلمه إلا هو العلي العظيم {إِلاَّ بِمَا شَاءَ} إلا بما هو يريد ويعلم وهو العليم الخبير.

(الكرسي) مكان المكانة العلية، وفي قوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ} أربعة أوجه:

أحدها: أنّ كرسيه لم يضق عن احتواء واستيعاب السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته الفائقة لكل عظمة.

الثاني: وسع علمه وسمي العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم الكوني.

الثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك.

والرابع: الكرسي هو المقام العظيم والعرش الرفيع.

{وَلاَ يَؤُودُهُ} ولا يثقله ولا يشق عليه {حِفْظُهُمَا} حفظ السموات والأرض {وَهُوَ العلى} الشأن والمكانة {العظيم} الذي لا يماثله شيء في الصفات والأفعال.

وعليه، فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه. والثانية لكونه مالكاً لما يدبره. والثالثة لكبرياء شأنه. والرابعة

---

[٧٤٣] النبأ ٣٨ ـ ٤٠.

لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره[٧٤٤].

العلي الغالب الذي لا يغلب، واسْتَعْلَى على الناس غَلَبَهم وقَهَرَهُم وعَلاهُم قال تعالى: {وقد أَفْلَح اليومَ مَن اسْتَعْلى}، والاستعلاء فوز بقوة المغالبة ولأن العلي مطلق القوة فهو سيجعل خليفته في حالة استعلاء بالإضافة، ولهذا من يتوكل على الله فهو حسبه.

وفي حديث أُحدٍ قال أَبو سفيان لمَّا انْهزَم المسلمون وظَهروا عليهم "اعل هبل. فقال عمر بن الخطاب: الله أعلى وأجل، فقال : أنعمت عينا، قتل بقتلى بدر، فقال عمر: لا يستوي القتلى، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: لقد خبنا إذا، ثم انصرفوا راجعين"[٧٤٥].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنْ الْمَسْأَلَةِ: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ)[٧٤٦]. واليد العليا هي اليد النظيفة التي تتصدق وتعمل صالحا فتفلح ولا تفسد، تتضرع لله ولا تتضرع للعباد، إما اليد السفلى فهي التي تتقدم لأداء الأعمال والأفعال المشينة التي لا تليق بمن يراد له أن يكون خليفة في الأرض، ولهذا فيد الخليفة هي اليد العليا ويد المفسد وسافك الدماء فيها بغير حق دائما هي اليد السفلى. وفي هذا الحديث ارتبطت اليد العليا بما تنفق وتتصدق وتتزكى، واليد السفلى بالسائلة وعليه العمل خير فعلى الخليفة أن يعمل ويعمل كل الخير ما استطاع إليه سبيلا، واليد السفلى بشكل عام هي من تَقدِم على الأفعال المحرَّمة والمنهي عنها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى

---

[٧٤٤] الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٢٥

[٧٤٥]– مصنف عبد الرزاق، ج ٥ ، ص ٣٦٦

[٧٤٦] - موطأ مالك ، ج ٦ ، ص ١٥٦

رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[٧٤٧].

قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}[٧٤٨]. والأبرار: جمع برّ، وهم الذين برّوا الله بأداء فرائضه، واجتناب محارمه.

العلي الأوحد لأنه الإله الأحد لا إله غيره علا خلقه بعلوه وقهرهم بعظمته وقوته فلا يدانيه ولا يساويه في علوه أحد قال الله تعالى:{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٧٤٩]

وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ، لم يكن له نظير ولا شريك ولا مثيل ولا يقارن بأحد فهو واحد احد لا يتعدد وهو خالق العداد.

---

[٧٤٧] المائدة ٩٠ ـ ٩٥.

[٧٤٨] المطففين، ١٨ ـ ٣٤.

[٧٤٩] الإخلاص ١ـ ٥.

ولذا فهو العلي لأنه الواحد الذي لا ثاني له يشاركه في ملكه ولأنه سبحانه قد أبدع الملك بغير مثال سابق دون عون من أحد فهو العلي بقدرته وإبداعه لذا فلا يستطيع أي مدعٍ للربوبية أن ينسب لنفسه أو إلى غيره خلق السموات والأرض وما بينهما لان الجميع يعلمون أنه العلي الأوحد الذي خلق الخلق قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٧٥٠].

ويقول تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[٧٥١].

لهذا فلا علي بحق إلا الله لأنه خالق السموات والأرض الرازق الباسط الذي ينزل المطر بقدر وبقدرة ولا يفعل ذلك إلا العلي.

ولأنه الصمد: فهو العلي المقصود في الحوائج الكل يحتاج إليه وهو العلي لا يحتاج إلى أحد. والصمدُ بمَعْنَى مَنْ يُصمدُ إليهِ إذَا قَصَدَهُ أيْ هُوَ السيدُ المصمودُ إليهِ في الحوائجِ المُسْتغنى بذاتِهِ وَكُلَّ ما عداهُ محتاجٌ إليهِ في جميعِ جهاتِهِ وقيلَ الصمدُ الدائمُ الباقِي الذي لَمْ يزلْ وَلاَ يزالُ وقيلَ الذي يفعلُ مَا يشاءُ ويَحكمُ مَا يريدُ.

وصمديتَهُ المقتضيةَ لاستغنائهِ الذاتِيِّ عَمَّا سواهُ وافتقارِ جميعِ المخلوقاتِ إليهِ في وجودِهَا وبقائِهَا وسائرِ أحوالِهَا[٧٥٢].

---

[٧٥٠] العنكبوت، ٦١ . ٦٣.

[٧٥١] لقمان ٢٥ . ٢٨.

[٧٥٢] تفسير أبي السعود، ج ٧ ، ص ٦٨.

ولم يلد: لأنه لم يكن من المخلوقين فالذي يخلق لا يلد، الذي يلد هو الذي لا يستطيع أن يخلق وهو يُخلق، ولذا فهو العلي بقدرته المستغني بذاته عن الولد فهو لم يلد ولم يولد.

ولم يكن له كفؤا أحد: الكل يعطش ويجوع ويحتاج ويمرض ويموت وهو الحي الذي لا يحتاج ولا يجوع ولا يعطش ولا يمرض إنه الحي القيوم الذي لا تأخذه غفلة سنة ولا نوم، ولذا فهو العلي عن الحاجة لأي احد في الأرض أو السموات لأنه قد خلق من في الأرض والسموات والكل يعترف له بالعبودية لأنه علا الجميع وقهرهم بعلو قدرته وكمال عظمته.

قال الأزهري وتفسير هذه الصفات سبحانه يَقْرُب بعضُها من بعض فالعَلِيُّ الشريف من عَلا يَعْلُو وهو بمعنى العالِي وهو الذي ليس فوقه شيء ويقال هو الذي عَلا الخلقَ فَقَهَرهم بقدرته. وصفةُ الله العُلْيا شهادةُ أَنْ لا إله إلا الله فهذه أَعلى الصفات ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له ولم يزل الله عَلِيّاً عالياً متعالياً تعالى اللهُ عن إِلحاد المُلْحِدِين وهو العَلِيُّ العظيم[٧٥٣].

وتقع معاني العلو بغير حق على المفسدين الظالمين، ومن تلك المعاني التكبر والتجبر والقهر والبطش والاستعلاء والظلم، ويؤيد ذلك ما ورد في كتب اللغة ومنها:

والعُلُوُّ العَظَمة والتَّجَبُّر، وفي قوله تعالى: {تِلْكَ الدارُ الآخِرةُ نجْعَلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأَرض ولا فَساداً}[٧٥٤].

العُلُو التكبُّر في الأَرض وقال الحسن الفَسادُ المَعاصي وقال مسلم الفَسادُ أَخذ المال بغير حق، وقال تعالى: {إن فِرْعَوْنَ عَلا في الأرض} جاء في التفسير أَن معناه طَغَى في الأَرض، يقال عَلا فلانٌ في الأَرض إذا اسْتَكْبَرَ وطَغَى، وقوله تعالى: {ولَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيراً} معناه لَتَبْغُنّ ولَتَتَعَظَّمُنّ، ويقال لكل: مُتَجَبِّر قد عَلا وتَعَظَّمَ[٧٥٥].

وكل من قَهَر رجلاً أَو عَدُوّاً فإِنه يقال عَلاه واعْتَلاه واسْتَعْلاه، وعَلا فلان فلاناً إذا قَهَرَه والعَلِيُّ الرَّفيعُ وتَعالَى تَرَفَّع واعْتَلى واسْتَعْلى ارْتَفَعَ

---

[٧٥٣] لسان العرب، ج ١٥ ، ص ٨٣.

[٧٥٤] القص ص ، ٨٣.

[٧٥٥] تهذيب اللغة، ج ١، ص ٣٧١.

واسْتَعْلَى على الناس غَلَبَهم وقَهَرَهُم وعَلاهُم قال الله عز وجل: {وقد أَفْلَح اليومَ مَن اسْتَعْلَى}[٧٥٦].

ومما سبق يتبين أن الاسم العلي من أسماء القهر والغلبة والجبر والجلال أي من أسماء العظمة والكبرياء التي اختص الله بها نفسه ولا ينازعه فيها أحد لا نبيّ مرسل ولا ملك مقرب لأن هذا الاسم من الأسماء الذاتية التي لا يشارك الله فيها مخلوق أيّاً كان إلا عن طريق العبودية والانقياد والإذعان لأن الله هو العلي العظيم الكبير سبحانه جل جلاله.

وقد ورد الاسم العليُّ في القرآن الكريم مقترنا بالاسم العظيم والاسم الكبير، كما ورد سبع مرات ست منها معرفة ومرة واحدة نكرة.

وورد مع الأنبياء كصفة لمرتبة وصلوا إليها بعطاء الله مثلما جاء عن سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام بأن الله رفعه (مكانا عليا) وعن سيدنا إسماعيل وهبه الله (لسان صدق عليا)؛ وورد مع المفسدين بصيغ مشتقة منه مثلما ورد في قصة إبليس الذي استعلى بجنسه واستكبر على الأمر الإلهي فكان من المطرودين الملعونين. قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٧٥٧].

ومع أعوانه مثل قارون الذي استكبر بالمال الذي وهبه الله له فقال في كبر: إن هذا المال قد حصل عليه من علم عنده ناسيا أو متناسيا أن الله وهبه العقل الذي يتحصل به على هذا العلم وإن شاء حرمه منه، وكان جزاؤه أن خسف الله به وبداره الأرض، وهنا تمنى الذين

---

[٧٥٦] طه ٦٤.

[٧٥٧] ص. ٧٠ . ٨٣.

رغبوا في العلو الوهمي المبني على العلم الفاسد والمال الزائل يا ليت لنا مثل هذا العلو، أما الذين آمنوا فأنذروا هؤلاء المتكبرين أن الويل لمن سار على مثل منهج قارون في العلو والغلو وأعلموهم بأن ثواب الآخرة للمتواضعين وهو خير الثواب لمن أراد الفوز بالمقام الأسمى الأعلى المفاض من العلي الأعلى للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وأن العاقبة الحسنة والنهاية المفرحة للمتقين المتواضعين وهذا جزاء الحسنة التي قدموها بعدم علوهم في الأرض، وهذا ما صوره القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٧٥٨].

أما فرعون الذي علا بملكه وجحد نعمة الملك التي وهبها الله له فحارب النبي موسى عليه الصلاة والسلام واتهمه بالسحر وجمع له السحرة ليستعلي بهم على الناس وعلى نبي الله وعلى الله بادعاء إنه إله فكانت عاقبة أمره خيبة وخسارة فقسمه الله قال الله تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ

---

[٧٥٨] القصص ٧٨ . ٨٤.

يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}[٧٥٩].

إذاً فالعليُّ الله وحده لا شريك له، ومن سار وفق إرادته هم الأنبياء والصالحون الذين ارتضاهم الله خلفاء في الأرض، أما من تجبّر وعصى كان من المفسدين الذين ساروا على نهج إبليس في الاستعلاء بالجنس، أو نهج قارون الذي استعلى بالمال والعلم الذي لم يؤتى منه إلا قليلا، أو نهج فرعون بالاستعلاء بالملك فهؤلاء ومن شابههم في المعصية والاستكبار والعتو لابد أن تحل عليهم لعنة الله.

ولأن الاستعلاء على غير حق منهي عنه فقد أرسل الله الرسل ليحذروا وينذروا من هذا الذنب والجرم الخطير لأن الملك والعلو لله العلي في الملك والملكوت فقال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}[٧٦٠].

والخليفة من عباد الله المخلصين الذين لا يستكبرون بانتماء قبلي أو بلون أو جنس ولا بمنصب زائل أو بمال يميل ولا يثبت في اليد ولا بعلم يُتَكَبرُ به على الخلق، وإنما يمتلك كل هذه الوسائل ليعلو بها للحق ويبطل بها الباطل ويجعل أهل الباطل من الصاغرين الأذلاء لأنهم استعلوا بما ليس لهم وأرادوا أن يلبسوا ثوبا ليس لهم بل هو لله العليّ الأعلى المتعالي ذو العلاء والكبر والعظمة.

والخليفة المتحقق بالا سم العلي يرفض نهج أولئك الفاسدين الذين علوا فسادا بما ليس لهم فالمال مال الله والملك ملك الله، والله أعلم بأي صنف من الخلق أفضل، فالخليفة إن كان

---

[٧٥٩] طه ٥٧ . ٦٤.

[٧٦٠] الأنبياء ٢٥ . ٢٩.

عنده المال والملك والعلم فهو يعلو بهذه النعم لله ولا يعلو بهذه الأدوات التي منحها الله له على الخلق، وإنما يوظفها جميعا لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}[٧٦١].

وكان صلى الله عليه وسلم كما سبق أن أوضحنا يقول: (يا الله يا رحمن، فقالوا: ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر معه فنزل قُلْ لهم {ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن} أي سموه بأيهما أو نادوه، بأن تقولوا يا الله يا رحمن {أَيّا} شرطية {مَا} زائدة، أيَّ هذين {تَدْعُواْ} فهو حسن دلَّ على هذا {فَلَهُ} أي لمسماهما {الأسماء الحسنى} وهذان منها، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٧٦٢].

إذاً فالاسم العليُّ لله عز وجل لا ينازعه فيه أحد من خلقه ومن نازعه هذا الاسم قسمه الله، ومن أطاع الله وسار على منهجه وكان مطيعا له تحققت فيه الخلافة التي أرادها الله لبني آدم إن هم تواضعوا لله، ومن هؤلاء النبي إدريس عليه الصلاة والسلام فقد رفع الله قدره ومكانته قال تعالى:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}[٧٦٣].

إدريس عليه الصلاة والسلام هو الذي رفعه العلي المطلق مكانا عليا، والمكان العلي: شرف النبوّة والزلفى عند الله، إنه مكان المكارم الشرفية التي تبوءها إدريس بالتصديق لله تعالى، إذن المكان العلي هو مكان المقامات العظام، والمكان العلي لا يمكن أن يكون في دنيا لابد أن

---

[٧٦١] الإسراء ١١٠.

[٧٦٢] الحشر، ٢٣ ، ٢٤.

[٧٦٣] مريم، ٥٦ ، ٥٧.

يكون في عليا وأينما تكون هذه تليق بإدريس عليه الصلاة والسلام سواء في السماء وفي أي مستوى من مستويات السماوات العلى أو في الجنة أينما تكون الجنة.

والخليفة هو الذي يعلو عن الركون إلى الأماكن الدنيا الواطية ويبتعد عن الأقوال المفسدة التي تفرِّق بين الزوج وزوجه، ويبتعد عن الأعمال التي تُفسد في الأرض أو تُسفك الدماء فيها بغير حق، ولذا فالخليفة دائما في حالة اجتناب لكل ما هو منهي عنه، وهو دائما لا يغفل فإن أخطأ استغفر وكفَّر عن سيئاته وتاب إلى الله ربه العلي الذي يتعالى عن النقيصة والولد والصاحبة والظلم. والخليفة بنيته يتوكل على الحق حتى يحقه ويقدم إلى الظلم حتى ينهيه ويُخلِّص العباد منه وهكذا يُحق الحق ويُزهق الباطل وحده لا شريك له جل وعلى.

وعن النابغة الجعدي : أنه لما أنشد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر بقوله:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إلى أينَ يا أبا لَيلَى قالَ: (إلى الجنةِ)"[٧٦٤].

والعلو لله في الدنيا والآخرة لمن سار على النهج الذي ارتضاه بحسن الطاعة والتواضع لله بعدم منازعته العلو والكبرياء فهما لله وحده، والعلو بالله ولله لا بالنفس والهوى فالله لا يقبل أن ينازعه أي كان في العلو والكبر.

ويتضح مفهوم الاسم العلي من سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب أي أصله والكتاب محصور فيها لذلك نجد من نفحات الاسم العلي في الفاتحة منطويا في تفسير {ملك يوم الدين} فلله الجبروت والعزة الكاملة يوم الدين وهذا العلو يبرز قهرا لجميع العباد، أمّا في الدنيا فيبرز لطفا للخلق لأنهم في دار الاختبار ويقصم الله به الجبابرة إن تطلب الأمر فهو العليّ في الدنيا والعليّ في الآخرة، ولنرى من صور علوّه يوم الدين، وما جاء في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). إن المالك هو الذي يعود الملك إليه ويؤخذ منه وهو الذي لا يؤخذ من شيء. أن لله المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة يملكون من ملكه حتى تناسوا قوله تعالى: لمن الملك اليوم مصداقا لقوله

---

[٧٦٤] الكشاف، ج ٤ ، ص ٩٦

تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}[٧٦٥] فكانت الإجابة بقوله تعالى: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٧٦٦]. هذه الآية الكريمة استشهاد الخليفة على الذي انحرف دوره عن الخلافة، وهي اعتراف بالحقيقة إنه لا ملك غير الله الملك المتعال.

ولهذا فالكفرة والمشركون والذين لم يكفروا عن سيئاتهم أيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذِلّة، وأنّ له – من دُونهم، ودون غيرهم – المُلك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال في سورة غافر جلّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}.

فأخبر تعالى أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا، الذين صارُوا يوم الدّين منْ مُلكهم إلى ذِلّة وصَغار، ومن دُنياهم في المعاد إلى خسارة.

وأما تأويلُ قراءة من قرأ:(مالك يوم الدين)

عن عبد الله بن عباس: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، يقول: لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معهُ حكمًا كمِلْكِهم في الدنيا. ثم قال: {لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[٧٦٧]. وقال: {وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ}[٧٦٨].

ويتوجه الله من خلال المنهج الخاتم للمؤمنين بأن يسارعوا إلى الإنفاق في سبيل تطهير النفس وعتقها من عذاب أليم لا ينفع فيه شفاعة الشفعاء إلا من ارتضى الله وعلى رأس الذين رضي الله عنهم الخليفة على الأصل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء بإتباع المنهج الذي جاء به الخليفة وهم المؤمنون وكيف لا؟ وهو صلى الله عليه وسلم الذي كلمه الله كفاحا دون واسطة بملك أو غيره وذلك معروف في ليلة المعراج وقد أيده الله بخمسة ألاف من الملائكة على رأسهم جبريل واتخذه الله حبيبا ومعلوم أن المقام الحبي أعلى المقامات جميعها لذا فهو صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود في وقت يقول الجميع

---

[٧٦٥] غافر ١٦.

[٧٦٦] غافر ١٦.

[٧٦٧] النبأ ٣٨.

[٧٦٨] طه، ١٠٨.

فيه نفسي نفسي لأن الله يتجلى في هذا المقام بالعلو والكبر والعظمة ولا يقبل إلا مِنْ أتْقى العباد صلى الله عليه وسلم وذلك احتوته آية الكرسي ويظهر جليا جبروت الله العلي العظيم الذي يستعلي بذاته على الخلق وتظهر صفات الجلال فلا يقف لها أحد إلا من ارتضى من شفيع مقبول وهذا القبول لا يتحقق إلا فيمن تحققت فيه شروط الخلافة الكلية وهي متحققة في النبي صلى الله عليه وسلم ،أو الخلافة الجزئية التي تحققت في الأنبياء والأولياء والصالحين بقدر متفاوت فيقول الله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٧٦٩].

والملك في الدنيا لله وفي الآخرة لله والذين آمنوا به واتبعوا رسله في الدنيا وتواضعوا له ولم يتكبروا على خلقه ولم ينازعوه في صفات جبروته وكانوا على طريق الخلافة التي نزلوا الأرض بسببها فلهم الثواب الجزيل والفوز بأعلى الدرجات وهي الجنة، أما الذين علوا في الأرض فسادا وكذبوا ما أنزله الله على رسله فلهم العذاب المهين الذي يكسر كبرياءهم ويذل نفوسهم، لأنهم لم يهجروا المعاصي ولم يجاهدوا أنفسهم بإذلالها لله وبدفعها للجهاد في سبيله بالكلمة والعمل وبالسير في طريق الخلافة.

---

[٧٦٩] البقرة، ٢٥٣ . ٢٥٦.

وما قلناه هنا لا يخالف ما جاء في الآية التي سنذكرها حول معنى الهجرة، فالهجرة من معانيها هجرة المعاصي، وهجرة المظالم وفراقها والانتقال إلى مراسي الحق والعدل وأفعال الخير والفلاح في الأرض وكل ما يفيد وينفع الناس، ولذا فمن يهجر الكفر يعيش بالإيمان حتى يستخلف في الأرض ويورث من بعدها في الجنة.

الذين هاجروا لله بترك المعصية وقتلوا الشر داخل نفوسهم وخارج نفوسهم برده والتغلب عليه بالمواجهة الفاعلة فهؤلاء الخلفاء الحقيقيون ولهم من الله الرضوان الأكبر. قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[٧٧٠].

إذا فالخليفة الحق هو المتواضع لله المستعلي به في مواجهة الباطل وفعل الخيرات، والخليفة الذي يتقوى بالحق يعلو على الباطل وأعوانه، قال الله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) الله هو الحق لأنه راسخ وكامل وعادل. أما ما يدعون من دونه فهو زائل وناقص وظالم، ولذا فالله الحق الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده آخر، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

{وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، {هُوَ الْبَاطِلُ} الذي يزول ولا يبقى، يفنى ولا يدوم، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعا لغايتها ومقصودها.

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن

---

[٧٧٠] الحج، ٧٢ . ٦٤.

كبريائه، أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته. وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فالعلو صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها[٧٧١].

فالصلاة إلى الصلاة ترفع المكانة عند الله إلى عليين هذا في الآخرة أما في الدنيا فبالتجلي بالعلو الإلهي على مقيمها عملا وتطبيقا فيرفعه الله على المتعالين بغير حق، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ"[٧٧٢].

وجاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "صَلَاةٌ فِي إِثْرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ"[٧٧٣].

والخليفة على صلة بالعلي في صلاته فهو يستمد منه علوه على المستعلين من أهل الباطل فيسجد له ولا يسجد لسواه ويركع له ولا يركع لسواه، يوحده واحداً أحداً لا إله إلا هو لا شريك له ويؤمن بمحمد رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه كي لا يضل ولا يشقى، يصوم ويصلي ويزكي ويجاهد في سبيله كي يحق الحق ويزهق الباطل.

قال الله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٧٧٤].

---

[٧٧١] تفسير السعدي، ج ١ ، ص ٥٤٣.

[٧٧٢] سنن أبي داود، ج ٢ ، ص ١٦٤.

[٧٧٣] سنن أبي داود، ج ٤ ، ص ٤٨.

[٧٧٤] الإسراء، ٧٦ ـ ٨١.

فالخليفة مُحَارَبٌ من فلول الضلال وشرذمة الباطل ليبعدوه عن ميدان الخلافة ولا يتركوا له فرصة في الإصلاح، ولكن سنة الله ثابتة لا تتغير ولا تتحول وهي علو الحق على الباطل، والخليفة كما جاء في الآيات السابقة يتقوى بالصلة الإلهية التي تربطه ارتباطا وثيقا بالعلي وذلك بإقامة الصلاة للصلة الدائمة مع الله وقراءة القرآن لاستخراج أحكامه واستنباط دقائقه ورقائقه والعمل به شريعة هادية للطريق المستقيم وفي هذا رحمة من الله العلي الكبير.

وقد وصف الله أعوان الباطل والفساد بأنهم مجرمون، قد أجرموا في حق أنفسهم وفي حق الآخرين وفي حق الله حيث إنهم رغبوا في استبدال المظالم بدلا من الحقائق ويزهقون أرواح الأبرياء ظلما، فقال الله تعالى. {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[٧٧٥]. وهكذا سيكون حال الذين يأكلون الحرام فهم كمن يأكل في بطنه نارا، {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[٧٧٦].

وفي سبيل إحقاق الحق علينا أن نتذكر ما طلبه سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام من أعوان بلقيس الفاسدين الذين عبدوا الشمس من دون الله بألا يعلوا وأن يأتوه مسلمين لله بأنه العلي، ويسلموا له لكونه الخليفة الذي يعلي الحق ويخفض الباطل فقال الله تعالى في كتابه العزيز عن استعلاء الخليفة بالعلي الكبير: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

---

[٧٧٥] الأنفال ٨.

[٧٧٦] النساء ١٠.

الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}[٧٧٧].

وهنا العلو بالعلم الذي وهبه الله له لإظهار أنه لا علي إلا الله ولا سجود لأي مخلوق بغرض العبادة مهما ظهر من عظمة هذا المخلوق لأنه ضئيل أمام العلي الكبير العظيم، ولذا فالسجود والركوع للعلي الذي لا يعلوه احد، وللخالق لا للمخلوق؛ فالسجود لا يكون إلا لله وهو إعلان وإقرار لمن يُسْجَدُ له بالعلو دون غيره، وفي السجود إظهار علو المعبود بحق لهذا يقال في السجود سبحان الله استجابة لأمر العلي المطلق الذي قال: {سبح اسم ربك الأعلى} وهذا التسبيح هو الذي يصلنا بعلاقة مباشرة مع العلي العظيم وبها ننسلخ عن الدنيا وأطماعها ومخاوفها وأربابها ونتجلى إلى وجهه الكريم جل جلاله.

والخلافة في أساسها إقرار من العلي العظيم {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٧٧٨] ثم تليها اختيار بعد هداية مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٧٩] ولذا فمن يكفر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم يَضِل ويُضِلل غيره لأنه أخطأ الطريق، والذي اتخذ ما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم منهجا هُدِيَ للطريق المستقيم طريق الحق

---

[٧٧٧] النمل، ٢٠ ـ ٣٤.

[٧٧٨] البقرة ٣٠.

[٧٧٩] الأنعام، ١٦١ ـ ١٦٥.

والهداية والرشد. فقال الله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ}[٧٨٠].

فمن علو الله وكبره سبحانه وتعالى أنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر والبحر والفلك لنشكره ولا نكفره ونعلم أنه الحق وما دونه باطل زائل ولا نتكبر ولا نغتر ولا نستعلي لأن العلو والكبرياء له وحده لا ينازعه فيهما أحد قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٧٨١].

يظهر الله قوته وتفرده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما، ذهب الآخر. وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون وينتفعون. ولهذا كُلّ منهماَ يجْري إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة.

{وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ} من خير وشر خَبِيرٌ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين، وذَلِكَ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق.

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد اللّه له لما وجد، ولولا إمداده لَمَا بَقِيَ، فإذا كان باطلا كانت عبادته أبطل وأبطل. {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ} بذاته، فوق جميع

---

[٧٨٠] محمد ١ ـ ٣.

[٧٨١] لقمان ٢٩، ٣٠.

مخلوقاته، الذي علت صفاته، أنَّ يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم إنه علي فلا يطوله بصر ولا تمسه أيادي وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو الْكَبِيرُ الحق الذي له الكبرياء التي يتجاوز بها عن خطايا خلقه إن آمنوا واستغفروا وكفَّروا عن سيئاتهم وإن وحدوا واتقوا الله حق تقاته مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[٧٨٢].

قال تعالى: {قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٧٨٣] في هذه الآية الكريمة حوار بين مؤمن وكافر، ومن يكون هذا المؤمن فهو مؤمن (أنس أو جن) ومن يكون هذا الكافر فهو كافر (إنس أو جن) ولذا فالخليفة هو محق الحق الذي قاله الله تعالى، وهو المنتهي عما نهى عنه طائعا في إتباع أوامره وطائعا في إتباع نواهيه، ومتطلعا لما هو أفضل وأجود وخير. أما الملائكة الكرام فهم المؤمنون حقا فلا يتساءلون إلا بما يؤكد إيمانهم به عليا مطلق، ولهذا فهم أول من يجيب على السؤال السابق (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) بقولهم: (الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) وهكذا لا إجابة للخليفة غير قوله الحق وهو العلي الكبير، فالخليفة هو الذي يعلي الحق ويبطل الباطل ولذا خاطب الله رسوله وكل من سار على نهجه بقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ

---

[٧٨٢] آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٨.

[٧٨٣] سبأ ٢٠ ـ ٢٣.

فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٧٨٤].

{قُلْ} أي للمشركين إظهاراً لبُطلان ما هُم عليه وتَبكيتاً لهم {ادعوا الذين زَعَمْتُمْ} أي زعمتموهم آلهةً {مِن دُونِ الله} مقامه، والمعنى ادعوهم فيما يفهمكم من جَلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرَ لعلَّهم يستجيبون لكُم إنْ صح دعواكم ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعيُّن الجوابِ وأنَّه لا يقبلُ المكابرةَ فقال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}[٧٨٥] من خير وشرَ ونفع وضرَ {فِي السموات وَلاَ في الأرض} أي في أمرٍ ما من الأمور. وذكرُهما للتَّعميمِ عُرفاً، أو لأنَّ آلهتَهم بعضُها سماويةٌ كالملائكةِ والكواكبِ وبعضُها أرضية كالأصنامِ أو لأنَّ الأسباب القريبة للخيرِ والشرِّ سماويةٌ وأرضيةٌ والجملة استئنافٌ لبيانِ حالِهم. {وَمَا لَهُمْ} أي لآلهتِهم {فِيهِمَا مِن شِرْكٍ}، أي شَركةٍ لا خلقاً ولا مُلكاً ولا تصرُّفاً، وَمَا لَهُ، أي لله تعالى {مِنْهُمْ} من آلهتِهم مّن ظَهِيرٍ يُعينه في تدبير أمرِهما.

{وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ} لقوله تعالى: {مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} وإنَّما علَّق النَّفيَ بنفعها لا بوقوعِها تصريحاً بنفي ما هو غرضُهم من وقوعها وقوله تعالى: {إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال أي لا تقع الشَّفاعةُ في حال من الأحوالِ إلا كائنةً لمن أذنَ له في الشَّفاعةِ من النبيِّين والملائكةِ ونحوِهم من المستأهلين لمقام الشَّفاعةِ، أما من جهةِ أصنامِهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورةَ استحالةِ الإذنِ في الشفاعة لجمادٍ لا يعقلُ ولا ينطق وأمَّا من جهةِ مَن يعبدونَهُ من الملائكةِ فلأنَّ إذنَهم مقصورٌ على الشَّفاعةِ للمستحقِّين لها لقوله تعالى: {لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً} ومن البيِّن أنَّ الشَّفاعةَ للكفرةِ بمعزل من الصَّوابِ أو لا تنفع الشَّفاعةُ من الشُّفعاءِ المستأهلين لها في حالٍ من الأحوال إلا كائنةً لمن إذِن له أي لأجلِهِ وفي شأنِه من المستحقِّين للشَّفَّاعة وأمَّا مَن عداهم

---

[٧٨٤] سبأ ٢٢، ٢٣.

[٧٨٥] سبأ ٢٢.

من غيرِ المستحقِّين لها فلا تنفعُهم أصلاً وإنْ فُرِض وقوعُها وصدورُها عن الشُّفعاءِ إذ لم يؤذَن لهم في شفاعتهم بل شفاعة غيرِهم، فعلى هذا يثبتُ حرمانُهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النَّصِّ ومن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حرموها من جهةِ القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلأنْ يُحرموها من جهة العَجَزةِ عنها أولى.

{حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} أي قلوب الشُّفعاءِ والمشفوعِ لهم من المؤمنين وأمَّا الكَفَرةُ فهم من موقف الاستشفاع بمعزلٍ وعن التَّفزيعِ عن قلوبهم بألفِ منزلٍ والتفزيع إزالةُ الفزعِ ثمَّ ترك ذكر الفزع وأسند الفعل إلى الجارِّ والمجرور وحتَّى غاية لما ينبئ عنه ما قبلها من الإشعار بوقوع الإذنِ لمن أذن له فإنَّه مسبوق بالاستئذان المستدعِي للتَّرقبِ والانتظارِ للجواب كأنَّه سُئل كيف يُؤذن لهم فقيل يتربَّصون في موقف الاستئذانِ والاستدعاءِ ويتوقَّفون على وَجَلٍ وفَزَعٍ مليّاً حتَّى إذا أُزيلَ الفزعُ عن قلوبهم وظهرتْ لهم تباشيرُ الإجابةِ {قَالُواْ} أي المشفوعُ لهم إذْ هم المتحاجون إلى الإذنِ والمهتمُّون بأمره {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ} أي في شأنِ الإذنِ {قَالُواْ} أي الشُّفعاءُ لأنَّهم المُباشرون للاستئذان بالشَّفاعةِ {الحق} أي قال ربُّنا القول الحقَّ وهو الإذن في الشفاعةِ للمستحقَّين لها وقُرِىء الحقُّ مرفوعاً أي ما قاله الحقُّ {وَهُوَ العلى الكبير} من تمام كلام الشُّفعاء قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب العزَّةِ عزَّ وجلَّ وقصور شأنِ كلِّ مَن سواه أي هو المتفرِّدُ بالعلوِّ والكبرياءِ ليس لأحدٍ من أشراف الخلائقِ أنْ يتكلَّم إلا بإذنه[٧٨٦].

قال تعالى: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}[٧٨٧] فهذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم، وأوثانهم، من البشر، والشجر، وغيرهم، قطعها اللّه وبيَّن بطلانها، تبيينا حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير اللّه، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه [غير اللّه]، لا مالكا للنفع والضر، ولا شريكا للمالك، ولا عونا وظهيرا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء، وهذه العبادة، ضلالا في العقل الغافل، باطلة في الشرع.

---

[٧٨٦] تفسير أبي السعود ، ج ٥ ، ص ٣٧١

[٧٨٧] سبأ ٢٣.

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبيَّن اللّه بطلانه وعدمه، وبيَّن في آيات أخر، ضرره على عابديه وأنه يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا، ومأواهم النار {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[٧٨٨]

ويوم القيامة يذل الله إبليس و من معه من المستعلين الذين كفروا بالله واستعلوا بنعمه التي منحها لهم ومنهم من ادعى كذبا إنه إله ومنهم من ادعى أن المال الذي حازه هو من علم عنده وغير ذلك من ألوان العلو والكبر الفاسد وهؤلاء يتمنوا أن يخرجوا من النار ويؤمنوا بالله ويتواضعوا له ولا يستعلوا فيصور الله ذلك في كتابه الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[٧٨٩].

يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: (لَمَقْتُ اللَّهِ) فإياكم إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمَانِ فَتَكْفُرُونَ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا (أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من العلي الكريم حَالا بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه حين نال الخلفاء المؤمنون رضوان الله وثوابه.

---

[٧٨٨] الأحقاف ٦.

[٧٨٩] غافر ١٠ . ١٢.

فتمنوا الرجوع و {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ} يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم، {وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} الحياة الدنيا والحياة الأخرى، {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} فتحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ} أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به كَفَرْتُمْ واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.

(وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا) أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا}[٧٩٠].

(فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر وعلو الملك وعلو الخلق والقدسية ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولهذا لا يساوي بين المتقين والفجار، والله هو العلي الذي له الحكم المطلق في الدنيا والآخرة وهو لا يرضى أن يشاركه أحد في صفاته لأنه ليس كمثله شيء ولا حكم إلا لحكمه. فالحكم للَّهِ الذي لاَ يحكُم إلا بالحقِّ ولاَ يقضِي إلاَّ بَما تقتضيهِ الحكمةُ الذي ليسَ كمثلِه شيءٌ في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعالِه يفعلُ ما يشاءُ.

قال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[٧٩١].

(ذلكم) أي العذاب الذي أنتم فيه بسبب أنه في الدنيا (إِذَا دعي الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ) بتوحيده (وَإِن يُشْرَكْ بِهِ) يجعل له شريك (تُؤْمِنُواْ) تصدّقوا وتسلموا بالإشراك فالحكم للَّهِ العلى على خلقه.

---

[٧٩٠] الأعراف ٢٠٢.

[٧٩١] غافر ١٢.

قال تعالى لنبيه محمد: {حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٧٩٢]، فلَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً انس وجن وملائكة وشجر وحجر وحيوان ويابسة وماء وروح ونفس وشكل سبحانه ما أعظم شأنه.

وقال الله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٧٩٣]. وَهُوَ الْعَلِيُّ: وهو ذو علوّ وارتفاع على كل شيء، والأشياء كلها دونه، له القوة ولها الضعف له العلو ولها الدنو ولذا فهو نور السماوات والأرض {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ}[٧٩٤].

والعلو على الخلق وعلى الأمر الإلهي قد بدأ مع الملعون المطرود من رحمة الله لأنه استكبر واستعلى بما يتوهم أنه أفضل لذا فقد سأله الله ما سبب استكبارك هل أنت تتكبر على الأمر الذي أمرتك به أم إنك وضعت نفسك في رتبة أعلى من رتبتك؟. تمادى الملعون في كبره فكان من المطرودين من رحمة الله وهذا ما يصوره الله لنا بقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

---

[٧٩٢] الشورى ١ . ٤.

[٧٩٣] الشورى ٤، ٥.

[٧٩٤] النور ٣٥، ٣.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٧٩٥].

ولم يرد الملعون أن يكون وحده من المطرودين بل أراد أن يجيش جيوشا من هؤلاء الفسدة ليكونوا أعوانا له ويا لخيبتهم جميعاً.

وأخيراً فالعلي هو الذي يتوكل الخليفة عليه حتى يُوفَّق به فيما يُفكِّر فيه، وفيما يقول، وفيما يأمل ويعمل ويفعل ويسلك، إنه الله جل جلاله الذي بيده الملك والأمر والخير كله لا إله إلا هو سبحانه جل جلاله به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري إليه والحمد لله رب العالمين صدق وعده ونصر جنده وحق الحق وحده وزهق الباطل وحده، أمر بالإيمان فالحمد له آمنا وأمر بالعمل الصالح فأطعنا حتى ننال رضاه لنعمل أكثر وأعظم.

اللهم إنك العلي الذي يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار والذي يعلم الغيب ولا غيره يعلم الغيب، فاجعل أبصارنا مدركة لمعجزاتك وشاهدة عليها، اللهم إنك العلي وكل شيء هو دونك، فاجعل إيماننا يعلو في علاك وبالحق أقوالنا تعلو وبالصالحات أعمالنا تعلو، فنعدل ولا نظلم ونكون من الصادقين والمتصدِّقين والمُحسنين والبارين بوالديهم، اللهم إنك العلي في القول والحق والفعل والعظمة فاجعلنا في عليين مع الأبرار في النعيم الذين هم عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ والذين تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ والذين يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ اللهم اجعلنا من المتنافسين في هذا الأمر وكل أمر ترضى به عنا، اللهم إنك العلي فاجعلنا نعلو في الحياة الدنيا بأخذ نصيبنا منها وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نتكبَّر ولا نطغى ولا نظلم أحداً، حتى نكون في الآخرة من العليين في جنة الفردوس سبحانك لا إله إلا أنت العلي جل جلالك.

---

[٧٩٥] ص ، ٧١ ـ ٨٣.

الكبيـر

الكبير هو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهو يدل على صفة من صفاته الحسان؛ فهو الكبير فوق كل كبير، وهو الأكبر الذي لا يساويه أكبر، ولا يمكن أن يصل إليه في كِبْره صغير بتضعيف، ولا كبير بنقص أو تجزئة[٧٩٦] سبحانه وتعالى عن ذلك فهو الكبير الذي يكون دونه كل شيء لكمال وجوده، فوجوده دائمٌ أزلاً وأبداً، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وهو ما لا بداية له ولا نهاية إنه الكبير جل جلاله.

أما غيره من الموجودات فوجودها مقطوع سابقاً ولاحقاً فلكل منها بداية معروفة، ونهاية محتومة مهما طال بها الزمن، فالإنسان إذا طالت سنون حياته يُقال له: كبير وفقا لقاعدة النسبية إذا ما قورن بغيره؛ أي كبيرٌ في السن طويل في مدة البقاء بالنسبة لمن هو اصغر منه عمرا، ولا يقال له على ذلك: عظيم.

فالعظمة من معاني الكبير، ولكنها لا تكون إلا لله تعالى وحده. فقد جاء في لسان العرب "الكبير في صفة الله تعالى العظيم الجليل؛ وقال ابن الأثير: الكبير يعني العظيم ذو الكبرياء والمتعالي عن صفات الخلق[٧٩٧].

والكبرياء يعني العظمة وهي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى، والكبير والكبرياء من الكبر وهو العظمة، ويقال كبر يكبر أي عَظُم فهو عظيم[٧٩٨].

هذا هو الله العظيم الكبير الذي يدل كل شيء في هذا الكون مما تدرك كنهه البصائر وتحيط به الأبصار، على عظمته وقدرته وسلطانه فناهيك عما لا يمكن لعقولنا أن تستوعبه ولا لأبصارنا أن تقع عليه من مخلوقات أو مجرات أو أكوان سبحانه الكبير المتعال.

والخالق العظيم الكبير المتعال هو الذي خلق الإنسان على هذه الأرض وميّزه عن كل المخلوقات؛ بأن أحسن خَلقَه وفي هذا الأمر كبر أي علو ممجد ومميز بأحسن الخلق، قال

---

[٧٩٦] الفروق اللغوية ، ج١ ، ص ٢٨٩

[٧٩٧] لسان العرب ج٥ ، ص ١٢٥ .

[٧٩٨] المحيط في اللغة ، ج٢ ، ص ٤٨ .

تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧٩٩]، وفضَّله المولى عز وجل على سائرها بأن زوده بالعقل ليدرك به الصواب والخطأ ويكون بذلك أعظم المخلوقات على الإطلاق، فهو أفضل من الملائكة إذا تغلب بعقله على شهوته وترك المعاصي والتزم بالطاعات، والقربات التي أمر بها الله عز وجل، فينال بذلك الدرجة التي يقول فيها رب العزة في الحديث القدسي، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الله قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولأن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"[٨٠٠] فيا أيها الإنسان يا من خلقك الله تعالى واستخلفك في الأرض وسخّر لك المخلوقات لخدمتك عليك أن تكون عند حسن ظن خالقك فيك بأن تستمد صفاتك من صفاته فتكبر عن الرذيلة وتكبر عما يصغِّرك في القول والفعل حتى توصف بالكبر الذي يجعلك مستخلفا في الأرض كما يُراد لك أن تكون مميزا بما ميزك الله به عن بقية المخلوقات، وأن تعظم بعظمته، وتكبْرك بكبره، وتستحق بذلك خلافة الله العظيم، فخلافته لا تكون لأي إنسان مخلوق، فقط لمجرد أنه إنسان، ولكن خلافته تكون لمن يستحق الخلافة بجدارة، باتصافه بصفات الله وطاعته له عز وجل في كل أمور الحياة.

وقد ورد اسم الكبير مقترناً باسمه المتعال في قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[٨٠١]، فيخبر الله تعالى في هذه الآيات عن تمام علمه وعظيم إحاطته بالأشياء الظاهرة منها والباطنة، فهو لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فهو يعلم ما تحمله الحوامل

---

[٧٩٩] التين ، ٤ .

[٨٠٠] صحيح البخاري ، ج٢٠ ، ص ١٥٨ .

[٨٠١] الرعد ، ٩، ٨ .

من إناث المخلوقات جميعاً بل أكثر من ذلك أنه يعلم ما سيكون في هذه الرحم من ذكر أو أنثى قبل حمله، ويعلم بشقائه وسعادته قبل أن يكون سبحانه وتعالى الملك المتعال، قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}[٨٠٢]، ويعلم كذلك أطوار الخلق لما تحمله الأرحام من الأجنة طوراً من بعد طور، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٨٠٣]، وفي حديث ابن عمر – رضي الله عنه – قال أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله:

١ . لا يعلم ما في غدٍ إلا الله.

٢ . ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله.

٣ . ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله.

٤ . ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت.

٥ . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله"[٨٠٤].

فالله سبحانه وتعالى كبيرٌ في علمه وقدرته وهذا ما أستشفه من اقتران اسم الكبير مع المتعال في قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} على ما وَضَحَتْهُ الآية السابقة لها، فهو كبيرٌ عن كل مقارن، وهو كبير في كل حين، وهو كبير فلا تراه الأبصار وإن أدركته العقول وآمنت به، فكل شيء دونه لا يقارن به في شيء سبحانه لا إله إلا هو، ولا يتوارى عن علمه شيء وهو أيضاً المتعالي والمستعلي على كل شيء بقدرته عليه وعلمه به.

وعلى من استخلفه الله في أرضه أن يتصف بصفات الخالق عز وجل ومن هذه الصفات العلم امتثالاً لأول أمر من رب السماء نزل به الروح الأمين على قلب نبيه الكريم – صلى الله عليه وسلم – وهو {اقرأ بسم ربك الذي خلق}[٨٠٥] والقراءة هي أول الطريق للعلم،

---

[٨٠٢] لقمان ، ٣٤ .

[٨٠٣] المؤمنين ، ١٢–١٤ .

[٨٠٤] صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ١٥١.

[٨٠٥] العلق ، ١ .

والمستخلف في الأرض هو الذي لا يقرأ إلا باسم من استخلفه في الأرض التي يُراد له أن يكون قارئا ومصلحا وغير سافك دماء فيها. فأقرأ جاءت أمر، وأمر العلي لابد له أن يُنفَّذ، فكان الأمر كذلك مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، الذي قرأ بالأمر الذي يتضمن تحقيق الفعل بالأمر (كن) وكذلك أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم والكتابة وهي من أدوات تحصيل العلم في قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}[٨٠٦] وفي هذا تعظيم لأدوات العلم وبالتالي تعظيم للعلم ضمناً فالقسم دائماً لا يكون إلا لمعظم.

فعلى ذلك لا بد أن يحرص الإنسان الذي يريد أن يكون خليفةً لخالقه على تحصيل العلم في جميع المجالات النافعة، فبالعلم وعن طريقه وبإعمال العقل فيما حولنا يصل الإنسان إلى حقيقة الخالق المتفرد لهذا الكون وبذلك يصل إلى درجات الخشية من الخالق المؤدية إلى التزام طاعته والعمل على إرضائه والطمع في ثوابه والخوف من عقابه ولذلك سيعلم علم اليقين الذي أظهره الله تعالى لسيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا فالعلماء هم أكثر الناس خشيةً لله وذلك بما ينكشف لهم من دلائل وحقائق خفيت على غيرهم من عامة الناس وفي ذلك يقول الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}[٨٠٧]. الخشية: مخافة وتقوى، مخافة من الزلل، وتقوى إيمانية، بكشف العلل المسببة في إظهار الآيات التي يتمكَّن العلماء من معرفتها، ولذلك كلما أكتشف العالم آية من آيات الله في خلقه ازداد إيمانا وهذه هي خشية العلماء. وعليه العلم لا يزيد المتقين إلا تقوى وإيمانا والعلماء هم الذين يخشون الله جل جلاله مما يجعلهم من المستخلفين فيها بتقواهم إياه عز وجل. قال الربيع ابن أنس: "(من لم يخش الله تعالى فليس بعالم). وقال مجاهد: (إنما العالم من خشي الله عز وجل). وعن ابن مسعود قال: (كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا)"[٨٠٨]. ونحن

---

[٨٠٦] القلم ، ١ .

[٨٠٧] فاطر ، ٢٨

[٨٠٨] تفسير القرطبي، الجزء الرابع، ص ٣٤٣.

نقول: هؤلاء هم العلماء، هم الخلفاء في الأرض بالتقوى وبالمعرفة الصائبة، وبالخشية، والمخافة والأمل الذي لا يراوده قنوط أو يأس وذلك بوقوفهم على الحقيقة بقين.

والفرقٌ كبير بين العالم والجاهل في الحياة الدنيا بين العباد، فالعالم له مكانة مرموقة ومحترمة على خلاف مكانة الجاهل وكذلك عند الله عز وجل حيث قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[٨٠٩] أي لا يمكن أن يستوي الذين يعلمون ما عند الله من الثواب والعقاب والذين لا يعلمون ذلك[٨١٠]، فالذين لا يعلمون هم الذين يجهلون أمر الحقيقة ومكمنها، والعلم لابد أن يحصل عن طريق إعمال العقل الذي يدعونا الله تعالى في كثير من الآيات إلى استخدامه كما في قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٨١١]، وقد وصف الله سبحانه وتعالى من لا يُعْمِلُون عقولهم فيما حولهم من الآيات بأنهم شر الدواب وذلك في قوله تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[٨١٢] فمن أعمل عقله واستعمله في طريق العلم والهداية يكن خير الخلق وهو الخليقة أما الجاهل الذي لا يُعمل عقله في الآيات التي سخرها الله من حوله لهدايته فيكون كما وصف الله شر الخلق والخليقة.

وقد ورد كذلك اسم الكبير مقترناً باسم العلي عز وجل في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِي الْكَبِيرُ}[٨١٣] وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على أن الله عز وجل عظيم وكبير في قدرته فهو الذي بقدرته يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو الذي يُدْخِل ما ينقص من ساعات الليل في النهار وما

---

[٨٠٩] الزمر ، ٩ .

[٨١٠] تفسير الخازن ، ج ٥ ، ص ٣٠٧ .

[٨١١] البقرة ، ١٦٤ .

[٨١٢] الأنفال ، ٢٢.

[٨١٣] الحج ، ٦٢ .

ينقص من ساعات النهار في الليل ذلك بأنه الحق. وهذا أمرٌ عظيم لا يقدر عليه أحد غير الله القادر كبير القدرة وهو بذلك الإله الحق المستحق للعبادة وحده والمتفرد بالألوهية، حيث لا تصلح الألوهية إلا لمن كملت قدرته، أما من عجز عن فعل هذا فإن قدرته يكون فيها نقص ، فلا يستحق العبادة فكل ما يعبده الجهلة من دون الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكونوا خالقين، بل هم مخلوقون بدليل قصورهم في قدرتهم على فعل الكثير من الأشياء التي لا يقدر عليها غير الله العلي الكبير. الكبر علوا ورفعة بالنسبة للخالق، وبالنسبة للمخلوق درجة إيمانية عالية بالله وحده. والعلي ذو العلو على كل شيء، فهو فوق كل شيء وكل شيء دونه، وفي هذا الأمر الكبير يعني العظيم الذي كل شيء دونه متصاغر له ولا شيء أعظم منه[٨١٤].

والخليفة الذي استخلفه الله لابد أن يكون أيضاً قادراً بالقوة التي عليها خُلق في أحسن تقويم، فيستمد قدرته من قدرة الخالق عز وجل، أي أن يكون قادراً على ترويض نفسه أولاً وكبح جماحها؛ فيروض نفسه على الطاعات والعبادات التي أوجبها الله تعالى، ويكبح جماح نفسه عن فعل المعاصي التي ينهى عنها المولى عز وجل وتتسبب في إغضابه سبحانه وتعالى، وتُعَرض مرتكبها إلى عقابه وعذابه.

ثم يكون قادراً على إفادة الإسلام والمسلمين وكذلك على إعلاء كلمة الله والدفاع عن الإسلام وعن نبيه الكريم – صلى الله عليه وسلم – ضد الهجمات الحاقدة التي تسعى للنيل من الإسلام، والقدرة على ذلك تتمثل في:

١ – القدرة العقائدية:

بأن تكون عقيدتنا في ربنا وديننا ونبينا قوية راسخة لا تتزعزع وأن نسهم في تقوية هذه المعتقدات في نفوس شبابنا بكل قوة وإصرار وذلك بإظهارهم على كل حقيقة وبكل شفافية حتى يدخل الإيمان في قلوبهم بأن الله حق واحد أحد، وأن العدل بين الناس حق فيعملوا به ويعملوا عليه، وأن العذاب حق فيجتنبوا كل قول أو فعل يؤدي إليه، وأن النار حق بها يُزهق

---

[٨١٤] تفسير الطبري ، ج١٨ ، ص ٦٧٦.

الباطل، وأن الجنة حق بها يُنصر الحق، وأن البعث حق من بعده الحياة السرمدية، وأن الدنيا حق فانية فلا يجعلوها في قلوبهم ولا ينسوا نصيبهم منها، وإن الرسول حق فيتبعون رسالته الخاتمة، ويصلون عليه كما صلى الله وملائكته عليه وعلى سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

٢- القدرة العلمية والعقلية:

وهي أن يكون الخليفة ذو قدرة علمية وعقلية تمكنه من الرد على الافتراءات والأكاذيب الباطلة والموجهة ضد الإسلام والمسلمين بالحجج والبراهين والأدلة العقلية والعلمية التي تكون في الوقت نفسه رداً على الأكاذيب وأدلة إقناع للمترددين والمشككين في أمر هذا الدين، وبذلك يعطي الصورة الحسنة للمسلم الرباني الحق، قال تعالى في كتابه العزيز مخاطباً سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – والخطاب بالتالي مُوَّجهاً لنا نحن المسلمين عموماً وللخلفاء خصوصاً: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٨١٥]. الحكمة هي مكمن الحقيقة التي لا تتلون ولا تتبدل، وهي التي تُملأ باللين كأسلوب معاملة بين الناس، ولهذا كانت المجادلة بالتي هي أحسن أسلوب متبع في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استخلفه الله تعالى بإتباع ذلك، والحُسن جمال ذوقي يفوح بطيب المعاملة الطيبة.

٣- القدرة البدنية:

فليحرص كل من يريد أن يكون خليفةً لله في أرضه على أن يكون قادراً بقوته الجسدية أن يتحمل مسؤولياته المنوطة به من أجل إعلاء كلمة الله عز وجل، وإن لزم الأمر بالمقارعة والقتال اللذين يتطلبا قوة بدنية في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل دون ظلم، وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ"[٨١٦]. وعليه، لا قوة لمؤمن إلا بإيمانه وعلمه الذي يمكنه من كشف

---

[٨١٥] النحل ، ١٢٥ .

[٨١٦] صحيح مسلم ، ج ١٣ ، ص ١٤٢.

الحقيقة وتجليها للآخرين، ولذا فلابد أن يعمل على أن يكون مأكله وملبسه ومشربه حلالاً طيباً، مثلما قوله وفعله حقا صادقا، فيمده بذلك الله تعالى بالقوة البدنية اللازمة له، ليسخرها في خدمة الدين والعباد المراد لهم الاستخلاف في الأرض لتكون طاهرة من كل رذيلة في هذه الدنيا الفانية، ويكون فيها مصلحون غير سافكي دماء بغير حق.

وقد أطلق الله العلي جل وعلا وصف الكبير على أشياء كثيرة معنوية تتعلق بالإنسان، من تلك الأشياء قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}[٨١٧]، وقوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}[٨١٨]، وهذا الوصف لهذه الأشياء يوجب على من يحصل على هذه الأشياء الموصوفة بالعظمة لابد أن يكون هو عظيماً أيضاً، فلا يمكن أن يتحصل على هذا الفضل أو الفوز مقصَّرٌ في حق الله سبحانه وتعالى بارتكاب بعض النواهي وترك بعض الأوامر، وذلك لأنهم لم يصلوا درجةً من العظمة والكِبر التي تؤهلهم لينالوا هذا الفضل الكبير والفوز الكبير، والآيات السابقة الذكر توضح ذلك تمام التوضيح فيقول فيها جل مِن قائل: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}[٨١٩] فلم يكن ذلك الفوز العظيم حقاً لمن آمن فقط بل قرن تعالى الإيمان بالعمل، حيث أن العمل هو الترجمة الفعلية للإيمان الحقيقي، وهو المقياس الدقيق الذي يحدد درجة الإيمان في قلب كل عبد، فالعبد المؤمن تمام الإيمان يطيع الله في كل الأوامر التي أمر الله تعالى بها ويسعى دائماً إلى التقرب والتودد إليه بفعل الطاعات والقربات، ويستحيل أن يعصيه أو أن يتجرأ حتى على مخالفة أوامره، فيستحق بذلك كله أن يكون الخليفة لله عز وجل الذي قصده تعالى في قوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[٨٢٠]. والخليفة هو الطائع، أما من لم يكن كذلك فليس له حق الخلافة في شيء.

وعليه فالمؤمن الذي لا يقرن قوله بالإيمان بأعمال وطاعات تترجم ذلك الإيمان على أرض الواقع، فإن إيمانه ناقص غير كامل فلا يتأهل أبداً لأن يكون خليفة للإله، لأنه بفعله هذا قد

---

[٨١٧] فاطر ، ٣٢.

[٨١٨] البروج ، ١١ .

[٨١٩] البروج ، ١١ .

[٨٢٠] البقرة ، ٣٠ .

دخل دائرة الكذب حيث أنه يَدَّعي حبه لله تعالى وإيمانه به وهو في نفس الوقت يعصيه ويغضبه، وهذا فعلٌ مستنكرٌ ومستقبحٌ لا يمكن أن يكون صاحبه من الخلفاء الذين قصدهم الله تعالى.

وقد قال الشاعر مستنكراُ ً ذلك الفعل على فاعله:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه　　هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته　　إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه　　وأنت لشكر ذاك مُضِيْعُ[٨٢١].

اللهم اجعلنا ممن يخلفونك في الأرض ويستحقون بذلك رضاك ورحمتك ومغفرتك، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}[٨٢٢]، وفي هذه الآية معنى واضح على أن الخلافة لا تكون لكل إنسان، ولكنها لمن اصطفاهم الله من العباد ليكونوا هم الخلفاء والورثة الذين يرثون الكتاب الذي أورثه لعباده الذين اصطفاهم، وأن المصطفين من عباد أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – وان الظالم لنفسه هم أهل الإجرام من أمةِ محمد – عليه الصلاة والسلام – وهنا أقول أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأمم واصطفى منهم الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وحملهم بذلك أمانةً وهي أن يكونوا خلفاء له في الأرض يقولون بكلامه ويأتمرون بأوامره ويحكمون بحكمه ويبلغون شرائعه للناس كافة على أتم وجه دون تغيير أو تحريف أو تقصير أو إهمال وكل هذه الصفات تستحيل في حق أنبيائه – صلوات الله عليهم – فهم مصطفون على العباد جميعاً والذي اصطفاهم هو الخالق العالم بنفوس خلقه فلن يختار الله تعالى لتحمل هذه الأمانة من في نفسه مرضٌ أو نقص، وقد اصطفى الله من بين هؤلاء الأنبياء جميعاً نبينا محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – ليكون هو خاتم الأنبياء المرسلين من الله عز وجل إلى عباده

---

[٨٢١] تفسير الألوسي ، ج٢ ، ص ٤٩١ .

[٨٢٢] فاطر ، ٣٢ .

فيتحمل بذلك الأمانة الكبرى وهي إحقاقا الحق وإنفاذ شرائع الله والدعوة إلى دين الله الخاتم وهو دين الإسلام الحنيف الذي لا يُقْبَل من أحدٍ عند الله من دينٍ غيره وكذلك اصطفى من بين الأمم أمة محمدٍ – صلى الله عليه وسلم – لتكون أفضل الأمم ولتكون شاهدة على الأمم السابقة، قال تعالى في محكم آياته: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[٨٢٣]، وقد وضح الله سبحانه وتعالى أحوال هذه الأمة التي اصطفاها من بين الأمم، على أن هذه الأمة ليست جميعها مصطفاة ومختارة لتحمل أمانة الخلافة لله وليرثوا بذلك إرث الأنبياء، فبالرغم من أن الله تعالى قد اصطفى هذه الأمة إلا أنه اصطفى منها أيضاً من يكون أهلاً ليحمل هذه الأمانة، فأخبرنا الله تعالى أن هذه الأمة تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

الظالم لنفسه: وهو المُفَرِّطُ في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات .

المقتصد: ، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات.

وهؤلاء لم يصلوا بعملهم وطاعتهم إلى درجة أنهم يستحقون أن يكونوا خلفاء لله في الأرض، أما النوع الثالث وهم:

السابقون بالخيرات: وهم الفاعلون للواجبات والمستحبات والتاركون للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات[٨٢٤]. إنهم الممارسون لحقوقهم هي كما هي، والمؤدون لواجباته هي كما هي، والمتحمِّلون لمسؤولياته هي كما هي.

وهذا النوع هو الذي يستحق خلافة الله في أرضه، لأنه تقرب إلى الله بأداء الفرائض واتباع الأوامر وترك النواهي، وزاد في التقرب إلى الله بفعل النوافل والمستحبات حتى بلغ الدرجة التي يكون فيها الله عز وجل سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ومن يتوصل لهذه الدرجة من المحبة بينه وبين الله تعالى يكون خليفة له في الأرض التي باركها الله بالخليفة، الذي يطبق شرعه ويحكم بحكمه، ويقول

---

[٨٢٣] البقرة ، ١٤٣ .

[٨٢٤] تفسير ابن كثير ، ج ٦ ، ص ٥٤٦ ، سنن الترمذي ، ج ٩ ، ص ٢٩٦ .

بقوله، فالله قد أورثهم الكتاب لأنهم صفوة العباد ولأنهم متصفون بصفات الله عز وجل من علمٍ وقوةٍ وحكمةٍ ورحمة وحزم وغيرها من صفاته التي لا يمكن أن نحيطها حصراً.

وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر"[٨٢٥].

اللهم اجعلنا ممن يتعلمون العلم خالصاً لوجهك الكريم لا نبغي به غير رضاك ورحمتك واجعله اللهم حُجَّة لنا لا علينا إنك أنت مولانا فنعم المولى ونعم الوكيل.

والكِبْر والاستكبار يكون على معنيين متناقضين تماماً وهما:

أولاً: الاستكبار بفعل الطاعات فيشعر من يقوم بها أنه صار عظيماً وكبيراً بمداومته على فعل ما يرضي الله عز وجل وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[٨٢٦]، وهذا أمرٌ من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يعلن بأن مقصده في كل عباداته وطاعاته وأعماله وحاله من إخلاص وإيمان عند مماته ومدة حياته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه الكريم وطلباً لرضاه.

وقول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – لذلك الأمر يحوي نوعاً من العظمة فهو يقوله مفتخراً بأنه عبد لله متعالياً بذلك متعاظماً به، ويلزمنا نحن المؤمنين أن نتأسى بنبينا الكريم في ذلك، فيجب أن نفخر بأننا نطيع الله عز وجل ونعبده حق عبادته وأن نشعر بالسعادة وتوفيق الله لنا[٨٢٧]، فالخليفة الذي يستحق خلافة الله العظيم لابد أن يكون عظيماً وكبيراً وعليا، وعظمتنا هذه نابعةٌ من عبادتنا لمن هو أعظم ولمن هو أكبر وأعلم فيستكبر الخليفة ويعلو بفعله للطاعات عن الوقوع أو عن ما يؤدي إلى الوقوع في المعاصي، فيكثر من

---

[٨٢٥] صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ١١٩ .

[٨٢٦] الأنعام ، ١٦١ – ١٦٣ .

[٨٢٧] تفسير الثعالبي ، ج ٢ ، ص ١٥ .

الاستغفار لينجيه الله من كل ما يؤدي إلى عصيانه عز وجل وإغضابه والعياذ بالله، والذي لا يستكبر عن الطاعات يكون ممن أخبر عنهم الله عز وجل في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[٨٢٨].

ثانياً: الاستكبار عن فعل الطاعات ويكون بالامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبراً دون أي حجة أو دليل وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في محكم آياته: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}[٨٢٩] فيبين الله تعالى أن المشركين الذين وصفهم الله تعالى كانوا إذا قيل لهم قولوا (لا إله إلا الله يستكبرون) أي يتعظمون عن قول ذلك ويتكبرون عن عبادة الله الواحد الأحد ويصرون على عبادة غيره من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر فيصغرون بكفرهم وشركهم ولا يستكبرون[٨٣٠]، والذين يستكبرون من العباد عن طاعة الله عز وجل لا يمكن أن يكونوا خلفاء الأرض في أرضه لأنهم ضعاف الإيمان ولا يتصفون بصفات الخالق عز وجل، فالمستكبر عن فعل الطاعات يدرك أن ما استكبر عنه هو الحق ولكنه يرفض فعل هذه الطاعات معاندةً بدون مبرر مقنع ولا دليل دامغ بل أنهم أنفسهم يقولون عكس أفعالهم .

فالمشركون الذين دُعوا إلى كلمة التوحيد واستكبروا عنها وهم يعلمون فعلاً بأن الله هو الإله الواحد بدليل قولهم الذي أخبرنا به الله عز وجل في قوله: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[٨٣١] ففي قولهم هذا اعتراف ضمني بوجود الخالق الواحد وهو الله المستحق للعبادة ولكنهم يعبدون هذه الأوثان ليكونوا شفعاءهم عند الله ويقربوهم إلى الله يوم القيامة[٨٣٢]، وهذا في حد ذاته اعتراف بان الله هو المستحق للعبادة دون

---

[٨٢٨] النحل ، ٤٩ .

[٨٢٩] الصافات ، ٣٥ .

[٨٣٠] تفسير الطبري ، ج ٢١ ، ص ٣٣ .

[٨٣١] الزمر ٣.

[٨٣٢] تفسير الطبري ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

غيره ممن يعبدون ولكنهم استكبروا عن الاعتراف بذلك لأنهم خافوا ضياع ما لهم من جاه ومكانة، وهذا الاستكبار والاستعلاء عن الاعتراف بالحقيقة لا يُنْقِص من شأنها بل هو في الواقع إنقاص من شأن المستكبر عليها، وسيحكم الله تعالى بينهم يوم القيامة بأن يدخلهم جميعاً إلى جهنم بكفرهم واستكبارهم، وهؤلاء المستكبرين عن الحق رغم كل ما أمامهم من آيات ودلالات قد توعدهم الله عز وجل بأن يصرفهم عن آياته وأن يمنعهم من فهم الحجج والبراهين نتيجة استكبارهم عن الاعتراف بالحق والانقياد له[٨٣٣] في قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[٨٣٤].

والمستكبرين عن الحق والاعتراف به فمن المؤكد أن أفعالهم تكون أفعال نقائص لا ترضي الله ولا من استخلفهم في الأرض، فبالتالي لا يمكن أن يكونوا ممن يستخلفهم الله تعالى لأن أقوالهم كذب وأفعالهم إفساد، فالمفسدون في الأرض هم الذين يستكبرون عن فعل الطاعات والمصلحون فيها هم الذين يستكبرون بفعلهم الطاعات وهذه من صفات الخلفاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمقيمين لحدود الله والمطبقين لشريعته في الأرض عدلا ومحبة ومساواة.

واسم الله الكبير بمعنى العظيم متداخلٌ مع كل أسماء الله الحسنى، فإن الله عز وجل كبيرٌ في كرمه، وكبيرٌ في قدرته، وكبيرٌ في انتقامه، وكبيرٌ في رحمته وحلمه، وهكذا يكون الخليفة كبيراً بقوله الحق وعمله على إحقاقه، وفعله للخيرات والإكثار منها، وعادل بالحق إذا حكم بين الناس، وآمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر في كل حين، ويخشى الله في كل كبيرة وصغيرة ويتقي الله ربه في ما يمارسه من حقوق، وما يؤديه من واجبات، وما يحمله من مسؤوليات.

---

[٨٣٣] تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ .

[٨٣٤] الأعراف ، ١٤٦ .

وهذا من خصائص أسماء الله سبحانه وتعالى فهي جميعاً تتداخل مع بعضها فتعطي معانٍ كثيرة لمسمى واحد، وموصوف واحد هو الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى هو المقصود بكل هذه الأسماء والمعاني المدلول عليها من هذا التداخل ولذا فهو الكبير المتعال جل جلاله.

إن الله سبحانه وتعالى الكبير في لطفه بعباده المؤمن منهم والعاصي، لا يعاقبهم بأعمالهم بحرمانهم من النعم التي أنعم بها عليهم، قال تعالى:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[٨٣٥]، فهو الكبير في لطفه بإنزال الماء واستخراج النبات من الأرض الذي يعينهم على استمرار العيش، وأيضاً هو الكبير في خبرته بالمقادير اللازمة والضرورية من الماء وغيره لحصول ذلك فلا تزداد كميته فيصبح مفسداً، وإنه الكبير بما يملكه من أمر وإذا أراد شيئا يقول له كن فيكون لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عن كل صغيرة.

وهو الكبير في رحمته ورفقه ورأفته بالعباد فمظاهر رحمته كثيرة جداً فمن أعظم معاني رحمته عز وجل بنا هو إرسال الرسل إلينا وإبلاغنا بأوامره لإخراجنا من ظلمات الجهل والكفر إلى النور الذي به اهتدينا إلى السبيل الحق، فالجهل يؤدي إلي الوقوع في عذاب جهنم والعلم يؤدي إلى نور الإيمان والطاعة والفوز بالنعيم الدائم في الجنة، إنه باب رحمته الذي لا يُصد في وجه من يؤمن به واحد احد لا شريك له.

وكذلك يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٨٣٦]، فمن باب رحمته بالناس سخّر لهم ما في الأرض من الدواب والبهائم والنباتات وما في باطنها من ماء وخيرات ومعادن، ليتصرفوا فيه كيفما أرادوا وكذلك سخّر لهم الفلك تجري

---

[٨٣٥] الحج ، ٦٣ .

[٨٣٦] الحج ، ٦٥ .

في البحر بأمره أي بقدرته فهو الذي يمسكها في البحر وهو الذي ذللها لهم ليستفيدوا منها في التنقل والتجارة وغيرها[٨٣٧].

ومن باب رحمته أيضاً أنه علمنا العلوم الكثيرة التي نستفيد منها في تسيير أمور حياتنا، وأيضاً من عظيم رحمته بنا أنه هو يمسك السماء فوقنا بقدرته حتى لا تقع على الأرض إلا بإذنه. فلو لم يكن الكبير المتعال لدمر الأرض بما تعمل أيدي المفسدين فيها، ولو لم يكن الكبير لقدَّم العقاب مع الذنب، ولو لم يكن الكبير لكلَّفنا بما ليس في وسعنا ولا طاقة لنا به، ولو لم يكن الكبير لما جعل باب الرحمة مفتوحاً لمن يتوب ويستغفر عن كل خطيئة أو ذنب يُرتكب، ولو لم يكن الكبير لما كان مهمين على كل كبيرة وصغيرة، ولأنه الكبير كانت له الأسماء والصفات والأفعال الحسنى إنه الكبير الذي به آمنا ونمد أيادينا إليه كل يوم تضرعا حتى ننال الرحمة منه فوزاً برضاه، سبحانه ما أعظم شأنه إنه ربي جل جلاله.

وهو الكبير في جوده وكرمه للعباد، المحسن منهم والمسيء، فكرمه كبيرٌ لا حد له ولا يمكن حصره ولا يقاس ولا ترفعه الموازين، فمن كرمه مع المحسنين أن الله سبحانه وتعالى يجزيهم عن الحسنة بعشرة أمثالها ومن باب كرمه مع المسيئين أنه لا يجازيهم عن سيئاتهم إلا بمثلها كما في قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٨٣٨]، ومن باب كرمه أيضاً أنه غفور عفو حليم ، وباب توبته دائماً مفتوح لمن ندم على أفعاله وتاب إليه، فالله سبحانه وتعالى بكرمه يبدل سيئات المسيئين إلى حسنات فقد قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٨٣٩]. فالمسيئون الذين يفعلون كل هذه الآثام من إشراك وقتل وزنا فإن الله سيعاقبهم

---

[٨٣٧] تفسير الطبري ، ج ١٨ ، ص ٦٧٨ .

[٨٣٨] الأنعام ، ١٦٠ .

[٨٣٩] الفرقان ، ٦٨ – ٧٠

على هذه الأفعال عقاباً شديداً، واستثنى منهم التائب إلى الله، النادم على تلك الأفعال فإن هذا يبدل الله سيئاته حسنات ويقبل منه توبته شريطة أن يكون صادقاً في توبته، عازماً على عدم الرجوع لتلك الأفعال[٨٤٠].

وهو الكبير في قدرته فليس لقدرته حدود وهو القادر على كل شيء، وكل شيء يدل على قدرته دلالةً تامة سواء أكان ذلك في خلق السماوات والأرض وما حولنا من مخلوقات، أو كان في خلقنا نحن أنفسنا فقال تعالى في كتابه الكريم دالاً على عظيم قدرته في أكثر من آية ففي قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٨٤١]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٨٤٢]، وقوله تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}[٨٤٣] ومن أعظم الآيات الدالة على أنه الكبير المتعال إنزاله للقرآن الكريم الذي تحدى الله به الثقلين جميعاً والعرب خاصة على أن يأتوا بسورةٍ مثله مع أنها من نفس الأحرف التي تتكون منها لغتهم، فقال تعالى متحدياً لهم ومظهراً لعظيم قدرته وكبير شأنه، وكاشفاً عن عجز المخلوقين مقارنةً مع قدرته: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[٨٤٤].

---

[٨٤٠] تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٣٠٣ .

[٨٤١] النور ، ٤٥ .

[٨٤٢] العنكبوت ، ١٩ ، ٢٠ .

[٨٤٣] الشورى ، ٢٩ .

[٨٤٤] البقرة ، ٢٣- ٢٤ .

وأيضاً فإن الله عز وجل كبيرٌ في عقابه وثوابه فقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[٨٤٥]، وقال كذلك: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[٨٤٦].

وعليه فإن الكبير جل جلاله هو العظيم في كل شيء والمهيمن على كل شيء والقادر على كل شيء سبحانه لا إله إلا هو الكبير المتعال، عظمته عظمة مطلقة وهو الذي كَبُرَ وعلا في ذاته، قال تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[٨٤٧]، ورُوي عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – أنه قال : "ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم"[٨٤٨].

وهو الكبير في أوصافه فلا سمي له ولا مثيل ولا شبيه ولا نظير، قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}[٨٤٩]، وهو الكبير في أفعاله، فعظمة الخلق تشهد بكماله وجلاله وعظمته، قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٨٥٠]، وهو سبحانه المتصف بالكبرياء ومن نازعه في ذلك قسمه وعذّبه، روى مسلم من حديث أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "العِزُّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته"[٨٥١]، فهو سبحانه الكبير الموصوف بالجلال وعظَم الشأن وهو المنفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما سواه، فله جميع أنواع العلو.

---

[٨٤٥] فاطر ، ٧ .

[٨٤٦] آل عمران ، ٣-٤ .

[٨٤٧] البقرة ، ٢٥٥ .

[٨٤٨] تفسير الطبري ، ج٢١ ، ص ٣٢٤ .

[٨٤٩] مريم ، ٦٥ .

[٨٥٠] غافر ، ٥٧ .

[٨٥١] صحيح مسلم ، ج ١٣ ، ص ٥٦ .

ونحن نعلم أن الله قد خلق السماوات وخلق الأرض وما بينهما وسخرهما للإنسان المخلوق الذي شرّفه الله وكرمه على سائر المخلوقات واختاره لأن يكون خليفةً له في الأرض، ولكن هذه الخلافة لم تكن لعموم الناس الصالح منهم والطالح، ولكن قصرها الله تعالى على عبادٍ مخصوصين، وهم العباد الذين يتصفون بصفاته ويستمدون أفعالهم من أفعاله، فيعملون كل ما هو نافع وصالح، ويتركون كل ما هو ضار ومشين، وقد وضّح الله سبحانه وتعالى من هم العباد الذين يرثون الأرض ليكونوا فيها خلفاء بقوله تعالى وهو الحق: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[٨٥٢]، وقد اخْتُلِف في معنى الأرض التي في هذه الآية، فمنهم من قال أنها الجنة، وقال آخرون هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث، وقال آخرون هي الأرض يورثها الله المؤمنين في الدنيا[٨٥٣].

وهذا عندي أرجح لأن الجنة لا تكون إلا للمؤمنين ضمناً إلا من رحم الله عز وجل من غير المؤمنين، وذلك شأنه عز وجل، أما الأرض فهي للناس جميعاً يعيشون عليها، المؤمن والكافر على السواء، يستمتعون بما فيها من خيرات ونعيم كلٌّ حسب ما كتب الله تعالى له من الرزق فيها، أما الوراثة هنا فتكون بمعنى الخلافة، فالوريث هو خليفة الموروث في ماله، وفي الحديث الشريف: "إن العلماء هم ورثة الأنبياء" أي خلفاؤهم في استمرار تبليغ ما جاءوا به من الشرائع من عند الله عز وجل.

وبالتالي فإن وراثة الأرض تكون بمعنى الخلافة لله عز وجل في هذه الأرض، ولا تكون هذه الخلافة بالتأكيد إلا للعباد الصالحين وخص الصالحين ولم يقل يرثها عبادي فقط، لأن العبودية هي أمر محتوم في حق الصالح وغيره، فكلنا عبيد لله الخالق القهّار، فمن اعترف بتلك العبودية وافتخر بأنه عبدٌ لله عظُم شأنه وكان صالحاً بأعماله مستحقاً لخلافة الله في الأرض. أي من رضي بعبوديته لله آمن به رباً وكفر بغيره، ولهذا فهو الحر الذي لا يركع ولا يسجد لغير الله تعالى، فعبودية الله عز وجل دليل على ممارسة العباد للحرية بكل إرادة.

---

[٨٥٢] الأنبياء ، ١٠٥ .

[٨٥٣] تفسير الطبري ، ج١٨ ، ص ٥٥٠ .

وأما من أنكر العبودية لله وعبد آلهة غير الله ذل شأنه وكان لا يستحق أن يكون خليفةً لله الكبير العظيم في أرضه.

وعليه فلابد أن يكون الخليفة الذي أورثه الله الأرض متصفاً بجميع صفات الله عز وجل، فيكون كبيراً في إيمانه، كبيراً في عفوه وصفحه وحلمه عن الآخرين ممن يخطئون في حقه من الناس فيعطيهم الفرصة لتصحيح أخطائهم معه، وكبيرا في علمه، وفي تفهُّمه، وكبيرا في إيمانه، وكبيرا في تصرفاته، وكبيراً في إقدامه على ما يجب وابتعاده عما يجب. وكبيرا في عصيانه للفساد والمفسدين في الأرض، وكبيرا في إصلاحه فيها.

وكذلك يكون كبيراً في انتقامه وقدرته وعقابه عندما يلزم ذلك في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وعندما يوجب الأمر عقاباً لابد أن يكون عقابه كبيراً، وخاصة إذا كان الخطأ في حق الله عز وجل أو في حق نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – أو أي نبي من أنبيائه الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم – فلابد أن يكون للخليفة درعاً قوياً بقدرته للتصدي للأعداء ورد كيدهم إلى نحورهم، كما عليه أن يكون في حجته في الرد على هؤلاء المتنطعين والمتشدقين على من هو أعظم من وطأت قدمه الأرض فهم لا يرتقون حتى إلى مستوى التراب الذي وطأه نعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد وقف هذا الموقف في زمن الرسول الكريم شاعر الرسول حسان بن ثابت عندما رد على أبي سفيان بن الحارث عندما هجا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلاً :

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلةً فقد برح الخفاء

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفداء

لساني صارمٌ لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء[٨٥٤]

---

[٨٥٤] سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٦٤-٦٦ .

وعليه: فالخليفة لا بد أن يكون مطيعاً لمن استخلفه فينفذ ما أمر بتنفيذه فيما اسْتُخْلِفَ فيه على الحق، وقد جاء بهذا المعنى قوله تعالى: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}، وفي هذه الآية أمرٌ بالإيمان والإنفاق من مال الله الذي استخلفنا فيه بأن نُخْرِجَ حق الله فيه وهي الزكاة، وأن نعطي الفقراء والمساكين الصدقات والهبات وغيرها من طرق الإنفاق المشروعة، فإن فعلنا ذلك نكون قد أطعنا الله تعالى، ووجب لنا على تلك الطاعة الأجر الكبير الذي وعد الله تعالى به كل من يطيعه فيما أمر ونهى، والطاعة لها ثلاثة أسباب هي:

١- الخوف:

وهو الخوف من قدرة الله عز وجل، والخوف من عقابه الأليم الذي توعد به العصاة والمخالفين لأوامره، والمنتهكين لحرماته ونواهيه، وعلامة الخوف تظهر على العبد في تصرفاته، وذلك بأن يترك جميع المحرمات وأن ينأى بنفسه عن ما يؤدي إليها، وأن يسعى دائماً إلى مرضاة الله تعالى خوفاً منه وطمعاً في نعيمه. والخوف هنا ليس نتاج جبن بل نتاج قوة الإيمان المطلق بالكبير المطلق جل جلاله.

٢- الرجاء:

وهو لا فضل إلا من صاحب الفضل المطلق عز وجل، ولا طمع إلا فيما عنده سبحانه وتعالى من نعيم لا ينفذ وراحة لا تنتهي وجنة عرضها السماوات والأرض، وعزة في الدنيا والآخرة، وهذا كله يتطلب حصول الطاعة للخالق الرحمن الرحيم، وعلامة الرجاء هي كثرة العبادة بأداء الفرائض على تمامها والإكثار من فعل النوافل والقربات التي تقرب من الله عز وجل وينال بها رضاه سبحانه وتعالى. فالرجاء نطلبه من الله وحده، وهو نتاج الثقة الإيمانية به رباً بيده المُلك وبيده الرحمة وهو مجيب الدعاء لمن يدعوه بقلب سليم. أللهم أرحمنا في الدارين إيمانا وافيا وعلما نافعا وملك واسعا، وأحفظنا من كل سوء، بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك سبحانك أنك الكبير المتعال مجيب الدعاء وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

٣- المحبة:

وهي أن يكون الله عز وجل ودينه وأنبياؤه أحب للعبد الخليفة من ماله وزوجه وولده ووالديه اللذين لا يعصيهما في غير معصية الله تعالى، فهو الذي يسترخص في سبيل الله وإعلاء كلمته والدفاع عن أنبيائه – صلوات الله وسلامه عليهم – كل نفيسٍ وغالٍ فيستحق بذلك رضا الله تعالى وشفاعة سيدنا محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم. فالمحبة قيمة لا تتحقق إلا في ظل صدقٍ وصفاء يجعل العشق روح بين الخالق والمخلوق.

وعلامة المحبة هي الاشتياق الذي يمد العاشقين بالطاقة الفاعلة لكل خير في مرضات الله تعالى، مما يجعل المحب في الله يحرص دائماً على أن يكون مصلحا في الأرض وغير مفسد فيها، وهو المكثر من العبادات وأعمال الطاعات وأفعال الخير، فلا يترك صلاته إلا وهو في شوق لصلاته القادمة ليكون دائماً على اتصال بالله عز وجل، فيكون بذلك ممن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وفي ذلك يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ"[٨٥٥].

وللمعصية ثلاث علامات هي:

١- التكبْر:

أي الاستكبار عن الطاعة وعدم الاعتراف بالحق بدون حجة ولا دليل، إلا لمعاندة وجحود وإنكار للنعم، وقد ظهرت هذه العلامة على إبليس – لعنه الله – وذلك عندما أمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم فأبي واستكبر على أن يطيع الأمر الإلهي، قال تعالى: {وَإِذْ

---

[٨٥٥] موطأ مالك ، ج ٦ ، ص ٢٢.

قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٨٥٦]. وقال أيضاً: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[٨٥٧]. التكبر اصطناعي وهو الذي يحدث في غير محله، أي أنه الذي يُحدث من الصغير (صغير الشأن)، ولهذا فالمؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يتكبر على أحد، بل هو الذي يكبر بإيمانه قولا صادقا، وفعلا صادقا، وقدوة حسنة في المهارة والمسلك، ترضي الله وترضي نفسه وترضي العباد.

٢- الحرص:

وهو الحرص على الحياة الدنيا والسعي وراء المال والجاه والخلود، وكل ما تهواه النفس البشرية، وقد ظهرت هذه العلامة على آدم – صلى الله عليه وسلم – عندما أسكنه الله وزوجه الجنة وأمره أن لا يقرب الشجرة التي نهاه عن عنها، فوسوس إليه الشيطان، فدفعه حرصه وطمعه على أن يخالف أمر الله، فأكل منها وكانت النتيجة أن بدت لهما سوءاتهما لبعض، كما أخبر بذلك الله سبحانه وتعالى في قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[٨٥٨]. مع أن ما حدث كان معصية، إلا أن ما حدث كان آية لتستمد منها العظة وتؤخذ العبر منها في الحياة ليتقي الإنسان ربه.

٣- الحسد:

وهو الغل في نفوس البشر وتمني ما عند الآخرين وزوال ما وهبهم الله من نِعَم، وقد ظهر ذلك على قابيل ابن آدم حين قدّم هو وأخوه قرباناً فتُقُبِلَ من أخيه ولم يُتَقَبَل منه، وفي ذلك

---

[٨٥٦] البقرة ، ٣٤ .

[٨٥٧] ص ، ٧٥ .

[٨٥٨] طه ، ١١٦-١٢١ .

يقول الله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[٨٥٩].

ولهذا فلابد أن يكون الخليفة لله متصفاً بصفاته، ملتزماً بأوامره، مبتعداً عن نواهيه، مطيعاً له، شديد الخوف منه، دائم الرجاء فيه، كثير الشوق والمحبة له، وأن يعمل على تطهير نفسه من التكبر على الله تعالى وعلى العباد فيكون متواضعاً حليماً حكيماً، وأن لا تكون الدنيا أكبر همه، فلا يحرص إلا على رضا الله بالأقوال والأفعال، وأن يملأ قلبه بالقناعة والرضا بما خصه الله عز وجل، فيكون كبيراً عن الصغائر متعالياً بنفسه عما يشينها من الأفعال والأقوال.

فالعظمة وعلو الشأن، والرفعة والكبرياء هو ما تضمنه اسمه الكبير المتعال وما في معناها، واستلزمته جميع صفات كماله ونعوت جلاله، فهو كما وصف نفسه بقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٨٦٠] فتعالى في أحديته أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونا له، أو ظهيرا أو شفيعا عنده بدون إذنه أو عليه يجير، وتعالى في عظمته وكبريائه وملكوته وجبروته عن أن يكون له منازع أو مغالب أو ولي من الذل أو نصير، وتعالى في صمديته عن الصاحبة والولد والوالد والكفؤ والنظير، وتعالى في كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت والسِنة والنوم والتعب والإعياء، وتعالى في كمال علمه عن الغفلة والنسيان وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه في الأرض أو في السماء، وتعالى في كمال حكمته وحمده عن خلق شيء عبثا وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهي ولا بعث ولا جزاء، وتعالى في كمال عدله عن أن يظلم أحدا مثقال ذرة أو أن يهضمه شيئا من حسناته، وتعالى في كمال غناه عن أن يُطعم أو يُرزق أو يفتقر إلى غيره في شيء، وتعالى في جميع ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله عن التعطيل والتمثيل، وسبحانه تنزه وتقدس عن كل ما ينافي إلهيته وربوبيته وأسماءه الحسنى وصفاته العلى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ

---

[٨٥٩] المائدة ، ٢٧ .

[٨٦٠] – الشورى ١١

الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٨٦١] فلله الصفات الحسان، وهو العجيب الشأن فى القدرة الكاملة والحكمة التامة في السموات والأرض، وهو الغالب على أمره، الحكيم فى فعله وتقديره، الكبير في ملكه، والكبير في قدرته، والكبير في أفعاله وصفاته، خارج الحيّز والزمان والمكان، لأنه سبحانه خالق الخلق ومالك الملك، فمن هنا نقول: أنه يستحيل على الله تعالى المشابهة والتمثيل والتقدير، كما يذهب بعض الجاهلين بقولهم إذا كان سبحانه أكبر من الحيّز فأين هو؟ وللإجابة عن صفة الله تعالى الكبير المتعال لا من حيث الحجم ولا من حيث المادة، ولا من حيث العرض ولا الجوهر، وإنما: "إن قلت، أين هو؟ فقد سبق المكان وجوده، فمن أين الأين، لم يفتقر وجوده إلى أين. هو بعد خلق المكان، غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان، وكيف يحل في ما منه بدأ. أو يعود إليه ما أنشأ. وإن قلت ما هو؟ فلا ماهية له. ما موضوعة للسؤال عن الجنس، فالجنس مخصوص بمعنى داخل تحت الماهية. وإن قلت كم هو؟ فهو واحد في ذاته. متفرد بصفاته. وإن قلت متى كان؟ فقد سبق الوقت كونه. وإن قلت كيف هو؟ فمن كيف الكيفية لا يقال له كيف. ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه التغيير"[٨٦٢].

وأما الكبير بالإضافة وهو خليفة الله في الأرض فيجوز عليه الحيّز والزمان والمكان والمادة والعرض والجوهر، إلا أنه كبير من حيث الصفات المادية والمعنوية وما تمتع به من القيم الأخلاقية الفاضلة النبيلة، وما يندرج تحت ذلك من الإيمان والتقوى والعلم، فكان الخليفة كبيرا بما اتصف به من الصفات النسبية للكبير المطلق، فهو الداعي إلى الخير ومكارم الأخلاق، ويهدي إلى صراط الله المستقيم الذي أمره به الكبير جل جلاله، فيطيع من شاء الله له الهدى، ويعصي من كُتب عليه الشقاء، فيكون الخليفة شاهدا عليهم وعلى أعمالهم وأفعالهم فقد قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ

---

[٨٦١] – الروم ٢٧

[٨٦٢] – سراج الملوك، ١ ج، ص ١٩١.

وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[٨٦٣] فالله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء والخلفاء والأولياء شهداء على الناس، ثم أيدّهم بشهادته على أفعال الخلق وأعمالهم، حيث أن الله أكبر شهادة من الجميع، فشهادته أكبر من شهادة الخلق، لأن شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها، والحق سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء، لذلك أمر الخليفة أن يتولى الجواب بنفسه للإيذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، لأن الله أعظم شاهد بينه وبينهم على صدق ما جاءهم به، فهو الكبير جل جلاله بالقوة والقهر والغلبة والعلم، وهو يدبر الأمور ويصرفها كيف يشاء، حيث يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وعلوّه وكبريائه.

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول من الذين وقفوا على أحاديث النزول والآيات التي تصف الذات الإلهية بالمجيء وما إلى ذلك، فهم إما أساؤوا تفسير تلك الآيات والأحاديث، وإما تعمدوا ذلك طعنا في الدين، فمن أحاديث النزول قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم عرفة إن الله ينزل إلى السماء فيباهي بهم الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا ضاحين من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول له الملائكة: أي رب فيهم فلان يزهو وفلان وفلان قال: يقول الله: قد غفرت لهم، فما من يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة"[٨٦٤] فالذين يقولون: هو فوق العرش وهو أيضا في كل مكان والذين يقولون: إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش أو غيره من المخلوقات أكبر منه ويقولون: لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر من المخلوق، وأنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء بل ولا هو على قولهم الكبير المتعال ولا هو العلي العظيم.

وللرد على هؤلاء نقول أن الله تعالى كبير لا بمعنى الحجم والمكان، ولا تنسحب عليه صفات المخلوقين، ولا يمكن أن يستوي الخالق والمخلوق في صفة من الصفات وإن كانت بعض

---

[٨٦٣] – الأنعام ١٩

[٨٦٤] – صحيح ابن خزيمة، ج ١٠ ، ص ٢٢٧

الصفات مشتركة بين الخالق والمخلوق، إلا أن هذه الصفات تفصل بينها الإضافة النسبية والمطلقة الكلية، وعلى هذا فمسألة النزول لا كما يتصورها هؤلاء وأمثالهم، وإنما هي في حق الله تعالى الكبير المتعال، كالسمع والبصر وبقية الصفات حيث يسمع بغير صوت وآذان، كما يتكلم بغير حرف ويبصر بغير جارحة، وعلى هذا فإنه ينزل ولا يخلو منه العرش، ومن قال بغير هذا فقد ظهر منه فساد القول شرعا وعقلا، وإذا قيل أن أحاديث النزول لا تحتمل التأويل والتفسير، فهذا صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم، من أنه سبحانه وتعالى ينزل إلى أسفل فلا يسعه المكان، وإذا وسعه المكان صار تحت العرش، وإذا كان ذلك كذلك، فليس هو كما وصف نفسه بأنه كبير متعال ولكن القول الفصل ما جاء في آية الكرسي حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٨٦٥] ففي هذه الآية كما أن كرسيه وسع السموات والأرض، كذلك اسم العلم على الذات الإلهية وهو لفظ الجلالة (الله) وسع أسماءه الحسنى كلها، فالله هو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه، وهو الباقي القائم على شؤون خلقه دائماً، الذي لا يغفل أبداً، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنه لا يتصف بالنقص في شيء، وهو المختص بملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك أحد، وبهذا لا يستطيع أي مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، عالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئاً من علم الله إلا ما أراد أن يُعلم به من يرتضيه من خلقه، وسلطانه الواسع الذي يشمل السموات والأرض أكبر من أن يوصف، فكيف بذاته توصف، فلا يصعب عليه تدبير ذلك لأنه المتعالي عن النقص والعجز، العظيم بجلاله وسلطانه، وهذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل

---

[٨٦٥] – البقرة ٢٥٥

وغيره، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازا، وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها، فالله سبحانه وتعالى أكبر من أن يصفه الواصفون أو يحده أحد باجتهاد نزول أو صعود، لأن ذلك يقتضي نوع من المجانسة والمشاكلة، وهو مقدس عن مجانسة ما سواه، فلهذا السبب كل كلام اشتمل على نعوت جلاله وصفات كبريائه، كان ذلك الكلام في نهاية الجلال والشرف، ولما كانت هذه الآية كذلك، كانت بالغة في الشرف إلى أقصى الغايات وأبلغ النهايات بما لا يدع مجالا لمجتهد في حدّ كبرياء الله تعالى وعلوه وعظمته من خلال ما وسع كرسيه السموات والأرض.

فالله سبحانه وتعالى، عندما ينزل إلى السماء الدنيا أو غيرها مما يشاء، فهو نزول قدرة وسمع وبصر وضر ونفع وتوبة ومغفرة وما إلى ذلك مما خص به نفسه جلت قدرته حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول، نزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول جل وعلا: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى ينفجر الصبح"[٨٦٦] ولا يكون معنى النزول بالمادة، لأنه تعالى أكبر من المادة، ولا يغادر مكانا نزولا إلى مكان، لأنه هو خالق المكان وغيره، فلو كان الأمر على ما يقولون، لجاء بالمكان إليه، ألا ترى الملوك والسلاطين أنهم لا يتجشمون عبء الرحيل والسفر إلى رعاياهم، بل يطلبونهم إليهم إلى حاضرة الملك ودار السلطان، فكيف بخالق الخلق يكلف نفسه الهبوط والصعود لخلق هو خالقهم، فوالله لا يستقيم هذا الأمر لعاقل فإن صح هذا على قول هؤلاء فلا يبقى حينئذ الكبير ولا العظيم ولا العلي ولا الأعلى بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. غير أن الكبير بالإضافة يدخل ويخرج ويصعد وينزل من أجل تنفيذ أوامر الكبير المطلق بما هو مكلف به كونه خليفة الكبير المتعال وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها ومن نزوله لتكليم موسى وغير ذلك كله من باب واحد كقوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ

---

[٨٦٦] – صحيح ابن حبان، ٤، ٣٣٢

تُرْجَعُ الْأُمُورُ}[٨٦٧] إن الإتيان هنا ليس مجيء الله سبحانه وتعالى، ولكن إتيان أمره بالعذاب الذي كلف به الملائكة لأن الله تعالى منزه عن المجيء والذهاب المستلزمين للحركة والسكون، لأن كل ذلك محدث، وكل محدث مخلوق، فيكون كل ما يصح عليه المجيء والذهاب محدثا مخلوقا له بأمره وقدرته ومشيئته، والإله يستحيل عليه أن يكون كذلك.

ومثل ذلك قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}[٨٦٨] والمعنى هنا أنه جاء أمر ربك من خلال مظاهر يوم القيامة التي تتبدل فيها الأرض غير الأرض والسموات، وليس الأمر كما يقول بعض المشبهة والمجسمة من أنه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر، فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه، فإذا أتى وجاء على ما يقولون، لم يكن على قولهم العلي الأعلى ولا كان هو العلي العظيم. لا سيما إذا قالوا: إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه سبحانه وتعالى عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا كبيرا.

فالله سبحانه كبير في كل صفة وصف بها نفسه دون تشبيه ولا تمثيل، لا يحوطه زمان ولا يحويه مكان فهو: "الذي لم يزل ولا يزال. وهو الكبير المتعال. خالق الأعيان والآثار. ومكور النهار على الليل والليل على النهار، العالم بالخفيات. وما تنطوي عليه الأرضون والسماوات. سواء عنده الجهر والأسرار. ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خلق الخلق بقدرته. وأحكمهم بعلمه وخصهم بمشيئته. ودبرهم بحكمته. لم يكن له في خلقهم معين. ولا في تدبيرهم مشير ولا ظهير. وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن. ويستظهر من تقدس عن الذل بمن دخل تحت ذيل التكوين. ثم كلفهم معرفته. وجعل علم العالمين بعجزهم عن إدراكه إدراكاً لهم. كما جعل إقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيماناً لهم. لا تلزمه لم. ولا يجاوره أين. ولا تلاصقه حيث. ولا تحله ما. ولا تعده كم. ولا تحصره متى. ولا تحيط به كيف. ولا يناله أين. ولا تظله فوق. ولا تقله تحت. ولا يقابله جزء. ولا تزاحمه عند. ولا يأخذه خلف. ولا يحده أمام. ولا تظهره قبل. ولم تفته بعد. ولم

---

[٨٦٧] – البقرة ٢١٠

[٨٦٨] – الفجر ٢٢

تجمعه كل. ولم توجده كان. ولم تفقده ليس. وصفه لا صفة له. وكونه لا أمد له. ولا تخالطه الأشكال والصور. ولا تغيره الآثار والغير. ولا تجوز عليه الحماسة والمقارنة. وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة. إن قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته. ومن كان معلولاً كان له غيره علة تساويه في الوجود. وهو قبل جميع الأعيان. بل لا علة لأفعاله. فقدرة الله في الأشياء بلا مزاج. وصنعه للأشياء بلا علاج. وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه"[٨٦٩].

وأما مسألة الأذان في قولنا الله أكبر، الله أكبر، فليس من باب المقايسة بشيء آخر، وإنما تعني أن الله كبير، لأنه إنما يفاضل بين الشيئين إذا كانا من جنس واحد، فيقال: هذا أكبر من هذا، إذا شاكله في بابٍ من الأبواب من الشكل والجنس واللون والمادة والعرض والجوهر مما يدخل في باب المفاضلة لأجل الاختيار، ذلك أن الإنسان دائما يميل إلى الأفضل والأحسن عندما يخير بين الشيئين أو أكثر، ولما كان الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فخرج من باب المقايسة والمفاضلة إلى جهة التخصيص والحصر، فقد اختص الله سبحانه وتعالى بالكبرياء، فكان ذلك حصرا عليه جل جلاله، غير أن التفاضل هذا ينسحب على المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، فأما غير العاقلة فنفاضل بينها للامتلاك، كالبيت والأرض وما في هذه الدنيا من متاع من أجل الزينة والتفاخر وما إلى ذلك كما قال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}[٨٧٠] وأما المخلوقات العاقلة فالتفاضل فيما بينها يكون لسبب آخر، حيث أن الأولى نفاضل بينها للامتلاك، بينما نفاضل بين البشر للإتباع، وعادة فإن العاقل يتبع الكبير في كل شيء لأنه يحمل سمات الكبير النسبي، والذي يحمل هذه السمات فهو خليفة الله في الأرض، فكيف يكون الخليفة كبيرا؟.

ربما يكون السن في بعض الحالات مقياسا للكبير بالإضافة إذا توفرت بقية الشروط التي تجعله كذلك، ذلك أن السن والتقدم في العمر يحمل الخبرة والتجربة في أمور كثيرة، ولكن

---

[٨٦٩] – سراج الملوك، ج ١، ص ٢٢.

[٨٧٠] – الحديد ٢٠

يضاف إلى ذلك أن يكون كبيرا في حلمه وعلمه وسعة صدره، وكبيرا في الإيمان والتقوى، وكبيرا في العطف والرحمة، وكبيرا في الشّدة والقوة من أجل أن يأخذ على أيدي الذين يسعون في الأرض فسادا ولا تأخذه في الله لومة لائم، فقد أمر الله تعالى الخليفة بأوامر ونهاه عن مناهٍ من أجل صلاح البلاد والعباد حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٨٧١] فالخليفة يكون كبيرا عندما يمتثل لأوامر الله تعالى بأداء الأمانة التي كلف بها وهي توجيه الناس إلى الحق والخير والصلاح والتقوى وهذه أمانة الخليفة، وهي واجبة عليه لجميع المسلمين وغيرهم، حيث يؤدي الأمانة لجميع المسلمين كونه مرشدهم إلى الحق ويوضح لهم ما غاب عنهم أو ما لم يعلموه، لأنه هو من أهل الذكر والله تعالى يقول اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلموا، فالإجابة على أسئلتهم هو من باب تأدية الأمانة فيما يصلح شأنهم ويعلمهم ويفقههم وما إلى ذلك من أحوا الدين والدنيا، وأما غير المسلمين فإنه يؤدي أمانته بأن يبلغهم بما يستطيعون به أن يصلوا إلى الإيمان، ومن هنا نعلم أن الخليفة كبير في أمانته، وأما الأمانة بالمفهوم الآخر لغير الخليفة، هي إعادة ما كان شخص اتمنك على حاجته وقت طلبها، وهو عبارة عما وجب لغيرك عليك من حق فاديت ذلك الحق إليه. وأما الحكم بالحق فهو عبارة عما وجب للإنسان على غيره من حق، فيأمر الخليفة من وجب عليه ذلك الحق بان يدفع إلى من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبذل الخليفة نفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بحال غيره، فالله تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا ثم بعده ذكر الأمر بالحكم، ويدخل فيه جميع أنواع الأمانات. ومعاملة الخليفة إما أن تكون مع ربه أو مع سائر العباد أو مع نفسه ولا بد من رعاية الأمانة فى جميع هذه الأقسام الثلاثة، أما رعاية الأمانة مع الله فهي فعل المأمورات وترك المنهيات وهذا ما لا يقدر عليه إلا ذو حظٍّ عظيم، والأمانة فى كل شيء لازمة في الوضوء والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك من الجوارح والمدارك، فمثلا إن أمانة اللسان أن لا يستعمله فى الكذب والغيبة والنميمة والكفر

---

[٨٧١] – النساء ٥٨

والبدعة والفحش وغيرها، وأمانة العينين أن لا يستعملهما فى النظر إلى الحرام، وأمانة السمع أن لا يستعمله فى سماع الملاهي والمناهي واستماع الفحش والأكاذيب وغيرها وكذا القول فى جميع الأعضاء.

أما الذي لا ينصاع إلى ما أمر به الكبير المطلق ويسعى في الأرض فسادا، ويعمد إلى الأذى والإضرار بمصالح الناس فهذا من باب التكبر على خلق الله الذي توعده الله تعالى بأشد العذاب، لأنهم ظلموا الآخرين وظلموا أنفسهم كما قال تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[٨٧٢] فهؤلاء ظلموا الآخرين بما كانوا يفعلون من سوء الأعمال في الاعتداء على الناس وهضم حقوقهم، وأما ظلمهم لأنفسهم فقد أودوا بها إلى التهلكة بما كانوا يصنعون ويقترفون من ذنوب، والذين يكون هذا دأبهم وسعيهم ولا يمتثلون لأوامر الكبير المتعال فقد شطوا شططا كبيرا في أنواع التكبر المختلفة، وأولها التكبر على الله تعالى بعدم الامتثال لما أمر به من الطاعات، وعدم الابتعاد عما نهى عنه، وهو أقبح أنواع الكبر وأخبثها، ومردّ ذلك إلى الجهل الذي سيطر على صاحبه بحيث يزين له سوء عمله، ثم التكبر على الكبير بالإضافة الذي كان يرشدهم ويسدي إليهم النصح من أجل إصلاحهم وصلاحهم، وكونهم تعززوا بأنفسهم وترفعوا عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وهذا التكبر أيضا كالتكبر على الله تعالى، وبذلك استحقوا العذاب، والنوع الآخر التكبر على العباد وهو بأنهم يستعظمون أنفسهم ويحتقرون غيرهم، فيأبون الانقياد للحق مما يدعوهم إلى الترفع عليهم، فيزدرون الآخرين ويستصغرونهم ويستنكفون عن مساواتهم وهو أيضا قبيح وصاحبه جاهل كبير يستحق سخطا عظيما من الكبير المتعال إذا لم يتوبوا. فالكبر ينقسم إلى تكبّر واستكبار حيث أن: "الكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، والاستكبار على وجهين: أحدهما أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً، وذلك متى كان على ما يحب وفي المكان الذي يحب وفي الوقت الذي يحب وهو محمود، والثاني أن يتشبع

---

[٨٧٢] – النحل ٢٨– ٢٩

فيظهر من نفسه ما ليس له وهو مذموم، والتكبر على وجهين أيضاً، الأول أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وعلى هذا وُصف الله تعالى بالمتكبر، والثاني أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً وذلك في وصف عامة الناس، والتكبر على الوجه الأول محمود وعلى الثاني مذموم"[٨٧٣]

ولذلك فإن الله تعالى نهى عن الكبر وأختص نفسه بهذه الصفة لأنه حكم عدل لا يظلم أحدا، وخالق بارئ مصور، فكان حقيقا له أن يكون كبيرا جل شأنه وعظُمت قدرته، وتقدست أسماؤه وصفاته، فالذي يخلق فيهدي والذي يحكم فيعدل، والذي يرزق فيغني، لهو جدير بأن يكون كبيرا، ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى خلقه عن الكبر، لأنهم لا يملكون مقومات الكبير إلا ما يتصف به الخليفة كونه كبيرا بالإضافة من قوة في غير ضعف، وشدة من غير عنف لذلك قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[٨٧٤] حيث نهى سبحانه وتعالى أن يقطب الإنسان وجهه في وجه أخيه الإنسان، أو أن يميل بخده أي يعرض عن الآخرين تكبرا، ولا يمشي في الأرض معجبا بنفسه، فإنه لن يستطيع أن يخرق الأرض ولا يبلغ الجبال طولا، فهذه آيات الله التي خلقها شاهدة على ضعف الإنسان وضآلته فعلى أي شيء يتكبر وهذه المخلوقات التي لا تعقل هي أعظم منه في كل شيء. ولكن من استخلفه الله في أرضه يكون كبيرا في إقباله على الناس بجملة وجهه، لا بطرف عينه، عند اللقاء والتحية والسلام، وذلك تواضعا لهم لأنه يعلم أن من تواضع رفعه الله، فلا يعطي شقّ وجهه وصفحيه كما يفعل المتكبرون احتقارا للناس وخاصة إذا كانوا من الفقراء، غير أن الخليفة يكون عنده الفقير والغني والكبير والصغير والذكر والأنثى في المعاملة على قدم المساواة بينهم فيما عليه عامة الناس، فمن خرج عن الأعراف المعهودة، والقيم المتماثلة، والأخلاق العامة التي تواطأ عليها المجتمع، فإن واجب الخليفة أنُ يقوّم هذا الذي خالف الناس بهديه وإرشاده، وإعادته إلى جادة الصواب حتى لا يصبح من

---

٨٧٣ – تفسير الألوسي، ج ١٠، ١٤٤

٨٧٤ – لقمان ١٨.

المتكبرين، لأن الخليفة يكون نصب عينيه ما قاله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[٨٧٥] فهذه أخلاق الخليفة ذلك أنه من عباد الرحمن، فهم الذين يتواضعون فى الدنيا، إذا مَشوْا على الأرض مشوا فى سكينة ووقار، وكذلك فى سائر أعمالهم، وإذا سابَّهم السفهاء تركوهم وشأنهم، وذلك لسعة حلمهم وعظيم هيبتهم، وترفعهم عن الرذائل وتعلقهم بالفضائل، وذلك من رجاحة العقل وحسن التدبير والتصرف، فمن هذا القبيل أنه: "شتم رجل رجلا فسكت عنه، فقيل له لماذا، فقال: أرأيت أن نبحك كلب أتنبحه؟ وأن رمحك حمار أترمحه؟"[٨٧٦].

أما عباد الدنيا والشيطان والنفس والهوى فإنهم وإن كانوا عبادا بالإيجاد حيث أوجدهم الخالق، لكنهم ليسوا بأهل لإضافة التشريف والتفضيل من حيث عدم اتصافهم بالصفات التي هي آثار رحمته تعالى الخاصة المفضلة على خواص العباد، فهؤلاء المتكبرون هم أهون خلق الله على الله، لأنه هو الكبير المتعال، فمن تكبر قصمه الله، ومن تواضع لله رفعه درجات.

نسأل الله تعالى الكبير المتعال، الذي ثبت الأرض بأوتاد الجبال، وروّى نباتها من السحاب الثقال، أن يرزقنا التواضع لكبريائه، ويرفعنا به إلى الدرجات العلى، اللهم اجعلنا من المتقين الوارثين الجنة، ولا تحرمنا رفدك ورحمتك يا عظيم المنة، اللهم أنت الكبير، ذو الفضل الجزيل، والعز الجليل، نسألك الأمن والأمان، اللهم يا كبير يا واسع الرحمة والمغفرة نسألك أن تتغمدنا برحمتك في الدنيا والآخرة، وأن ترحم ضعفنا بقوتك، وتجبر كسرنا بكبريائك، وتشد أزرنا باعتصامنا بك، وترحم ذلنا بعزتك، وتهدينا سبلنا برشدك، وتسدل علينا ثوب الستر في الدنيا والآخرة، ولا تكلنا لأنفسنا فنشقى، ولا إلى الناس فنضل، اللهم اجعل توكلنا عليك، فأنت الكبير الذي لا تدركه البصائر، ولا تحيط بكنهه الأبصار، تباركت ربنا وتعاليت،

---

[٨٧٥] – الفرقان ٦٣- ٦٧

[٨٧٦] – ربيع الأبرار، ج١، ص ١٤٦

لا ملجأ منك إلا إليك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الكبرياء في الآخرة والأولى، فاغفر لنا ما نعلم، وتجاوز لنا عمّا لا نعلم، إنك سميع مجيب.

اللهم إنك الكبير الذي يَكنُّ في الصدور وتطمئن به الأنفس ويعلو في المآذن فيربط علاقة بين الأرض والسماء نشهدك ونوحدك ولا نشرك بك شيئا، اللهم إنك خلقت كل شيء فيه إعجاز كبير وأنت الأكبر فلا تجعلنا نسجد ولا نركع لكبير سواك، ونشهد أنك الأول الكبير الذي ليس قبله شيء وكل شيء منه أصغر، وإنك الآخر الأكبر الذي ليس بعده شيء أكبر، وإنك الكبير الذي لا بداية له ولا نهاية سبحانك جلَّ جلالك. اللهم إن عقابك كبير وحسابك عسير ورحمتك ومغفرتك تيسير فنحمدك على شدة عقابك للكافرين والمشركين والفاسقين ونحمدك على واسع رحمتك ومغفرتك للمهتدين إنك أنت الرحمن سبحانك جل جلالك.

الحفيظ

الحفيظُ "الحافِظُ لمن يشاءُ من الشَّرِّ والأذى والهَلَكَةِ والبلاء. واسم الله الحفيظ يدل على ذات الله وصفة الحفظ من صفات الفعل بدلالة المطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى صفة الحفظ وحدها بدلالة التضمن"[٨٧٧].

الحفيظ من أسمائه الحسنى وهو جل جلاله لا يَعْزُب عن حفظه الأَشْياء كلَّها مِثقالُ ذرّة في السموات والأرض وقد حفِظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أَو شرّ وقد حفِظ السمواتِ والأرضَ بقدرته ولا يؤُوده حفظهما وهو العليُّ العظيم. وفي التنزيل العزيز: {بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}[٨٧٨]. أَي القرآنُ المجيد في لوح محفوظ من عند الله تعالى، قال عزّ وجلّ: {فاللَّه خير حِافْظاً وهو أَرحم الراحمين}[٨٧٩] وقرئ: خير حِفْظاً نصب على التمييز ومن قرأ حافظاً جاز أَن يكون حالاً وجاز أن يكون تمييزاً. وقال ابن سيده: الحِفْظ نقيض النِّسْيان وهو التعاهُد وقلَّة الغفلة. وإنه لحافظُ العين أَي لا يغلِبه النوم، وقال الأَزهري: رجل حافِظ وقوم حُفّاظٌ وهم الذين رُزِقوا حِفْظَ ما سَمِعوا وقلما يَنْسَوْنَ شيئاً يَعُونَه. وقال غيره: الحافِظُ، والحَفِيظُ الموكَّل بالشيء يَحْفَظه[٨٨٠]. يقال: فلان حَفِيظُنا عليكم وحافِظُنا. والحَفَظة: من الملائكة الذين يُحْصُونَ الأعمال ويكتبونها على بني آدم وهم الحافظون. وفي التنزيل: {وإِنّ عليكم لَحافِظِين}[٨٨١] ولم يأْت في القرآن مكسَّراً. و حَفِظَ المالَ والسِّرَّ حِفْظاً: رَعاه. وقوله تعالى: {وجعلنا السماء سَقْفاً مَحفوظاً}[٨٨٢] قال الزجَّاج: حفِظه اللَّه من الوُقوع على الأرض إلاَّ بإِذْنه وقيل: مَحْفوظاً بالكواكب كما قال تعالى: {إِنْا زَيَّنَا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحِفْظاً من كلِّ شيطان مارِدٍ}[٨٨٣]. والاحْتِفاظُ: خصوص الحِفْظ يقال: احْتَفَظْتُ بالشيء لنفسي وذلك بأسباب الخصوصية ويقال: استحفظْت فلاناً مالاً إِذا سَأَلتَه أَن يَحْفَظه لك و استحفظته سِرًّا

---

[٨٧٧] أسماء الله الحسنى، ج ١٩، ص ١٣.

[٨٧٨] البروج ٢١، ٢٢.

[٨٧٩] يوسف ٦٤.

[٨٨٠] لسان العرب المحيط ، ج ٧، ص ٤٤٠.

[٨٨١] الانفطار ١٠.

[٨٨٢] الأنبياء ٣٢.

[٨٨٣] الصافات ٧.

واستحفظه إياه: اسْترعاه[٨٨٤]. وفي التنزيل: في أَهل الكتاب {بما استُحْفِظوا من كتاب اللَّه}[٨٨٥] أَي استُودِعوه أتمنوا عليه. واحتفظ الشيءَ لنفسه: خَصَّها به. والتحفُّظ: قلَّة الغَفْلة في الأُمور والكلام والتيقُّظ من السَّقْطة كأَنه على حَذر من السُّقوط، والمُحافَظة: المُواظَبة على الأمر. ويقال: حافَظ على الأمر والعَملَ وثابَرَ عليه وحارَصَ وبارَك إذا داوَم عليه. وحَفِظْت الشيءَ حِفْظاً أَي حَرَسْته و حَفِظتُه أَيضاً بمعنى استظهرته. و المحافظة: المُراقبة. ويقال: إنه لذو حِفاظٍ وذو مُحافظة إذا كانت له أَنفةٌ. والحَفِيظ: المُحافِظ. ويقال: احْتفِظْ بهذا الشيء أي احْفظُه. والتحفُّظ: التيقُّظ. واستحفظته: سأَلته أن يَحْفَظَه. والمُحافظة والحِفاظ: الذَّبُّ عن المَحارِم والمَنْعُ لها عند الحُروب والاسم الحَفِيظة. والحِفاظ: المُحافظة على العَهْد والمُحاماةُ على الحُرَم ومنعُها من العدوّ. يقال: ذُو حفِيظة. وأَهل الحِفاظ وهم المُحامون على عَوْراتهم الذَّابُّون عنها. وقيل: المُحافظة الوَفاء بالعَقْد والتمسُّكُ بالودّ[٨٨٦].

والحفظ مستمد من الحفيظ جل جلاله، والحفظ على وجهين:

الوجه الأول: إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها ويضاده الإعدام والله تعالى هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات والنبات وغيرهما

الوجه الثاني: أن الحفظ صيانة المتعاديات والمتضادات بعضها عن بعض وأعني بهذا التعادي ما بين الماء والنار فإنهما يتعاديان بطباعهما فإما أن يطفئ الماء النار وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخارا ثم هواء والتضاد والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة إذ تقهر إحداهما الأخرى وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هذه الأصول المتعادية إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه كالدم وما يجري مجراه ولا بد من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه

---

[٨٨٤] تاج العروس، ج ١، ص ٥٠٥٤- ٥٠٥٥ .

[٨٨٥] المائدة ٤٤.

[٨٨٦] مختار الصحاح ، ج ١، ص ، ٦١.

خصوصا ما صلب منها كالعظام ولا بد من برودة تكسر سورة الحرارة حتى تعتدل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهذه متعاديات متنازعات.

وقد جمع الله عز و جل بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركبات ولولا حفظه تعالى إياها لتنافرت وتباعدت وبطل امتزاجها واضمحل تركيبها وبطل المعنى الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها مرة وبإمداد المغلوب منها مرة أخرى.

أما التعديل فهو أن يكون مبلغ قوة البارد مثل مبلغ قوة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يغلب فيتقاومان ويبقى قوام المركب بتقاومهما وتعادلهما.

ومن جهة أخرى إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتى يقاوم الغالب ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتجففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب وهو الماء ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب فخلق الله تعالى البارد الرطب مددا للبرودة والرطوبة إذا غلبتا وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتى إذا غلب شيء عورض بضده فانقهر وهذا هو الإمداد وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية وخلق الآلات المصلحة لها وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها وكل ذلك لحفظ الله عز و جل أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات، وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك[٨٨٧].

وعليه: الحفيظ هو الله الذي بيده مقاليد القوة المطلقة، وهو الذي بيده الأمر والنهي، وهو على كل شيء قدير، أي لو لم يكن مالك القدرة ما كان حفيظا، وهكذا لو لم يكن رحمن رحيم ما كان حفيظا، ولو لم تكن له الصفات الحسان ما كان حفيظا، ولأن له كل ذلك فهو الله جل جلاله.

---

[٨٨٧] المقصد الأسنى ، ج ١، ص ١١٠ . ١١٢.

وأسم الحفيظ يتضمن في مدلوله الاستمرارية، (استمرارية الحفظ) ولذلك فالحفيظ أسم الله تعالى يتجاوز معناه القيمي والتفضيلي ما يدل عليه أسم (الحافظ) الذي لم يكن أسم من أسماء الجلالة. فالحافظ يمكن أن يكون مادة توضع فيه الأشياء مؤقتا والحفيظ لا يمكن أن يكون كذلك فهو الباقي ولله الحمد.

وترتبط صفات الحفيظ بجميع الصفات الربانية الأخرى فهو الحفيظ الرحمن الرحيم، وهو الحفيظ الودود الغفور، وهو الحفيظ القادر، هو المانع والوكيل والرقيب والمقيت.

الحفيظ المانع:

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع والمنع إضافة إلى السبب المهلك، والحفظ إضافة إلى المحروس عن الهلاك وهو مقصود المنع وغايته إذ المنع يراد للحفظ والحفظ لا يراد للمنع فكل حافظ مانع وليس كل مانع حافظا إلا إذا كان مانعا مطلقا لجميع أسباب الهلاك والنقص حتى يحصل الحفظ من ضرورته[٨٨٨].

والعبد المؤمن الذي يُراد له أن يكون خليفة لله في الأرض هو الذي يستمد صفاته من صفات خالقه عز وجل، فيمنع الظلم عن المظلوم، ويحفظ الدين والشرف والكرامة ولا يخشى أحداً في ذلك إلا الله تعالى. فالحفيظ المطلق هو الذي يمنع الجوع عن الجائعين والظمأ عن الظمأنين ويفرِّج كرب المهمومين كيفما يشاء متى ما يشاء سبحانه بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الحفيظ الوكيل:

الوكيل في اللغة بمعنى الكافي لأنه يكفى موكله أمر ما وكله فيه، وهذا معنى قولهم حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد يكون الوكيل أيضا بمعنى الحفيظ[٨٨٩]، ومنه قوله تعالى: {قل لست

---

[٨٨٨] المقصد الأسنى ج، ١ ص ، ١٤٥.

[٨٨٩] الفرق بين الفرق، ج ١ ص ، ١٤٦

عليكم بوكيل}[٨٩٠] أي حفيظ. وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}[٨٩١] (ولو شاء الله) توحيدهم وعدم إشراكهم (ما أشركوا) وهو دليل على انه تعالى لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى انه تعالى يمنعه عنه مع توجهه إليه بل بمعنى انه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئي نحو الإيمان وإصراره على الكفر (وما جعلناك عليهم حفيظا) رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم قيل: وإنما جمع بين حفيظ ووكيل لاختلاف معناهما. فان الحفيظ هو الذي يصون ما يحفظه عما يضره ليبقى سليما نقيا. والوكيل بالشئ هو الذي يجلب الخير إليه وبذلك فالخليفة موكل إليه أمر السعي بالخير لأجل جلب الخير للعباد فيكون رحيما كريما وحافظا لكل ما لهم وما عليهم فبذلك يكون قد صان وحفظ مستخلفيه من كل ما يؤثر على سير عبادتهم وعقيدتهم[٤]، ولذلك فالخليفة هو حافظ للسر الإلهي في صدره إيمانا تاما وعملا مخلصا وطاعة وافية له وحده لا شريك له.

الحفيظ الرقيب:

الرقيب هو الله صاحب الفطنة المطلقة التي بها يتم الحفظ من كل شر وسوء، وهو العليم الذي لا يسهو ولا ينسى ما يحفظ فهو الذي لا تأتيه السنة ولا النوم سبحانه لا إله إلا هو. وقيل: من لا يشغله شيء عن شيء فمرجعه صفة سلبية وقيل يبقي صور الأشياء فصفة فعلية من الحفظ الذي يضاد التضييع. والرقيب كالحفيظ وقيل: هو أخص من الحفيظ؛ لأن الرقيب هو الذي يراعي الشيء بحيث لا يغفل عنه أصلا ويلاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوما لو عرفه الممنوع عن ذلك الشيء لما أقدم عليه فكأنه يرجع إلى العلم والحفظ ولكن باعتبار اللزوم وبالإضافة إلى ممنوع عنه محروس عن التناول[٥].

---

[٨٩٠] الأنعام ٦٦.

[٨٩١] الأنعام، ١٠٧.

[٤] تفسير حقي، ج ٤، ص ١٣.

وعليه فالعبد المستخلف في الأرض هو الرقيب عليها من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق، نعم أن رعاية الأرض وحفظ وجودها بيد الله الحفيظ العظيم، ولكن حفظها من الفساد والهلاك الذي يفسد الحرث والزرع، فأمره بيد الناس الذين يراد لهم العيش عليها ومنها، فإفساد الأرض نتائجه تلاحق الإنسان الذي خلقه الله ليعيش عليها ويرثها مستخلفا فيها، فالتلوث البيئي الذي يؤثر على الأرض ومن فيها ويؤثر على الغلاف الجوي هو بيد الإنسان، واستغلال الأرض في زرع مالا يرضي الله فساد فيها، وإقامة المصانع التي تنتج ما حرَّم الله من شرب هو فساد بيد الناس في غير طاعة الله؛ اللهم أحفظنا وأبنائنا من كل معصية ومن كل سوء وشر واجعلنا من المصلحين.

الحفيظ المقيت:

قال تعالى: {وَكَانَ الله على كُلّ شيء مُّقِيتاً}[٨٩٢]. وفيه المقيت مشتق من القوت، يقال: قت الرجل إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته، واسم ذلك الشيء هو القوت، وهو الذي لا فضل له على قدر الحفظ، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة، ثم قال القفال رحمه الله: وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح، وهو أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولا ينتقص بسبب ما يصل إلى الشافع شيء من جزاء المشفوع، وعلى الوجه الثاني أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفى عليه شيء من أحوالنا، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه فيجازى كلا بما علم منه[٦].

والإيقاتة لا تأتي إلا بعد شدة، فالذي يعطش أو يجوع جدا، هو في حاجة لما يفرج عليه كربه، ولهذا فهو في حاجة للإقاتة التي تجعله يعود ثانية إلى قيد الحياة الذي يمكنه من الإشباع لما هو ضروري بعد أن تعرض إلى ما يؤدي به إلى الهلاك. وعليه عند الشدة القصوى لا مُفرج للكرب العظيم إلا العظيم المطلق ولا حفيظ من شر عظيم إلا حفيظ عظيم

---

[٨٩٢] النساء ٨٥.

[٦] تفسير الرازي ، ج ٥ ، ص ٣١١.

بالمطلق جل جلاله. ومع ذلك فالإنسان في الدار الدنيا في حاجة لأخيه الإنسان، ولهذا أوجب الله تعالى التعاون على البر والتقوى في طاعة الله بما يؤدي إلى الإصلاح ويزيل الفساد من على وجه الأرض.

ولهذا تشكلت لجان للإغاثة على مستوى الدول وعلى المستوى العالمي لتمد يد العون لمن يتعرضون للكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وغيرها، ومما يتعرضون له من حروب على أيدي المفسدين وسافكي الدماء في الأرض بغير حق. ولذا يفرز الله الحق من الباطل، حتى يُفرز المصلح من المفسد والله مقيت حفيظ سبحانه رب العالمين له الملك وله الحمد والطاعة.

الحفيظ المهيمن:

المهيمن معناه أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وقيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه وكل مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له فهو مهيمن عليه والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا لله عز وجل[٨٩٣]. ولذلك فالحفيظ هو الفعَّال لما يُريد، وهو المهيمن على كل ما يُريد، وهو مالك الملك وبيده الأمر، وهو كما يعلم الغيب يُجيب الدعاء، والمؤمنون به يؤمنون بأنه لن يصيبهم شيئا لم يُكتب لهم، ولهذا هم المحفوظون من كل سوء، وهم المستخلفون على الطاعة والحفظ.

الحفيظ الأواب:

قال تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}[٨٩٤]. الأواب هو الراجع إلى الله تعالى، الفرق بين الأوب والرجوع أن الأوب ضرب من الرجوع وذلك أنه لا يقال إلا لمن له إرادة والرجوع يقال فيه وفي غيره آب أوبا وإيابا ومآبا والمآب مصدر منه واسم الزمان والمكان و(**حفيظ**) حافظ لتوبته من النقض ولعهده من الرفض وفى التأويلات النجمية مقعد صدق هو في

---

[٨٩٣] المقص د الأسنى، ج، ١ ص ، ٧٢.

[٨٩٤] ق، ٣٢.

الحقيقة موعود للمتقين الموصوفين بقوله (لكل أواب حفيظ) وهو الراجع إلى الله في جميع أحواله لا إلى ما سواه حافظا لأنفاسه مع الله لا يصرفها إلا في طلب الله. وقيل: هو الراجع إلى الله تعالى بقلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله، والحفيظ هو المحافظ على الطاعات والأوامر كما هو حال المستخلفين في الأرض فهم لا يقومون إلا بما يرضي الله تعالى تجاه مستخلفيهم فهم ظله في أرضه، فهم يقومون بواجباتهم المكلفين بها والمحافظة عليها ليشملهم اسمه الحفيظ الذي يسيرون بنهجه على الأرض وينفذون أوامره تجاه خلقه بتوجيههم إلى ما يرضي الله سبحانه وهذا أمر ليس سهلا وإلا أستطاع أن يقوم به أي كان ولا داعي للاختيار الرباني لهم وذلك لما يتبع هذا الاختيار وهذا التكليف من أعباء لا يستطيع حملها إلا من كان أهلا لذلك، ونسأل الله العون والحفظ آمين. وقيل: الأواب الراجع بقلبه إلى ربه، والحفيظ الحافظ قلبه في رجوعه إليه أن لا يرجع منه إلى أحد سواه، وقيل هو المحافظ لأوقاته وخطراته أي الخطرات القلبية والإلهامات[٨٩٥].

ومن وجوه حفظه:

أولا: إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها: ويضاده الإعدام والله تعالى هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات والنبات وغيرهما. ومع أن الحفظ دوام مطلق بيد الحفيظ المطلق، والحفظ المؤقت بيد الحفيظ المؤقت، إلا أن الخليفة المؤمن له بقاء مؤقت مع حفظ دائم، أي ببقائه على قيد الحياة المؤقتة، يظل حفظه دائماً، فهو لا يخون أمانة ولا عهد يتخذه أمام الحفيظ المطلق مادام على قيد الحياة، ولهذا سيظل الحفظ دائماً من بعد موته أو استشهاده في سبيل الله تعالى في سجل بيد الحفيظ الدائم.

ثانيا: حفظ المتعاديات والمتضادات: وأعني بهذا التعادي ما بين الماء والنار فإنهما يتعاديان بطباعهما فإما أن يطفئ الماء النار وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخارا ثم هواء

---

[٨٩٥] تفسير حقي ، ج ١٤ ، ص ١٤٥.

والتضاد والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة إذ تقهر إحداهما الأخرى وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هذه الأصول المتعادية إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه ولا بد من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصا ما صلب منها كالعظام ولا بد من برودة تكسر سورة الحرارة حتى تعتدل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهذه متعاديات متنازعات وقد جمع الله عز وجل بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركبات ولولا حفظه تعالى إياها لتنافرت وتباعدت وبطل امتزاجها واضمحل تركيبها وبطل المعنى الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها مرة وبإمداد المغلوب منها مرة أخرى. أما التعديل فهو أن يكون مبلغ قوة البارد مثل مبلغ قوة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يغلب فيتقاومان ويبقى قوام المركب بتقاومهما وتعادلهما وهو الذي يعبر عنه باعتدال المزاج. والثاني إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتى يقاوم الغالب ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتجففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب وهو الماء ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب فخلق الله تعالى البارد الرطب مددا للبرودة والرطوبة إذا غلبتا وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتى إذا غلب شيء عورض بضده فانقهر وهذا هو الإمداد وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية وخلق الآلات المصلحة لها وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها وكل ذلك لحفظ الله عز وجل أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات، وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل[٨٩٦].

ثالثا: الحفظ من الهلاك بأسباب خارجة: كسباع ضارية وأعداء متنازعة فحفظه من ذلك بما خلق له من الجواسيس المنذرة بقرب العدو وهي طلائعه كالعين والأذن وغيرهما، ثم خلق له

---

[٨٩٦] المقصد الأسنى ج، ١ ص ، ١١٠ – ١١٣

اليد الباطشة والأسلحة الدافعة: كالدرع والترس والقاضية كالسيف والسكين، ثم ربما يعجز مع ذلك عن الدفع فأمده بآلة الهرب وهي الرجل للحيوان الماشي والجناح للطائر. وكذلك شمل حفظه جلت قدرته كل ذرة في ملكوت السموات والأرض حتى الحشيش الذي ينبت في الأرض يحفظ لبابه بالقشر الصلب وطراوته بالرطوبة وما لا يحفظ بمجرد القشر يحفظه بالشوك النابت منه ليندفع به بعض الحيوانات المتلفة له فالشوك سلاح النبات كالقرون والمخالب والأنياب للحيوانات بل كل قطرة من ماء معها ملك حافظ يحفظها عن الهواء المضاد لها فإن الماء إذا جعل في إناء وترك مدة استحال هواء وسلب الهواء المضاد له صفة المائية عنه ولو غمست الإصبع في ماء ورفعتها ونكستها تدلت منها قطرة ماء تبقى منكسة لا تنفصل مع أن من شأنها الهوى إلى أسفل ولكنها لو انفصلت وهي صغيرة استولى الهواء عليها وأحالها ولا تزال تمكث متدلية حتى يجتمع إليها بقية البلل فتكبر القطرة فتستجري على خرق الهواء بسرعة ولا يستولي الهواء على إحالتها وليس ذلك حفظا منها لنفسها عن معرفة بضعفها وقوة ضدها وحاجة استمدادها من بقية البلل وإنما ذلك حفظ من ملك موكل بها بواسطة معنى متمكن من ذاتها، وقد ورد في الخبر أنه لا تنزل قطرة من المطر إلا ومعها ملك يحفظها إلى أن تصل إلى مستقرها من الأرض وذلك حق والمشاهدة الباطنة لأرباب البصائر قد دلت عليه وأرشدت إليه فآمنوا بالخبر لا عن تقليد بل عن بصيرة، والكلام أيضا في شرح حفظ الله تعالى السموات والأرض وما بينهما طويل كما في سائر الأفعال وبه يعرف هذا الاسم لا بمعرفة الاشتقاق في اللغة وتوهم معنى الحفظ على الإجمال. والحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه وقلبه ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان فإنه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار وعلى الخليفة أن يحذر مستخلفيه من كل ما يوقعهم في ذلك فيوفِّر لهم موجبات الحفظ بما حباه الله من نعم لا تكون عند غيره من الناس وبما أوهبه الله من موجبات الحفظ فيرشد العباد إلى كل ما هو نافع كما أمره تعالى[٨٩٧].

---

[٨٩٧] المقصد الأسنى ج، ١ ص ، ١١٠ – ١١٣

والحفيظ جل جلاله هو الحافظ لكل ما خلق ويستوجب الحفظ، وهو المهلك لمن يستوجب الهلاك وفي كلتا الحالتين آية، حتى يؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر، ولا يُغيِّر سنة الله في خلقه أحدا. ولهذا فالخلفاء هم المؤمنون حقا، الذين حباهم الله بالهداية وأرشد عقولهم إلى نور الإسلام، أما أولئك الكفرة الفجرة والمشركون فهم بشقاوتهم ضالون والمؤمنون على إيمانهم باقون.

فعلامة الشقاوة على سبيل المثال: جمود العين، وقساوة القلب، وحب الدنيا، وطول الأمل. وعلامة السعادة حب الصالحين والدنو منهم وتلاوة القرآن وسهر الليل ومجالسة العلماء ورقة القلب. وعن إبراهيم المهلب السائح رحمه الله قال بينما أنا أطوف إذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول بحبك لي ألا رددت عليّ قلبي فقلت يا جارية من أين تعلمين انه يحبك قالت بالعناية القديمة جيش في طلبي الجيوش وأنفق الأموال حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في بلاد التوحيد وعرفني نفسي بعد جهلي إياها فهل هذا يا إبراهيم إلا لعناية أو محبة. والواجب على الخليفة أن يسارع بالعباد إلى الأعمال الصالحة فإنها من علامات السعادة والحفظ، والتأخير وطول الأمل من علامات الشقاوة والترك، حكي أن بعض العبّاد كان يسأل الله تعالى أن يريه إبليس فقيل له اسأل الله العافية فأبى إلا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العبّاد قصده بالضرب فقال له إبليس: لو انك تعيش مائة سنة لأهلكتك ولعاقبتك فاغتر بقوله فقال في نفسه أن عمري بعيد فافعل ما أريد ثم أتوب فوقع في الفسق وترك العبادة وهلك وهذه الحكاية تحذرك طول الأمل بترك الحفظ للجوارح من الغرور فانه آفة عظيمة وتأمر بإتباع نصائح وتوجيهات الخليفة وأصحاب الحق في الأمة. الخليفة هو الولي الوارث لكن الوصول إلى هذه المقامات إنما يكون بهداية الله ومشيئته فليس في وسع الخليفة إن يوصل كل من أراد إلى ما أراده فيبقي من يبقي في الاثنينية ويصل من يصل إلى عالم الوحدة والسبب الموصل هو التوحيد فكما أن الكافر لا يكون مؤمنا إلا بكلمة التوحيد فكذا

المؤمن لا يكون مخلصا إلا بتكرارها لان الشرك مطلقا جليا كان أو خفيا لا يزول إلا بالتوحيد مطلقا[٨٩٨].

من مظاهر حفظه جل جلاله:

حفظ السماء:

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آَيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}[٨٩٩]. سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت. وفي المحفوظ قولان:

الأول: أن محفوظ من الوقوع والسقوط الذين يجري مثلهما على سائر السقوف كقوله تعالى: {وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ}[٩٠٠]. وقال تعالى: {وَمِنْ آياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ}[٩٠١]، وقال تعالى: {إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ}[٩٠٢]، وقال تعالى: {وَلاَ يُؤُدهُ حِفْظُهُمَا وهو العلي العظيم}[٩٠٣].

الثاني: محفوظاً من الشياطين مصداقا لقوله تعالى: {وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ}[٩٠٤]. ثم ههنا قولان:

أحدهما: أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين.

والثاني: أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين، والقول الأول أقوى لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظماً لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لأنه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن[٩٠٥].

---

[٨٩٨] تفسير حقي ، ج ٤ ، ص ١٣

[٨٩٩] الأنبياء ٣٢.

[٩٠٠] الحج ٦٥.

[٩٠١] الروم ٢٥.

[٩٠٢] فاطر ٤١.

[٩٠٣] البقرة ٢٥٥.

[٩٠٤] الحجر ١٧.

[٩٠٥] تفسير الرازي ، ج ١١ ، ص ١٥.

قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٩٠٦]. أو هل رأيت –أيها الرسول– مثل الذي مرَّ على قرية قد تهدَّمت دورها، وخَوَتْ على عروشها، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم ردَّ إليه روحه، وقال له: كم قدر الزمان الذي لبثت ميتًا؟. قال: بقيت يومًا أو بعض يوم، فأخبره بأنه بقي ميتًا مائة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه، وكيف حفظهما الله من التغيُّر هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظامًا متفرقة؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس، أي: دلالة ظاهرة على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضها على بعض، ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحمًا، ثم يعيد فيها الحياة؟ فلما اتضح له ذلك عِيانًا اعترف بعظمة الله، وأنه على كل شيء قدير، وصار آية للناس[٩٠٧]. سبحانه الذي حفظ كل شيء آية وحجة راسخة واستشهادا بينا وقدرة لا تفوقها قدرة.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا}[٩٠٨]. (وهو الذي مرج البحرين) المرج: الخلط، والفرات كل ماء عذب، والبحر امتداد الماء المالح في رقعة جغرافية، والأجاج: أشد الملوحة، والبرزخ الحاجز بين الشيئين، قيل: أرسلهما، وقيل: حفظهما (هذا عذب فرات) وهو البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) الأجاج نقيض العذوبة الحلوة، ومرجهما خلاهما متحادين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما من التمازج وهذا من عظيم اقتداره وحفظه (وجعل بينهما

---

[٩٠٦] البقرة ٢٥٩.

[٩٠٧] التفسير الميسر ، ج ١ ، ص ٢٧٢

[٩٠٨] الفرقان ٥٣.

برزخاً) وبحفظه لهما جعل بينهما حائلاً من قدرته كقوله: (بغير عمد ترونها) يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته (وحجراً محجوراً) أي منعاً وستراً لا يفسد المالح العذب (وهو الذي خلق من الماء) أي النطفة ومنها خلق بني آدم (بشراً فجعله نسباً وصهراً) النسب تكوين علائقي بين الناس، والصهر ما يحل نكاحه بقصره محفوظا على محدد لا يشترك معه احد فيه، عن علي رضي الله عنه وعن ابن سيرين: نزلت نسباً وصهراً في النبي وعليّ بن أبي طالب هو ابن عمه وزوج ابنته منه، وقيل: النسب سبعة والصهر خمسة، والله أعلم[٩٠٩].

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٩١٠]. الحفيظ هو الذي خلق الحركة التي بها تمتد الأجسام وتنكمش، وهو الذي خلق كل شيء بحفظه ودبر أمره تدبرا دون أن يحدث الخلل، فالليل بحفظه يتعاقب مع النهار والشمس والقمر بحفظه كل في فلك يسبحون. وفيه إنه إذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة، فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه، وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة، فإن كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية، وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية، وكان الكوكب يتحرك بطيئاً لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط، وكان يعرض قريباً مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت سبحانه الحفيظ الذي خلق كل شيء بميزان، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى

---

[٩٠٩] تفسير الأعقم ، ج ١ ، ص ٤٧١.

[٩١٠] الأنبياء ٣٣.

مصوناً عن طرفي الإفراط والتفريط. وبالجملة، فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية في حفظه[٩١١].

ومن حفظه قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}[٩١٢]. لما تقدم في آخر البروج أن القرآن في لوح محفوظ لأن منزله محيط بالجنود من المعاندين وبكل شيء، أخبر أن من إحاطته حفظ كل فرد من جميع الخلائق المخالفين والموافقين والمؤالفين، ليجازى على أعماله يوم إحقاق الحقائق وقطع العلائق، فقال مقسماً على ذلك لإنكارهم له: (والسماء) أي ذات الأنجم الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد الحافظ لطريق الحق، قال الملوي: المراد بها هنا ذات الأفلاك الدائرة والسماوات العلى بما جعل فيها من ليل ونهار ودورتهما ثلاثمائة وستين درجة لا تتغير أبداً في هذه الدار بنقص ولا زيادة بنصف درجة ولا دقيقة ولا ثانية ولا ما دون ذلك، بل كلما زاد أحدهما شيئاً نقص من الآخر بحسابه عرف ذلك من العقل والنقل والتجربة فعرف أنه يحفظه حفيظ حي لا يموت، قيوم لا يغفل ولا ينام. ولما أقسم بالسماء لما لها من الشرف والمجد تنبيهاً على ما فيها من بدائع الصنع الدالة على القدرة الباهرة. أقسم بأعجب ما فيها وهو جنس النجوم ثم بأغربه وهو المعد للحراسة تنبيهاً على ما في ذلك من غرائب القدرة فقال: (والطارق) أي جنس الكواكب الذي يبدو ليلاً ويخفى نهاراً، ويطرق مسترقي السمع فيبدد شملهم ويهلك من أراد الله منهم لأجل هداية الناس بالقرآن في الطرق المعنوية وظهوره وإشراقه في السماء لهدايتهم في الطرق الحسية وهو في الأصل لسالك الطريق، واختص عرفاً بالآتي ليلاً لأنه يجد الأبواب مغلقة فيحتاج إلى طرقها، ثم استعمل للبادي فيه كالنجم. ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولاً ثم عظم المقسم به بقوله: (وما أدراك) أي عرفك يا أشرف خلقنا عليه الصلاة والسلام وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه (ما الطارق) ثم زاده تهويلاً بتفسيره بعد إبهامه مرة أخرى بقوله تعالى: (النجم الثاقب) أي

---

[٩١١] تفسير الرازي ، ج ١١ ، ص ١٥

[٩١٢] الطارق، ١ . ٤.

المتوهج العالي المضيء كأنه يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه، أو يثقب بضوئه الأفلاك فتشف عنه، أو يثقب الشيطان بناره إذا استرق السمع. ولما ذكر الذي دل به على حفظ القرآن عن التلبيس وعلى حفظ الإنسان، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور، ودل على حفظ ما خلق لأجلها من هذه الأشياء المقسم بها على حفظ الإنسان لأنها إذا كانت محفوظة عن أدنى زيغ وهي مخلوقة لتدبير مصالحه فما الظن به؟ فقال مؤكداً غاية التأكيد لما للكفرة من إنكار ذلك والطعن فيه (إن) بالتخفيف من الثقيلة في قراءة الجمهور أي أن الشأن (كل نفس) أي من الأنفس مطلقاً لا سيما نفوس الناس (لما عليها) أي بخصوصها لا مشارك لها في ذاتها (حافظ) أي رقيب عتيد لا يفارقها، والمراد به الجنس من الملائكة، فبعضهم لحفظها من الآفات، وبعضهم لحفظها من الوساوس، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة ومشي؟ ونكاح وسفر وإقامة، فلا يتعدى شيئاً من ذلك نحن قسمنا نحن قدرنا، فإن قلت: إن الحافظ الملائكة، صدقت، وإن قلت: إنه الله، صدقت، لأنه الآمر لهم والمقدر على الحفظ، والحافظ لهم من الوهن والزيغ، فهو الحافظ الحقيقي، والتقدير: ما كل نفس موجودة إلا نفس كائناً أو كائن عليها حافظ[٩١٣].

وقد جاء ذكر الله للحفظة الموكلين ببني آدم الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم في مواضع من كتابه قال تعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون}[٩١٤]. وقال تعالى: {كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون}[٩١٥]. وقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى الملتقيان عن اليمين وعن الشمال

---

[٩١٣] نظم الدرر للبقاعي، ج ٩، ص ٣٩٠.

[٩١٤] الأنعام ٦١.

[٩١٥] الانفطار، ٩ . ١٢.

قعيد}[٩١٦]. ويخبرنا القرآن أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمايتهم، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيلها: قال تعالى {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}[٩١٧]، الكل هم محفوظون بما حفظ فيهم من سر وجهر، قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}[٩١٨]. وقال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[٩١٩]. فالملائكة حفظة للبشر، يحصون عليهم أعمالهم، ويقدمون كتب أعمالهم إلى رب العالمين، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر، وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة، وهنالك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حل وأينما سار، لا يفارقانه أبدا إلا في بعض المواطن كالخلاء مثلا [٩٢٠].

قال تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[٩٢١]. وعن ابن عباس في قوله: (ثمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) ولم يقل: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وعن ابن عباس: (وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}[٩٢٢]. ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى

---

[٩١٦] ق ١٦.

[٩١٧] الرعد ١٠.

[٩١٨] الرعد ١٠، ١١.

[٩١٩] ق ١٨.

[٩٢٠]

[٩٢١] الأعراف ١٣ . ١٧.

[٩٢٢] سبأ ٢٠، ٢١.

الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عَوْرَتي، وآمن رَوْعَتِي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك، اللهم أن أُغْتَال مِنْ تَحْتِي"[٩٢٣]. وعلى المكلف الاستعاذة من شياطين الإنس والجن بما أمر رب العالمين ليحفظ نفسه وأهله من أشرارهم ومكائدهم فإنه تعالى ما استجار به أحد وخاب ظنه، وعلى الخليفة أن يكون متيقظا ومنتبها لهذه الفائدة العظيمة ليحمي بها نفسه ومن استخلف عليهم من عباد الله من كيد الشياطين والمردة فينجو بهم إلى ربهم دون وقوعهم في كيد أعدائهم من الإنس والجن، ونسأل الله السلامة والعافية آمين.

قال تعالى : {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}[٩٢٤]. يقول تعالى لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا) يا محمد من مشركي قومك (مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) آلهة يتولونها ويعبدونها(اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ) يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم. (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)، يقول: ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.[١٩] ولما كان التقدير: فالذين تولوه وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنى أنه يزيلها عيناً وأثراً ، عطف عليه قوله: (والذين اتخذوا) أي عالجوا فطرهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا (من دونه) أي من أدنى رتبة من رتبته (أولياء) يعبدونهم كالأصنام وكل من اتبع هواه في شيء من الأشياء، فقد اتخذ الشيطان الآمر له بذلك ولياً من دون الله بمخالفة أمره. ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلاً إلى التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشرك من الظلم وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر: (الله حفيظ عليهم) أي المحيط بصفات الكمال

---

[٩٢٣] تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٣٩٥.

[٩٢٤] الشورى ٦.

[١٩] تفسير الطبري ، ج ٢١ ، ص ٥٠٢.

حفيظ عليهم أي رقيب وراع وشهيد على أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم، فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك كلية، فلم يعاقبهم ولم يعاتبهم، وإن شاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاتبهم (وما أنت عليهم بوكيل) أي حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم، فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل مما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن) أو قالوا (قلوبنا في أكنة) أو غير ذلك. ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى لأنها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة لاجتماع الخلفاء وغلبتهم على سائر الأديان وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق، ولا يريد أحد بأهله سوءاً إلا كان له فيه رفعة، وكانت رمزاً لأن المقام للإنذار، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاتها في أذن المبشر وحلاوتها في قلبه، ذكرها بلفظ المضارع الدال على التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار، وكان المتعنت ربما حمله له على الوعد بالإيحاء في المستقبل، وكان العاقل يكفيه في النذرى مرة واحدة فقال معبراً بالماضي الدال على الإمضاء والقطع والقضاء الحتم في كل من الإيحاء وفائدته التي هي الإنذار[٩٢٥].

وقال تعالى: (الله حفيظ عليهم) رقيب على أحوالهم وأعمالهم مطلع ليس بغافل فيجازيهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده، وقيل: معناه محفوظ لا يضيع كقوله (علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (وما أنت عليهم بوكيل) بموكول إليه أمرهم حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام وفيه إشارة إلى أن كل خليفة عمل بمتابعة هواه وترك لله حدا أو نقض له عهدا فهو متخذ الشياطين أولياء لأنه يعمل بأوامرهم وأفعاله موافقة لطباعهم والله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلانيتهم إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم وما أنت عليهم بوكيل لتمنعهم عن معاملاتهم، فعلى الخليفة أن لا يتخذ من دون الله أولياء بل يتفرد بمحبة

---

[٩٢٥] نظم الدرر للبقاعي ، ج ٧ ، ص ٣٨٦

الله وولايته كما قال تعالى (قل الله ثم ذرهم) حتى يتولاه في جميع أموره وما أحوجه إلى احد سواه.(٢١).

قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[٩٢٦]. (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) تدل على حفظه ورعايته وصونه لما خلق، ولا ولي على ما خلق إلا هو، والخليفة من بعده هو مسؤول على رعاية الحق وحفظه في ضوء ما يقول ويفعل، وأما قوله: (وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً، والمعنى: ضائق صدرك لأجل أن يقولوا: (لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ). فإن قيل: الكنز كيف ينزل؟ قلنا: المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمي المال الكثير بهذا الاسم ، فكأن القوم قالوا: إن كنت صادقاً في أنك رسول الإله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وإنك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغني به وتغني أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن كنت صادقاً فهلا أنزل الله معك ملكاً يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق، فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على إيجاد هذه الأشياء. والذي أرسله هو القادر على ذلك فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه في فعله وفي حكمه. ولذا فإن الوكيل هو الذي يتولى الأمر وهو الحفيظ أي يحفظ عليهم أعمالهم، ليجازيهم بها ونظير هذه الآية، قوله تعالى: {تَبَارَكَ الذي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً}[٩٢٧]. وللخليفة أن يكون واسع الصدر رحبه لأنه يلتقي مع كل معاند ومطيع لربه فينصح مستخلفيه ما أستطاع إلى ذلك سبيلا ودون أن يعبأ إلى أقوال المخالفين له والله المستعان وهو ولي التوفيق[٩٢٨].

---

[٢١] تفسير حقي ، ج ١٣ ، ص ٥٠.

[٩٢٦] هود ١٢.

[٩٢٧] الفرقان ١٠.

[٩٢٨] تفسير الرازي ، ج ٨ ، ص ٣٧٦

قال تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}[٩٢٩]. (قالت أحداهما) وهى الكبرى التي استدعته إلى أبيها وهى التي زوجها موسى (يا أبت استأجره) أي اتخذ موسى أجير لرعي الغنم والقيام بأمرها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) اللام للجنس لا للعهد فيكون موسى مندرجا تحته. روى أن شعيبا قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت له ما شاهدت منه من إقلاع الحجر عن رأس البئر ونزع الدلو الكبير وانه خفض رأسه عند الدعوة ولم ينظر إلى وجهها تورعا حتى بلغته رسالته وأنه أمرها بالمشي خلفه فخصت هاتين الخصلتين بالذكر لأنها كانت تحتاج إليهما من ذلك الوقت أما القوة فلسقي الماء وأما الأمانة فلحفظ البصر وصيانة النفس عنها كما قال يوسف عليه السلام (إني حفيظ عليم) لأن الحفظ والعلم كان محتاجا إليهما أما الحفظ فلأجل ما في خزانة الملك وأما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخرج[٩٣٠]. وعليه فإن القوي الأمين هو: الذي يستطيع الحفظ، أي بدون قوة وأمانة لا يمكن أن يكون للحفظ دلالة ومعنى، ولهذا الخليفة القوي بإيمانه هو المستخلف في الأرض ليحفظها من المفسدين والمخربين وسافكي الدماء فيها بغير حق. ولذلك لا يتم الحفظ إلا بإيمان وقوة، الإيمان بالله وهو صاحب الحق الذي به الخليفة يحكم بين الناس، والقوة هي إحقاق الحق ولو كره الكافرون والمجرمون والمفسدون. ولذا فإن القصاص حق لا يُحق إلا بقوة. قال تعالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذُن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}[٩٣١]. القصاص لا يتم إلا بقوة قول وقوة فعل، وكلاهما لا يتما إلا بقوة الخليفة المؤمن بما أنزل الله، فالإيمان هو الذي يجعل الخليفة قوة في حالتين:

الحالة الأولى: حالة القصاص دون رأفة.

---

[٩٢٩] القصص ٢٦.

[٩٣٠] تفسير حقي ، ج ١٠ ، ص ١٣٩

[٩٣١] المائدة ٤٥.

الحالة الثانية: حالة العفو دون ندم.

وبناء على حالتي القوة السابقتين فإن الخليفة لا يكون ظالما، وذلك لحكمه بما أنزل الله تعالى.

قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[٩٣٢]. تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الراصدون، أي إنه لفي المكان الذي تترقب فيه السابلة، وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وإنهم لا يفوتنه شبه حاله تعالى في كونه حفيظاً لأعمال العباد مجازيا عليها على النقير والقطمير ولا محيد للعباد عن أن لا يكون مصيرهم إلا الله بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ليظفر بالجاني ولا مخلص لهم من العبور إلى ذلك الطريق. فمن كان خليفة لله فقد فاز ومن لم يكن كذلك فليس له بدّ من النار إن لم يرحمه الله بفعل جليل، قال الكاشفى: أن ملائكة ربك على الصراط في سبعة مواضع "فيسأل في أولها عن الإيمان فإن سلم من النفاق والرياء وإلا تردى في النار وفي الثاني عن الصلاة فإن أتم ركوعها وسجودها وأقامها في مواقيتها نجا وإلا تردى في النار وفى الثالث عن الزكاة وفى الرابع عن صوم شهر رمضان وفى الخامس عن الحج والعمرة وفى السادس عن الوضوء والغسل من الجنابة وفى السابع عن بر الوالدين وصلة الرحم فإن خرج منها قيل له انطلق إلى الجنة وإلا وقع في النار"[٩٣٣]. كذا على الخليفة أن يكون بالمرصاد لمن يخالف أوامره تعالى فيأمر بالخير ويسعى به في الناس وكذلك عليه أن يردع أهل الشر باللين تارة والقوة تارة أخرى حتى يستطيع أن يبلغ ما أمر به من ربه إلى عباده ليكون قد أدى رسالته على أكمل وجه يسلم من عقابه تعالى فيسلبه الأمانة التي أنيطت به.

حَفِيظٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ جل جلاله:

---

[٩٣٢] الفجر ١٤.

[٩٣٣] تفسير حقي ، ج ١٧ ، ص ٢٣٨

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}[٩٣٤]. قوله سبحانه: (وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا)، لا تضرونه بهلاككم شيئاً أي لا ينتقص ملكه ولا يختل أمره، ولا تضرونه بتوليكم شيئاً من الضرر لاستحالة ذلك عليه سبحانه ولما استوفى تشييده أمره وهدم قولهم ، أخذ يحذرهم فقال مبيناً أن العدول عما جاء به لا يكون إلا بمعالجة الطبع السليم : (فإن تولوا) ولو أدنى تولية – بما يشير إليه حذف التاء، فعليكم اللوم دوني، لأني فعلت ما عليّ (فقد أبلغتكم ما أرسلت) أي أبلغتكم كل شيء أرسلت به ولم أخفي عنكم شيئا كاملاً لم أدع منه شيئاً رجاء لإقبالكم ولا خوفاً من إعراضكم، فأبيتم إلا التكذيب لي والاستكبار عما جئت به، فالذي أرسلني ينتقم منكم فيهلككم (ويستخلف ربي) أي يوجد المحسن إليّ بإقامتي فيما يرضيه وهنا يكون الاستخلاف حق، (قوماً غيركم) يخلفونكم في دياركم وأموالكم، فتكونون أعداءه، ويكون المستخلفون متعرضين لأن يكونوا أولياء مع كونهم ذوي بأس وقوة فيختص الضرر بكم وهم (الخلفاء) من كل سوء محفوظون (ولا تضرونه شيئاً) أي أن المحفوظ لا يضره أحد وذلك بأسباب الحفظ ثم علل وعيده لهم بقوله مؤكداً لأن العاصي فاعل بعصيانه فعل من يظن أن الله غافل عنه: (إن ربي) أي المحسن إليّ المدبر لمصالحي. ولما كان الأهم في هذا السياق بيان استعلائه وقدرته، قدم قوله: (على كل شيء) صغيراً أو كبيراً. جليل أو حقير: (إِنَّ رَبّى على كُلّ شيء حَفِيظٌ) أي رقيب محيط بالأشياء علماً فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم، وحفظ ربي صيانة من كل أدى أو شر أو ألم أو مرض أو فقر والحمد لله. فالحفظ كناية عن المجازاة، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ الحاكم المستولي أي: حافظ مستول على كل شيء ومهيمن عليه، ومن شأنه ذلك كيف يضره شيء[٩٣٥].

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبّى على كُلّ شيء حَفِيظٌ} وفيه ثلاثة أوجه:

الأول : حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها.

---

[٩٣٤] هود ٥٧.

[٩٣٥] تفسير الألوسي ، ج ٨ ، ص ٢٨٢

الثاني: حفيظ من الشَّر والمكر.

الثالث: حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء[٩٣٦]. وقوله تعالى: (حفيظ) الحفظ بقاء الشيء هو كما هو، ولهذا فإن الحفيظ المطلق هو الذي يحفظ أعمالنا ويجازينا عليها ثواب أو عقاب، فهو العالم بكل شيء والقادر على كل شيء وبالغ الحفظ له، فيعلم ما يعمل محفوظه فيجازيه بما يستحق من نعمه ونقمه، فهو تعليل لاستخلاف غيرهم وتنزهه عن لحوق ضرر، لأن الحفظ: الحراسة، ويلزمها العلم والقدرة، فمن القدرة حافظ العين، أي لا يغلبه نوم، والحفيظة – للحمية والغضب، ومنهما معاً المحافظة – للمواظبة على الشيء والتوالّي عن الشيء: الذهاب إلى غير جهته إعراضاً عنه؛ والإبلاغ: إلحاق الشيء نهايته[٩٣٧]. والاستخلاف على المستوى الإنساني: جعل الثاني بدلاً من الأول يقوم مقامه؛ إما الاستخلاف المطلق فلا خليفة له في شيء، والله الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء وفيما نعلم وما لا نعلم سبحانه وحده علاَّم الغيوب له الأمر وهو الحفيظ بالقوة:

أولا: بان ربوبيته عامة لكل واحد ومن يرب يدبر أمر المربوب ويحفظه فلا يحتاج حفظ الغير.

وثانيا: بان كل ذي نفس تحت قهره أسير عن الفعل والتأثير في غيره فلا حاجة إلى الاحتراز منه.

وثالثا: بأنه على طريق العدل في عالم الكثرة الذي هو ظل وحدته فلا يسلط أحدا على أحد إلا عن استحقاق لذلك بسبب ذنب وجرم لا يعاقب أحدا من غير زلة ولو صغيرة نعم قد يكون لتزكية ورفع درجة فالمستفاد في ضمن ذلك كله نفى القدرة عنهم وعن آلهتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله والله تعالى لا يظلم الناس مثقال ذرة وما يرى في صورة الظلم فمن خفأ سره وحكمته والعارف ينظر إلى الأسرار الآلهية ويحمل الوقائع على الحكم في الدنيا وأمثال ذلك من عدل الله تعالى فليكن العباد على العدالة وخصوصا الحكام والسلاطين والمستخلفين في

---

[٩٣٦] تفسير الرازي، ج ٨ ، ص ٤٢٨

[٩٣٧] نظم الدرر للبقاعي ، ج ٤ ، ص ١٦٩

الأرض، فإن العدل ينفع في الدنيا والآخرة ورب سائل يقول: أي شيء أفضل للملوك الشجاعة أم العدل؟ فالجواب يقال: إذا عدل السلطان لم يحتج إلى الشجاعة فإذا الخليفة آمن بالملك الديان وخشي من عذابه كل آن فقد عدل واحترز عن الظلم والطغيان وفاز بالدرجات في أعلى الجنان وإلا فقد عرض نفسه لعذاب النيران ولعذاب الدنيا أيضا على أشد ما كان[٩٣٨].

طلب الخلافة للحفظ:

قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[٩٣٩]. يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحققت براءة يوسف، عليه الصلاة والسلام، ونزاهة عرْضه مما نسب إليه، قال: (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) أي: أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي[٩٤٠] قوله تعالى: {فلما كلمه} وشاهد الملك فيه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة وعلامات الخلافة ومخايل السعادة (قال) مؤكداً تمكيناً لقوله دفعاً لمن يظن أنه بعد السجن وما قاربه لا يرفعه هذه الرفعة: (إنك اليوم) وعبر بما هو لشدة الغرابة تمكيناً للكلام أيضاً فقال: (لدينا مكين) أي شديد المكنة، من المكانة العالية والحفظ السليم، وهي حالة يتمكن بها صاحبها من مراده (أمين) من الأمانة، وهي حال يؤمن معها نقض العهد، (اجعلني) قيماً (على خزائن الأرض) أي أرض مصر التي هي لكثرة خيرها كأنها الأرض؛ ثم علله بما هو مقصود الملوك الذي لا يكادون يقفون عليه فقال: (إني حفيظ) أي قادر على ضبط ما أُلِيّ أمين فيه، وحفظ الأمانة لا خيانة لها ولا فيها، و(عليم) بالغ العلم بوجوه صلاحه واستنمائه فأخبر بما جمع الله له من أداتي الحفظ والفهم، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة، لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء، فيكون ذلك سبباً لردهم عن الدين الباطل إلى الدين الحق. قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا

---

[٩٣٨] تفسير حقي، ج ٥ ، ص ٤٤٨

[٩٣٩] يوسف، ٥٥.

[٩٤٠] تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٣٩٥

لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٩٤١]. ولما سأل ما تقدم ، قال معلماً بأنه أجيب بتسخير الله له: (وكذلك مكنا) أي ومثل ما مكنا ليوسف في قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفي قلوب جميع الناس، ومثل ما سأل من التمكين بما لنا من العظمة (ليوسف في الأرض) أي مطلقاً لا سيما أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها (يتبوأ) أي يتخذ منزلاً يرجع إليه ليتابع ويراقب الخطة التي وضعت للأقاليم، (منها حيث يشاء) بإنجاح جميع مقاصده، لدخولها كلها تحت سلطانه وفيه إشارة إلى نصرة الله لخلفائه في أرضه وإنه يمكن لهم في الأرض من السلطان والقوة والمنعة حتى وإن كان في قوم ظلمة كافرين[٩٤٢].

لقائل أن يقول: لِمَ طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة: (لا تسأل الإمارة)؟.

وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر؟.

وأيضاً لِمَ لم يصبر مدة؟.

ولم أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحالة؟.

وأيضاً لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر، مع أن هذا يورث نوع تهمة؟.

وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله: (إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) مع أنه تعالى يقول: {فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ}[٩٤٣].

وأيضاً فما الفائدة في قوله: (إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ)؟

وأيضاً لم ترك الاستثناء في هذا فإن الأحسن أن يقول: إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى: {وَلاَ تَقْولَنَّ لشيء إِنّى فَاعِلٌ ذلك غَداً إِلاَّ أَن يَشَاء الله}[٩٤٤].

---

[٩٤١] يوسف، ٢١.

[٩٤٢] نظم الدرر للبقاعي، ج ٤، ص ٢٦٧، وتفسير الألوسي، ج ٩ ، ص ٥٣.

[٩٤٣] النجم ٣٢.

[٩٤٤] الكهف ٢٣، ٢٤.

فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول: الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه لأنه خليفتهم، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان لأنه مستخلف فيهم، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان لاستخلافه فيهم.

والثاني: وهو أنه عليه الصلاة السلام علم بالوحي في الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يداه على الخزانة ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عباد الله وهي من أخلاق الخلفاء وكانت خدمته معجزة لفراعنة مصر.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستخلفين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول. وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه الصلاة السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق في المكان الذي بُعث فيه من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه. وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع في ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى. وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر، ثم نقول هب أنه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما مدح نفسه، إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقوله تعالى: {فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ}[٩٤٥]. المراد منه تزكية

---

[٩٤٥] النجم ٣٢.

النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى} أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه على الصدق والحق المبين فهذا الأمر لا يدخل دائرة الممنوع. قوله ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم؟. قلنا: إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده[٩٤٦]. قال العلماء سؤال تولية الأوقاف مكروه كسؤال تولية الإمارة والقضاء؛ وذلك لان الله تعالى يعين المجبور ويسدده ويكل الطالب إلى نفسه والولاية أمور ثقيلة فلا يقدر على رعاية حقوقها وإذا تعين أحد للقضاء أو الإمارة أو نحوهما لزمه القبول لأنها من فروض الكفاية فلا يجوز إهمالها ويوسف عليه السلام كان أصلح من يقوم بما ذكر من التدبير في ذلك الوقت فاقتضت الحال تقلده وتطلبه إصلاحا للعالم[٩٤٧]. وفي هذه الآية إشارة إلى أن في كل شيء وعضو من أعضاء ظاهر الجسد وباطنه خزانة من القهر والحفظ فيها نعمة أخرى كالعين فيها نعمة البصر فان استعملها في رؤية العين ورؤية الآيات والصنائع فيجد الحفظ وينتفع به وإن استعملها في مستلذاتها وشهوات النفس ولم يحفظ نفسه منها فيجد القهر ويضره ذلك فقس الباقي على هذا المثال ولهذا قال يوسف (إني حفيظ عليم) أي حافظ نفسي فيها عما يضرها عليم بنفعها أو ضرها واستعمالها فيما ينفع ولا يضر[٩٤٨].

وعليه: كل ما وصف به يوسف نفسه هو من واقع رؤية، ولأن رؤية يوسف عليه الصلاة والسلام هي ربانية، لذا فإنه لم يقل إلا حقاً لا زيفاً ولا غموضاً ولا لبس فيه، إنه رسول مكلف من الله تعالى ليصلح في الأرض ويُسهم في إصلاح حال الناس وليحكم بالعدل فيما أراه الله من رؤية. ولهذا كانت مطالبه من أجل الآخرين وليس من أجل نفسه، فلم يبق لنفسه إلا

---

[٩٤٦] تفسير الرازي، ج ٩ ، ص ٦٣- ٦٤.

[٩٤٧] تفسير حقي ، ج ٦ ، ص ١٢٥.

[٩٤٨] تفسير حقي ، ج ٦ ، ص ٢٩.

العمل الصالح الذي سيجازيه عليه الحفيظ العليم، الذي حفظه من كل سوء وحسد وإيذاء وهو في غيابات الجب.

قال تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}[٩٤٩]. (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ) أي ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه وهو أن أجزاءهم تفرقت فلا تعلم حتى تعاد بزعمهم الفاسد، وقيل: ما تنقص الأرض منهم من يموت فيدفن في الأرض منهم، وهذا جواب لما كانوا يقولون {أَءذَا ضَلَلْنَا في الأرض}[٩٥٠]. يعني أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاؤهم يعلم أعمالهم من ظلمهم، وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون، وقوله تعالى: (وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ) تعميم لعلمه تعالى أي وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ويدخل فيها أعمالهم، أو محفوظ عن التغير؛ والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه. ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى: (وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ) هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء، وذلك لأن العلم إجمالي وتفصيلي، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتاباً ويفهمه، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفاً بحرف، ولا يخطر بباله في حاله باباً باباً، أو فصلاً فصلاً، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتحديد نظر، والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الأشياء، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين. أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال: {وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ} يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءاً جزءاً وشيئاً شيئاً. والحفيظ بمعنى الحافظ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئاً منها، والثاني هو الأصح وذلك أن الحفيظ بمعنى الحافظ وأرد

---

[٩٤٩] ق، ٤.

[٩٥٠] السجدة ١٠.

في القرآن، قال تعالى: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[٩٥١]. وقال تعالى: {واللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ}[٩٥٢]؛ ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء، وهو مستغن عن أن يحفظ. وقوله تعالى: (حفيظ) أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دق أو جلَّ، فكيف يستبعدون على عظمتنا أن لا نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض، ولم يختلط في علمنا شيء من جزء منه بشيء من جزء آخر فضلاً عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها[٩٥٣].

قال تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}[٩٥٤]. (هذا مَا تُوعَدُونَ) إشارة إلى الجنة وهي الوعد الحق، والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير قصد لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربي، وقيل: هو إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر {أُزْلِفَتْ}[٩٥٥]، والمراد هذا القول هو الذي وقع الوعد به وهو كما ترى[٩٥٦]، وقوله تعالى: (لِكُلّ أَوَّابٍ) أي إرجاع إلى الله، (حَفِيظٌ) بليغ في الحفظ، حفظ ذنوبه حتى رجع عنها كما قال مجاهد: ألا أنبئك بالأواب الحفيظ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر الله تعالى. وعن قتادة قال: "أي حفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه ونعمته. وعن عبيد بن عمير كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس فإذا أراد أن يقوم قال: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقيل: هو الحافظ لتوبته من النقض"[٩٥٧]. ولا ينافيه صيغة (أَوَّابٌ). أي لكل شخص أواب قال تعالى: (هَذَا) وهذا إشارة الى مقعد صدق ولو كانت الإشارة الى الجنة لقال: هذا (لكل أواب) بدل من المتقين بإعادة

---

[٩٥١] الأنعام ١٠٤.

[٩٥٢] الشورى ٦.

[٩٥٣] تفسير الألوسي، ج ١٩ ، ص ٣٠٧، وتفسير الرازي، ج ١٤ ، ص ٢١١، ونظم الدرر للبقاعي، ج٨، ص ١٧١

[٩٥٤] ق، ٣٣، ٣٤.

[٩٥٥] ق ٣١.

[٩٥٦] تفسير الألوسي، ج ١٩ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

[٩٥٧] المص در السابق، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

الجار أي رجّاع الى الله فأولا يرجع من الشرك الى التوحيد، وثانيا من المعصية الى الطاعة، وثالثا من الخلق الى الحق.

وعليه، فالأواب كالتواب وهو الراجع الى الله بترك المعاصي وفعل الخيرات ومنه قيل للتوبة أوبة. ويحتمل أن يقال الأواب هو الرجّاع إلى الله بفكره، والحفيظ الذي يحفظ الله في ذكره أي رجع إليه بالفكر فيرى كل شيء واقعاً به وموجداً منه ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء، والأواب الحفيظ كلاهما من باب المبالغة أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ، وفيه وجه آخر أدق، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ما سواه، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيراً للمتقي، لأن المتقي هو الذي أتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره، ولذا فهو الحفيظ لما حُفظ به من الحفيظ المطلق، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما عداه[٩٥٨]. قال تعالى تتميماً لبيان المتقين: (من خشي) ولم يعد الجارّ لأنه لا اعتراض قبله كالأول، ونبه على كثرة خشيته بقوله: (الرحمن) لأنه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصي كان خوفه مع استحضار غيرها أولى، وقال القشيري: "التعبير بذلك للإشارة إلى أنها خشية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشروع، قال: ولذلك لم يقل (الجبار) أو (القهار) قال: ويقال: الخشية ألطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة (بالغيب) أي مصاحباً له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلى حد المكاشفة، بل استغنى بالبراهين القاطعة التي منها أنه مربوب، فلا بد له من رب، وهو أيضاً بيان لبليغ خشيته. ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلى الموت، قال: (وجاء) أي بعد الموت (بقلب منيب) أي راجع إلى الله تعالى بوازع العلم، ولم يقل: بنفس، لطفاً بالعصاة لأنهم وإن قصرت نفوسهم لم يكن لها صدق القدم فلهم الأسف بقلوبهم، وصدق الندم"[٩٥٩].

---

[٩٥٨] تفسير الرازي، ج، ١٤ ، ص ٢٤٤.

[٩٥٩] تفسير حقي ، ج، ١٤ ، ص ١٤٥، ونظم الدرر للبقاعي ، ج، ٨ ، ص ١٨٦.

خصائص اسم الحفيظ:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}[٩٦٠]. (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) جاءت مطلقة الحفظ، ولا استثناء فيها، ولهذا فخاصية الاسم الحفيظ جل جلاله: الحفظ من كل سوء، والحيطة والعناية من كل شر، والنجاة في كل بر من النار والعار والأسحار. والحفظ من العطش والجوع والفاقة، والمرض والمظالم، والفوز بالمغانم والمنافع التي تبقي الكائن الحي تحت الرعاية والعناية الإلهية.

اللهم أحفظنا من كل شر في كل بر، وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق، وأرضى عنا وارحمنا وأرحم آباءنا وأجدادنا الكرام وأحفظ أبناءنا وزوجاتنا وأخوتنا الأعزاء، وأرضى عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمهاتنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن خاصية اسم الحفيظ تعالى: لا يثقله شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٩٦١]. وقوله: (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي: لا يثقله ولا يُكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه، وخصهما بالذكر دون الكرسي لأن حفظهما هو المشاهد المحسوس، والقول بالاستخدام ليدخل هو والعرش وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله تعالى بعيد، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، والرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما

---

[٩٦٠] سبأ ٢١.

[٩٦١] البقرة ٢٥٥.

يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه. وإن من كان بهذه العظمة في هذا التدبير المحكم والصنع المتقن كان بهذا العلم وهذه القدرة التي لا يثقلها شيء ولذا قال: (ولا يؤوده) أي يثقله. قال الحرالي: من الأود أي بلوغ المجهود ذوداً، والحفظ تماسك بالرعاية عن كل ما يوهن أو يبطل[٩٦٢]. (حفظهما) في قيوميته كما يثقل غيره أو يعجزه حفظ ما ينشئه بل هو عليه يسير لأنه لو أثقله لاختل أمرهما ولو يسيراً ولقدر غيره ولو يوماً ما على غير ما يريده. فقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) كقوله: (وَهُو الْعَلِيُّ الْكَبِير) وكقوله: (الْكَبِيرُ الْمُتَعَال). وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه[٩٦٣]. وكل شيء بالإضافة إليه حقير ولما جليت على منصة هذه الآية الكريمة عرائس المسائل الإلهية وأشرقت على صفحاتها أنوار الصفات العلية حيث جمعت أصول الصفات من الألوهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة، وما اشتمل اسمه تعالى عليه من صفات وأفعال الكمال ظاهرة في بعضها ومستترة في البعض ونطقت بأنه سبحانه موجود منفرد في ألوهيته حي واجب الوجود لذاته موجد لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الأشباح ولا يحل بساحة جلاله ما يعرض النفوس والأرواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد العالم وحده بجلي الأشياء وخفيها وكليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يثقل شيء لديه متعال عن كل ما لا يليق بجنابه عظيم لا يستطيع طير الفكر أن يحوم في بيداء صفات قامت به تفردت بقلائد فضل خلت عنها أجياد أخواتها الجياد وجواهر خواص تتهادى بها بين أترابها[٩٦٤]. ولما لم يكن علوه وعظمته بالقهر والسلطان والإحاطة بالكمال منحصراً فيما تقدم عطف عليه قوله: (وهو) أي

---

[٩٦٢] تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٦٨١ – ص ٦٨٢

[٩٦٣] تفسير الألوسي ، ج ٢ ، ص ٣١٩

[٩٦٤] المرجع السابق ٣١٩.

مع ذلك كله المتفرد بأنه (العلي) أي الذي لا رتبة إلا وهي منحطة عن رتبته؛ ولما في العلو من الظهور وفي العظمة من الخفاء لموضع الإحاطة لأن العظيم هو ما يستغرق كما يستغرق الجسم العظيم جميع الأقطار. لا يستطيع أن يحفظ إلا من كان قديرا عظيما ظاهرا في علوه كبريائه[٩٦٥].

خصائص آية الكرسي (الآية الحافظة):

اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية في أسماء الله تعالى، فلها من الخصائص الحافظة المانعة ولو نظرنا في خلفائنا على وجه الأرض فإنه لا يحفظ الخلافة إلا من كان قادرا عليها وذلك بما استودع الله له من الهيبة والعلو والكبرياء في قلوب البشر من مسلم وكافر وجاهل وعارف ليلا ونهارا؛ فالإنسان أضعف من أن يكون قادرا على حملها وبذلك أختص أناسا لحملها ورباهم تحت رعايته وشملهم بأسمائه؛ وليحملوا رموزها وألفاظها ومعانيها فلولا هذا الحفظ وهذه الرعاية الربانية ما استطاع أن يسير الخليفة في خلافته ساعة من نهار والحمد لله رب العالمين. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي" وعن أنس: « من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة حفظ إلى الصلاة الأخرى ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد"[٩٦٦]. وهذا الحفظ الظاهر في هذه الآية لمن يقرأها ليلا أو نهارا وذلك لما اشتملت عليه من أسمائه الحسنى فهي تلتقي مع اسمه الحفيظ لأنه هو الحافظ والقادر على حفظها جميعا بما له من موجبات الحفظ.

قال تعالى: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}[٩٦٧]. وقوله: (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ

---

[٩٦٥] نظم الدرر للبقاعي ، ج ١ ، ص ٤١٢

[٩٦٦] المرجع السابق ، ٤١٣.

[٩٦٧] ق، ١ ـ ٤.

عَجِيبٌ) أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ}[٩٦٨] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبرًا عنهم في عجبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) أي: يقولون: أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) بمعنى بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى رادًا عليهم: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ) ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة.

عن ابن عباس في قوله: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ) أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم[٩٦٩]. فيقول الحقُّ – سبحانه: (قَدْ عَلِمْنَا) ولعلَّه يخبر الملائكة قائلاً: عَبدي الذي أَخْرَجته من دنياه – ماذا بقي بينه مَنْ يهواه هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ! (وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ): وهو اللَّوحُ المحفوظ؛ أَثْبتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذكُّره[٩٧٠]. ففي الكتاب كل شيءٍ بيِّن ثابت لا يهلك، باقٍ دليل إثبات على الحق وإحقاقه، فكل ما حدث وكل ما سيحدث في الدارين هو مُنزَّل في القرآن الكريم الرسالة الخاتمة. قال تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم}[٩٧١]. وقال تعالى: {وعنده

---

[٩٦٨] يونس، ٢.

[٩٦٩] تفسير ابن كثير ، ج ٧ ، ص ٣٩٥

[٩٧٠] تفسير القشيري ، ج ٧ ، ص ٢٩٦

[٩٧١] الأنعام، ٣٨ ، ٣٩.

مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}[٩٧٢]. وقال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون}[٩٧٣]. وقال تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق}[٩٧٤] وقال جل جلاله: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة}[٩٧٥]. تبيان لكل شيء جاءت مطلقة جامعة لا مانعة، (جامعة لِما يُعرف ومفتوحة على ما لا يعرف بعد) ولذلك فالحفيظ هو علاَّم الغيوب. حافظ لكل ما نعلمه، وحافظ لكل ما لم نعلمه، ولهذا يزداد علمنا كلما تعلمنا شيء من علمه الواسع، سبحانه لكل شيء حفيظ وبكل شيء محيط.

قال تعالى: (كما بدأكم تعودون) وقد علمنا إن النشأة الأول أوجدها الله تعالى على غير مثال سبق وركبها في إي صورة شاء وهكذا النشأة الآخرة يوجدها الحق على غير مثال سبق مع كونها محسوسة بلا شك فينشئ الله النشأة الآخرة على عجم الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا وهو اصلها فعليه تتركب النشأة الآخرة فقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) راجع الى عدم مثال سابق كما في النشأة الأولى مع كونها محسوسة بلا شك إذ ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف هذه النشأة الدنيا وقوله وهو أهون عليه لا يقدح فيما قلنا لان البدء إن كان عن اختراع فكر وتدبير كانت إعادته الى أن يخلق خلقا آخر مما يقارب ذلك ويزيد عليه أقرب الى الاختراع في حق من يستفيد الأمور بفكرة والله متعال عن ذلك علوا كبيرا فهو الذي يفيد العالم ولا يستفيد ولا يتجدد له علم بشيء بل هو عالم بتفاصيل مالا يتناهى بعلم كلي فعلم التفصيل في عين الإجمال وهكذا ينبغي لجلاله أن يكون. (وعندنا كتاب حفيظ) بالغ في الحفظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظا من

---

[٩٧٢] الأنعام ٥٩.

[٩٧٣] الأنعام ٩٢.

[٩٧٤] الأنعام ١١٤.

[٩٧٥] النحل، ٨٩.

التغير والمراد تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها يعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده[٩٧٦].

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}[٩٧٧]. (وما كان له) إي لإبليس (عليهم من سلطان) السلطان القهر والغلبة ومنه السلطان لمن له ذلك أي تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وإلا فهو ما سلَّ سيفا ولا ضرب بعصا (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) والعلم إدراك الشيء بحقيقته والعالم في وصف الله تعالى هو الذي لا يخفى عليه شيء والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما. والمعنى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو في شك منها تعلق حاليا يترتب عليه الجزاء فعلم الله قديم وتعلقه حادث إذ هو موقوف على وجود المكلف في عالم الشهادة فلا يظن ظان بالله ظن السوء إن الله جل جلاله علام الغيوب وعالم الظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس}[٩٧٨]. فالله تعالى كان عالما بحال الفريقين قبل خلقهم وهو الذي خلقهم على ما هم به وإنما سلط الله الشيطان على بني آدم لاستخراج جواهرهم من معادن الإنسانية كما تسلط النار على المعادن لتخليص جوهرها. وقال بعضهم العلم هنا مجاز عن التمييز والمعنى إلا لتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها فعلل التسلط بالعلم والمراد ما يلزمه (وربك على كل شيء حفيظ) محافظة عليه دون أدنى شك، ولهذا لن يمسه شيء إلا بإذنه. وقال بعضهم هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو به[٩٧٩]. وعلم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالماً لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر، فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك،

---

[٩٧٦] تفسير حقي ج ١٤ ، ص ١٠٤.

[٩٧٧] سبأ ٢١.

[٩٧٨] الأعراف ١٧٩.

[٩٧٩] تفسير حقي، ج، ١١، ص ١٩٦.

مثاله: أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله: (إِلاَّ لِنَعْلَمَ) أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو. وقوله: (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو آية، وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق، وقوله: {(وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفُيظٌ) يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز[٩٨٠]. والحفيظ من الخلفاء من يحفظ ما أمر بحفظه من الجوارح والشرائع والأمانات والودائع ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الحكماء وذلك بالأسباب الإلهية التي منحه الله إياها من الحفظ الجد والمواظبة وترك المعاصي وتقليل النوم وصلاة الليل وقراءة القرآن والله المستعان.

قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[٩٨١]. ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ) قال ابن عباس: رزق الله خَيْر لكم. وقال الحسن: رزق الله خير من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله [خير لكم]. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "الهلاك" في العذاب، و"البقية" في الرحمة. وقال أبو جعفر بن جرير: (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ) أي: ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان وهذا خير لكم من أخذ أموال الناس[٩٨٢]. (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

---

[٩٨٠] تفسير الرازي ، ج ١٢ ، ص ٤١٣

[٩٨١] هود، ٨٥، ٨٦.

[٩٨٢] تفسير ابن كثير، ج ٤ ، ص ٣٤٣.

برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل. لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله عز وجل وللخليفة أن يأخذ بأيدي الناس بالنصيحة وتوجيه المستخلفين إلى الطريق المستقيم بإيفاء الكيل والميزان وإيصال الحقوق إلى أصحابها ومنعهم من العبث والإفساد والسعي بالشر بين العباد بالكلمة الصادقة تارة والسيف تارة أخرى حتى يكون قد أرضى ربه بما كلفه به.

قال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[٩٨٣]. وفي الصحيحين: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"[٩٨٤]، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ }[٩٨٥]. يقول تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}[٩٨٦]. وقال {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٩٨٧]. وجوده معكم رقيب حسيب حفيظ وعليم خبير سبحانه له الصفات الحسنى.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٩٨٨]. يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى (يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ويحكم بينهم بالعدل،

---

[٩٨٣] الرعد ٣٣.

[٩٨٤] صحيح البخاري، ج ١٤ ، ٢٦٨.

[٩٨٥] هود ١٠٢.

[٩٨٦] يونس، ٦١.

[٩٨٧] الحديد ٤.

[٩٨٨] الحج ١٧.

فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم[٩٨٩].

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[٩٩٠]. من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما فالآية رادة على المعتزلة رداً ظاهراً (وَهُوَ على كُلّ شَيء وَكِيلٌ) يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق وإن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، ولك أن تقول: المعنى أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى: {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ}[٩٩١]. وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عز وجل في وجودها[٩٩٢].

قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ). ولما كان الحبيب أسر شيء بما يريده حبيبه، قال مسلياً له صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به وردهم لقوله، عاطفاً على ما تقديره: فلو شاء الله ما خالفوك ولا تكلموا فيك ببنت شفة: (ولو شاء الله ما أشركوا) أي ما وقع منهم إشراك أصلاً، فقد أراد لك من الوقوع فيك ما أراده لنفسه، فليكن لك في ذلك مسلاة. ولما كان التقدير: فإنه سبحانه حفيظ عليهم، عطف عليه قوله: (وما جعلناك) أي بعظمتنا، وأشار إلى أن العلو ليس بغير الله سبحانه فقال: (عليهم حفيظاً) تحفظ أعمالهم لئلا يكون منها ما لا يرضينا فتردهم عنه قسراً (وما أنت) وقدم ما هو أعم من نفي التحقق بالعلو المحيط القاهر الذي هو خاص بالإله فقال: (عليهم بوكيل) فتأخذ الحق منهم قهراً، وتعاملهم بما يستحقونه خيراً أو شراً، إنما أنت مبلغ عنا، ثم الأمر في هدايتهم وإضلالهم إلينا هذا هو شأن الخلفاء مع مستخلفيهم بين الرفض والقبول مثلما حدث

---

[٩٨٩] تفسير ابن كثير، ج، ٥ ، ص

[٩٩٠] الزمر ٦٢.

[٩٩١] الزمر ٤١.

[٩٩٢] تفسير الألوسي ، ج ١٨ ، ص ٩

مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم مكلفون بتوصيل ما أمروا به لمستخلفيهم دون كلل أو ملل؛ ليفوزا بالدرجات العلى في الدارين[٩٩٣].

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}[٩٩٤]. ولما كان ذلك ربما أوهم أن لإبليس أمراً بنفسه، نفاه بقوله: (وما) أي والحال أنه ما (كان) أصلاً (له عليهم) أي الذين اتبعوه ولا غيرهم، وأعرق فيما هو الحق من النفي بقوله: (من سلطان) أي تسلط قاهر لشيء من الأشياء بوجه لأنه مثلهم في كونه عبداً عاجزاً مقهوراً، ذليلاً خائفاً مدحوراً، قال القشيري: هو مسلط، ولو أمكنه أن يضل غيره أمكنه أن يمسك على الهداية نفسه (إلا) أي لكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملكناه قيادهم بقهرنا؛ وعبر عن التمييز الذي هو سبب العلم بالعلم فقال: (لنعلم) أي بما لنا من العظمة (من يؤمن بالآخرة) أي يوجد الإيمان لله ليتعلق علمنا بذلك في عالم الشهادة في حال تميزه تعلقاً تقوم به الحجة في مجاري عادات البشر كما كان متعلقاً به في عالم الغيب (ممن هو منها في شك) من الآخرة، فهو لا يتجدد له بها إيمان أصلاً، لأن الشك ظرف له محيط به، وإنما استعار (إلا) موضع (لكن) إشارة إلى أنه مكنه تمكيناً تاماً صار به كمن له سلطان حقيقي. ولما كان هذا ربما أوقع في وهم نقصاً في العلم أو في القدرة، قال مشيراً إلى أنه سبحانه يسره صلى الله عليه وسلم بتكثير هذا الفريق المخلص وجعل أكثره من أمته فقال: (وربك على كل شيء حفيظ) أي المحسن إليك بإخزاء الشيطان بنبوتك وإخسائه عن أمتك ومن المكلفين وغيرهم حافظ أتم حفظ محيط به مدبر له على وجه العلو بعلمه الكامل وقدرته الشاملة، فلا يفعل الشيطان ولا غيره شيئاً إلا بعلمه وإذنه وللخليفة أن يحذر أمته من كيد الشيطان ليفوز بهم إلى دار النجاة وذلك بأمرهم بالسلوك الحسن وتحذيرهم من مهاوي الردى

---

[٩٩٣] نظم الدرر للبقاعي ، ج ٣ ، ص ١٠٩

[٩٩٤] سبأ ٢١.

بعدم أتباع خطوات الشيطان وإن عملوا بعدها فهو في حل مما يصنعون؛ لأنه عمل ما هو مناط به وواجب عليه[٩٩٥].

قوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٩٩٦]. ولما كان ضبط ذلك أمراً عظيماً، استأنف قوله بياناً لهوانه عليه: (أحصاه الله) أحاط به عدداً كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً بما له من صفات الجلال والجمال. ولم يذكر إحصاءه له، فكان ربما ظن أنه مما يمكن في العادة إحصاؤه، فنفى ذلك بقوله: (ونسوه) فكلهم مجتمعين لخروجه عن الحد في الكثرة فكيف بكل واحد على انفراده ونسوا ما فيه المعاصي تهاوناً بها. فالله بكل شيء من ذلك وغيره عليم، عطف عليه قوله: (والله على كل شيء) أي بما له من القدرة الشاملة المطلقة والعلم المحيط على الإطلاق (شهيد) حفيظ حاضر لا يغيب وهو الحفيظ المجيد، ورقيب بيده الأمر والفعل فهو الفعَّال لما يُريد[٩٩٧].

قال تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ}[٩٩٨]. (فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) تنويع للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له الى الرسول عليه السلام بمعنى إن لم يستجيبوا واعرضوا عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم وحافظا لأعمالهم، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (إن عليك إلا البلاغ) ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة وقد فعلت فلا يهمنك إعراضهم فإن أعرضوا عن الله بالإقبال على الدار الدنيا ولم يجيبوا فما أرسلناك عليهم حفيظا تحفظهم لان الحفظ من شأني لا من شأنك فاني حفيظ فليس عليك إلا تبليغ الرسالة ثم نحن نعلم بما نعاملهم بالتوفيق أو بالخذلان.

---

[٩٩٥] نظم الدرر للبقاعي، ج ٦ ، ص ٤٩٢.
[٩٩٦] المجادلة ٦.
[٩٩٧] نظم الدرر للبقاعي، ج ٨ ، ص ٤٠٥.
[٩٩٨] الشورى ٤٨.

وخليفة الله في الأرض هو الحفيظ من العباد وهو من يحفظ جوارحه وقلبه ويحفظ دينه من سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان فانه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية الى النار. ولذا فليسارع العبد الى دفع الموبقات وجلب المنجيات بإصلاح النفس والتخلق بالأخلاق الإلهية حتى تكون نفسه مطمئنة، ليكون من جنبه الطمأنينة والآمان، وتكون أعماله خيِّرة تُسهم في إصلاح الأرض وإعمارها، ومن تكون نفسه غير مطمئنة يملأه الخوف بكفره أو شركه أو فسقه أو انحرافه عن الحق. في الحديث قال: "اتدرون من المفلس، قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال عليه السلام: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا أو سفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم يطرح في النار"[٩٩٩]. وعليه فلا ينبغي للعاقل أن تكون نفسه ضالة بل عليه بالنفس المهتدية إلى سواء السبيل ليكون حالها مع المقبلين القابلين للبلاغ والإرشاد فالله تعالى يحفظهم مما يخافونه يوم المعاد. (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) بمعنى نعمة من الصحة والغنى والأمن (فرح بها) بطر لأجلها.

اعلم أن نعمة الله وإن كانت في الدنيا عظيمة إلا أنها بالنسبة الى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سمى الأنعام بها إذاقة. فغير المؤمن إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به ووقع في العجب والكبر وظن انه فاز بكل المنى ودخل في قصر السعادات ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وإلا لاختار الباقي على الفاني كما هو حال الخلفاء في الأرض المؤمنين بما أمر الله في الحياة الفانية بأنها متاع الغرور، فالفاني عياره كالخزف مع انه قليل والباقي عياره كالذهب النقاء والصفاء وهو كثير[١٠٠٠].

وعليه فحظ الخليفة من أسمه الحفيظ: أن يتصف بهذه الصفة الحسنة في حفظ الحق وإتباعه، وأن يؤمن بالحفيظ المطلق الذي لا حافظ غيره من جهنم، ولا مدخل غيره للجنة، وأن

---

[٩٩٩] صحيح مسلم، ج، ١، ص ٤٤٩.

[١٠٠٠] تفسير حقي، ج، ١٣، ص ١٢٥.

يحفظ نفسه من الضلال والشرك والكفر والفسق، وأن يكون مصلحا في الأرض وغير سافك دماء فيها بغير حق، وأن يتقي الله ربه في نفسه وزوجه، ووالديه وأبنائه، وجيرانه، وفي ذوي الحق عليه.

لذا عليه أن يحفظ نفسه من أكل أموال الناس بالباطل، وأن يحفظها من شهادة الزور، وارتكاب الفتن ما ظهر منها وما بطن، وإذا حكم بين الناس أن يحكم بينهم بالعدل حتى يكون له مسلك صدق، وأن يجعل الدنيا ترابا بين يديه ولا يجعلها فتنة في قلبه، أو غاية نهائية في حياته، وليعلم أنه وما يملك منتهون ولن يبقى إلا وجهه فليعبده حق عبادته ويتقيه في كل كبيرة وصغيرة وليعمل على آخرته حتى يفوز بالجنة ولا يكون في النار.

الحفيظ بالإضافة : هو الخليفة الذي يعلم الحق في والديه وزوجه ويتقيه، فَيُقدِّم لهم الرعاية والطاعة في غير معصيته جل جلاله، ويبادلهم المودة والمحبة الخالصة التي بها يُصان العِرض ويسلم الشرف من النقيصة المعيبة. ويكون حفيظا على أبنائه بالتربية الصالحة على الطاعة والشهادة بالله ربّاً وبمحمد رسولا خاتما، وأن يعمل كل ما في وسعه من أجل أن ينقل أبنائه من الجهل إلى الهداية والعلم الذي يُمكنهم من المعرفة التامة حتى لا يجهلوا أمور دينهم ودنياهم. وهكذا يكون الخليفة حفيظا مع والديه وبذي القربى وجيرانه وأصحابه واليتامى والمساكين وأبناء السبيل مصداقا لقوله تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين يُنفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا}[١٠٠١].

التقوى خير حافظ، فليتقي الإنسان ربه، ومن يتقي ربه جل جلاله يُحفظ من كل سوء ومن كل زلة مذلة وينجو من النار ويفوز بالجنة.

[١٠٠١] النساء، ٣٦ ـ ٣٨.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن العباس: "أحفظ الله يحفظك أحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بما كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك لن يضروك إلا بما كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[١٠٠٢].

اللهم إنك الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء فاحفظنا من كل شيء يضر في الأرض أو في السماوات العلا، وأحفظ ألسنتنا من الزلات وأفعالنا من المفسدات وأعمالنا من الخطايا أنك سميع قريب مجيب الدعوات، اللهم أحفظ أولادنا من الانحراف عن اتباع الحق ولا تجعلنا ولا تجعلهم من المبذرين فإن المبذرين إخوان الشياطين، اللهم إنك كما مكنت ليوسف في الأرض وجعلته حفيظا على خزائنها مكنا في الأرض لنتبوَّأ منها أماكن خير وفلاح وإصلاح وأحِطنا بحفظك ورعايتك كما أحطته بها، وأحِطنا بحفظك في الدارين إننا متقون، اللهم إن اسمك الحفيظ اسم دائم فاحفظنا يا حفيظ على الدوام بكلماتك التامة واجعلنا من الطائعين الحامدين الشاكرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم أحفظنا من كل شر في كل بر، وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق، وأرضى عنا وارحمنا وأرحم أبائنا وأجدادنا الكرام وأحفظ أبنائنا وزوجاتنا وأخوتنا الأعزاء، وأرضى عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمهاتنا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

اللهم يا الحفيظ أحفظنا من الوقوع في الزلات والخطايا، وأحفظ عقولنا من فقدان الذاكرة، وأحفظ أجسادنا من المرض والعاهة والعذاب، وأحفظنا من وسوسة وأعمال شياطين الجن والإنس ومن كيد الكائدين ومكر الماكرين والغادرين. اللهم احفظ أبصارنا وبصائرنا من تتبع ما نهيت عنه وحرمته، واحفظ ألسنتنا من الزلات واجعلها لا تقول إلا صوابا.

اللهم أجعلنا من الناجين من النار والفائزين بالجنة، واحفظنا بعينك التي لا تنام وعزك الذي لا يرام لنصل محفوظين إلى دار السلام بالتمام.

[١٠٠٢] الإبانة الكبرى، ج ٤، ص ٣٩.

الْمُقِيْتُ

الله المقيت فهو رازق الخلائق أقواتهم والحافظ لهم حياتهم وهو القادر على رزقهم جميعا، والمقتدر على حماية ضعفيهم من قويهم وذلك بتوازن وانسجام وعدل واعتدال، وأول ما يلقانا من معان للاسم المقيت أنه مصدرا لكل قوت، وهو ما يمسك حياة المخلوقات ماديا ومعنويا فالقوت في الأصل اللغوي هو المشتق من المقيت، أي لو لم يكن الله المقيت ما كان للقوت من خالق، فأسم المقيت هو المصدر الذي جاء القوت منه اشتقاقا، ولهذا فالمقيت المطلق هو مصدر لكل قوت، وفي هذا الأمر لا يتم الاتفاق مع اللغويين الذين يقولون إن المقيت هو المشتق من القوت، ولذا نحن نقول: استغفر الله، فالله المقيت مصدر لكل شيء، ولأنه كذلك فالأشياء مخلوقة، ولأنها كذلك فهي تشتق من خالقها، أي أن القوت يشتق من خالقه ولا يمكن للخالق أن يشتق من مخلوقه.

القوت لغة:

(قوت) القُوتُ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ من الرِّزْق، والقُوتُ والقِيتُ والقِيتَةُ والقائِتُ المُسْكة من الرزق وفي الصحاح هو ما يَقُوم به بَدَنُ الإنسان من الطعام.

والقَوْتُ مصدرُ قاتَ يَقُوتُ قَوْتاً وقِياتَةً، وقال ابن سيده: قاتَه ذلك قَوْتاً وقُوتاً، وتَقَوَّتَ بالشيء واقْتاتَ به واقْتاتَهُ جَعَلَه قُوتَهُ، والاقْتِياتُ والقَوتُ واحدٌ وأَنا أَقُوتُه أَي أَعُولُه برزقٍ قليلٍ، وقُتُّه

فاقتاتَ كما تقول: رَزَقْتُه فارْتَزَقَ، وهو في قائِتٍ من العَيْش أَي في كِفايةٍ واسْتَقاتَه سأَله القُوتَ[١٠٠٣]، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا"[١٠٠٤]. أَي بقَدْرِ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ من المَطْعَم وفي حديث الدُّعاء (وجَعَلَ لكل منهم قِيتَةً مَقْسومةً من رِزْقِه) هي فِعْلَة من القَوْتِ كمِيتَة من المَوتِ.

ما يخصُّ اسم الله المقيت:

لا شك أن الخلق لا يعيشون بدون قوت يحفظ حياتهم المادية والمعنوية أي الجسدية والروحانية وذلك الحفظ لا يأتي إلا من الله المقيت الحافظ القادر المقتدر الشاهد، لذا فالاسم المقيت ذو صلة بأسماء إلهية أخرى ويحمل معانيها في الوقت نفسه ولكن في جانب حفظ الحياة بمقوماتها الأساسية تكون الهيمنة للاسم المقيت على سائر الأسماء ذات الصلة به، وهذا ما توضحه المصادر اللغوية والدينية، من قرآن وحديث وتفاسير وشروح حولهما وآراء قد نضيفها للتوضيح والإبانة إن لزم الأمر.

وفي أَسماء الله تعالى المُقِيتُ هو الحَفِيظ وقيل المُقْتَدِرٌ وقيل: (هو الذي يُعْطِي أَقْواتَ الخلائق) وهو مِن أَقاتَه يُقِيتُه إِذا أَعطاه قُوتَه وأَقاته أَيضاً إِذا حَفِظَه[١٠٠٥]. وفي التنزيل العزيز قال الله تعالى: {وكان اللهُ على كلِّ شيء مُقِيتاً}[١٠٠٦]. قال الفراء: (المُقِيتُ المُقْتَدِرُ والمُقَدِّرُ كالذي يُعْطِي كلَّ شيءٍ قوتَه).

وقال الزجاجُ: "المُقِيتُ القَديرُ وقيل: الحافظ و الحفيظ قال: وهو بالحفيظ أَشبه لأَنه مُشْتَقٌّ من القُوتِ يقال: قُتُّ الرجلَ أَقُوتُه قَوْتاً إِذا حَفِظْتَ نَفْسَه بما يَقُوته"[١٠٠٧].

والقُوتُ اسمُ الشيء الذي يَحْفَظُ نَفْسَه ولا فَضْلَ فيه على قَدْرِ الحِفْظِ، فمعنى المُقِيتِ (الحفيظُ الذي يُعْطِي الشيءَ قَدْرَ الحاجة من الحِفْظِ).

[١٠٠٣] لسان العرب – ج ٢ ، ص ٧٤

[١٠٠٤] صحيح البخاري – ج ٢٠ ، ص ٩٥

[١٠٠٥] لسان العرب –ج٢ ، ص ٤٧

[١٠٠٦] النساء ٨٥.

[١٠٠٧] سنن أبي داود – ج ٥ ، ص ٢

وقيل: المُقِيتُ المُقْتَدِرُ كالذي يُعْطِي كلَّ رَجُلٍ قُوتَه. وقيل: المُقِيتُ الحافِظُ للشيء. وقال أَبو إِسحق الزجاج: إِن المُقِيتَ بمعنى الحافظ والحفيظ لأَنه مشتق من القَوتِ أَي مأْخوذ من قولهم: قُتُّ الرجلَ أَقُوتُه إِذا حَفِظْتَ نفسه بما يَقُوتُه. والقُوتُ اسمُ الشيء الذي يَحْفَظُ نَفْسَه. وعلى هذا فُسِّرَ قولُه عز وجل: (وكان اللهُ على كل شيء مُقِيتاً) أَي حفيظاً.

وقوله في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ"[١٠٠٨] أَراد من يَلْزَمُهُ نَفَقَتُه من أَهله وعياله وعبيده وقوله في الحديث عن أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قوتوا طعامكم؛ يبارك الله لكم فيه"[١٠٠٩]. سئِلَ الأَوزاعِيُّ عنه فقال هو صِغَرُ الأَرْغِفَةِ وقال غيره هو مثل قوله كِيلُوا طعامَكم[١٠١٠].

فالمقيت جل جلاله هو الذي بيده المُلك الذي يقتات به، ولذا فهو مصدر الإطعام والأرزاق التي بها تعيش الكائنات بسلام، فالطائر المُفرَّخ من البيضة ساعة فقسه لها بالحركة الحية لا يقتات إلا بقدرة المقيت تعالى، وإلا كيف يعيش وهو لا يملك مقدرة على العيش بدون أمٍ قادرة على الطيران لتلتقط له قطرة ماء أو حبة شعير أو قمح وتقوته بها بمنقارها وفمها، آلا يكون المقيت مصدرا لكل رزق، ومصدرا لكل قوة ومصدرا لكل حركة تمد بالحياة. وهكذا حال المولود فهو لو لم تتلقفه أيدي لتحفظه وترعاه بالإقاتة ما سلم احد منا وأصبح من المستخلفين فيها، أو الوارثين.

الله سبحانه وتعالى لمَّا أراد أن يخلق الإنسان ويستخلفه على الأرض خلق الأرض وقدَّر فيها أقوات الإنسان الخليفة وبقية المخلوقات من حيوان وشجر وحجر وبحار وغير ذلك التي سيستخدمها الخليفة لتحقيق خلافته على الأرض لذا وجب على الخليفة أن يستخدم الأقوات المعدَّة له في الأرض بحكمة وبمقدار وتناسب مع حاجاته دون إسراف أو تقتير وهذا ما

[١٠٠٨] سنن أبي داود – ج ٥ ، ص ٢

[١٠٠٩] مسند الشاميين للطبراني ، ج ٥ ، ص ٣١.

[١٠١٠] لسان العرب، ج٢، ص ٤٧.

يسمى بالوسطية، ومن يفعل ذلك يكن من عباد الله الذي وصفهم الله بصفات منها هذه الصفة العظمى التي تشير إلى الوسطية وفيها تتحقق خلافة الاسم المقيت.

المقيت: هو المنقذ من الهلاك، وهو الذي يعلم بأسباب الإقاته، ويملك القوت الذي به يسد جوعا أو يُشبع حاجة. قال الله تعالى في كتابه الكريم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[١٠١١].

وجاء في التفسير: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا. أي أنهم الخلفاء الذين يعلمون أنهم مستخلفون فيها ولهذا يحافظون عليها كما يحافظون على أنفسهم، وعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، فِي قَوْلِهِ: (يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ)، قَالَ: يَمْشُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا)، قَالَ: عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ. وعَنِ الضَّحَّاكِ: قال: أَعِفَّاءَ أَتْقِيَاءَ حُلَمَاءَ[١٠١٢].

وتأتي الصفة الاعتدالية للمستخلفين في الأرض اعتدالا مصداقا لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا، قَالَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ. عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، فِي قَوْلِهِ: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)، قَالَ: أُولَئِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم لَمْ يُسْرِفُوا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قوله: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا، قَالَ: لا يُسْرِفُونَ فَيُنْفِقُونَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ"[١٠١٣].

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ:"فِي الْمَالِ ثَلاثُ خِصَالٍ إِنْ نَجَا مِنْ خَصْلَةٍ كَانَ قَمِنٌ أَنْ لا يَنْجُوَ مِنَ الثِّنْتَيْنِ، وَإِنْ نَجَا مِنْ ثِنْتَيْنِ كَانَ قَمِنٌ أَنْ لا يَنْجُوَ مِنَ الثَّالِثَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ مِنَ

[١٠١١] الفرقان، ٦٣، ٦٧.

[١٠١٢] تفسير ابن أبي حاتم ، ج ١٠ ، ص ٣٤٧.

[١٠١٣] تفسير ابن أبي حاتم ، ج ١٠ ، ص ٣٥٥.

طَيِّبٍ، فَأَيُّكُمُ الَّذِي يَسْلَمُ كَسْبُهُ وَلَمْ يُدْخِلْهُ إِلا طَيِّبًا، فَإِنْ سَلِمَ فَأَيُّكُمُ الَّذِي أَدَّى الْحُقُوقَ كُلَّهَا، فَإِنْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ فِي نَفَقَتِهِ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ وَلا مُقَتِّرٍ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قوله: وَلَمْ يَقْتُرُوا قَالَ: "هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لا يَقْتُرُوا فَيَمْنَعُوا حُقُوقَ اللَّهِ، وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: وَلَمْ يَقْتُرُوا يَقُولُ: لا يَمْنَعُهُ مِنْ حَقٍّ وَلا يُنْفِقُهُ فِي بَاطِلٍ.

وَلَمْ يَقْتُرُوا فَيُمْسِكُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا أُمْسِكَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَإِنْ كَثُرَتْ فَهُوَ إِقْتَارٌ. وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[١٠١٤].

عن إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَشِيطٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ مَوْلَى غُفْرَةَ قُلْتُ لَهُ مَا الْقَوَامُ؟ قَالَ: "الْقَوَامُ أَلا تُنْفِقَ فِي غَيْرِ حَقٍّ وَلا تُمْسِكَ مِنْ حَقٍّ هُوَ عَلَيْكَ". وعَنِ الأَعْمَشِ، فِي قَوْلِهِ: (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)" قَالَ: عَدْلا، وعَنْ قَتَادَةَ، قوله: (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَقَاتَكُمْ قِيتَةً فَانْتَهُوا إِلَى قِيتَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[١٠١٥].

ولهذا فالخليفة هو الذي يتقي الله ربه في كل شيء، ويتبع أوسط الأمور حيث لا إسراف ولا شح، ولا يظلم أحدا ولا يتخذ الحروب غاية بل من أجل السلام والاستقرار والأمن وإحقاق الحق.

وعلى المستوى الاجتماعي أن يكون الخليفة متقي الله في أهله وأقربائه وجيرانه ومع من يعمل ويشارك ويسافر، وإذا حكم بين الناس أن يحكم بالعدل ولا يبالغ في القول ولا الفعل وأن يكون بين ذلك قواما.

وعلى المستوى الشخصي الفردي لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، فيعتدل حتى تطمئن نفسه، وهكذا لا يظلم أحداً ولا يسرف في تناول طعام دون آخر فيصاب الجسم بأمراض لا قبل للإنسان بها ولا علاج منها إلا بالتوازن وبالادخار الذي يوفر حياة مستقرة للفرد وذلك له مردود طيب على الأمة.

[١٠١٤] السابق ص ٣٥٦.

[١٠١٥] تفسير ابن أبي حاتم – ج ١٠ ، ص ٣٥٩

وبفهم معاني الاسم المقيت والأخذ بأفعالها تحفظ الأشياء باعتدال واتزان، والذي يتحقق بأنوار هذا الاسم يجد أنه اسم عظيم جليل القدر على الرغم من وروده مرة واحدة في القرآن الكريم لأنه يعني الدقة المتناهية في تقدير الأرزاق وهذا يتطلب علما واسعا لا يحصيه إلا الله المقيت، ولا يقدر على ذلك إلا المقيت سبحانه وتعالى، والخليفة المتحقق بهذا الاسم يجب أن يكون من العلماء الذين يقدرون الأمور تقديرا صحيحا لأن العلم يرفع أقواما ويخفض آخرين، وقد يتساءل إنسان في غرابة ودهشة فيقول: وما علاقة العلم بالاسم بالمقيت؟ نقول له: كما أن الأجساد يقيتها الطعام فالعلم يقيت العقول، والذكر يقيت القلوب والأرواح، لذا ففضل العلم في قوت الأبدان والمحافظة عليها فضل عظيم وكذلك في حفظ العقول والأرواح، والخليفة هو العالم الذي يعرف المنهج الصحيح الذي به يحافظ على المرتبة التي تحصل عليها آدم عليه السلام بخلافته في الأرض. نقصد العلم الذي وهبه الله سبحانه وتعالى له، ومن أسس هذا المنهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعلم وفهم لأنهما يحفظان اتزان العباد والبلاد وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، هو خليفة الله في الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله"[١٠١٦].

وهذا لب لباب البحث الذي نقوم به في أسماء الله الحسنى ومعنى الخلافة لله فليس من الضروري أن تنعقد الخلافة لشخص ما لأنه فتح البلاد قسرا وفرض سلطته جبرا واستولى على لقب الخليفة قهرا. الخليفة هو من يأمر بمعروف وينهى عن منكرٍ، وهو الحاكم بين الناس بالعدل، والحاكم بين الناس ليس هو حاكم الناس، فالأول عادل بما أمر الله تعالى، والثاني يحكم كما يتراءى له، ولذا من يحكم بما أمر الله يطاع، ومن يحكم بأمره الخاص يُعصى ولا يطاع في غير مرضات الله تعالى.

فالحاكم بين الناس، هو الذي يحكم بما يُرضيهم ويرضي الله ويرضي ضميره فلا يندم، أما أن يحكم باسم الدين، فالدين لا وكيل عليه ولا مسؤول عليه أحد غير الخليفة الذي يصلح بعمله الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير الحق، ومع أنه خليفة إلا أنه لا يخلف الله، بل

[١٠١٦] كنز العمال، ج ٣ ، ص ٧٥

خليفة في الأرض من عند الله، ولهذا قال تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة). والخليفة الذي جعله الله في الأرض لا أن يحل محله في شيء، بل ليطيع أمره في كل شيء.

والحكم بين الناس أساسه عدل على كفتي ميزان الحق والواجب، فالكل يتمتع بممارسة حقوقه وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته، والذي ينظر في كتاب الله سبحانه وتعالى نظرة جوهرية ويعتبر أن القرآن شريعة المجتمع ولا شريعة في غيره ويقتدي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مع الإقرار بأن الأمة واحدة ولا يعترف بشيع ولا بأحزاب انطلاقا من قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}[١٠١٧].

لذا فمن يجعل الدين مصدرا للحكم يعدل، ومن لا يجعل ذلك ينحاز وقد ينحاز بغير حق، ولهذا لا يعدل إذا حكم بين الناس. والحرية مهددة ما لم يكن للمجتمع شريعة مقدسة وذات أحكام ثابتة غير قابلة للتغيير أو التبديل بواسطة أي أداة من أدوات الحكم، بل أداة الحكم هي الملزمة بإتباع شريعة المجتمع. ومن يخالف تلك الرؤية ويلهث وراء أفكار زائفة لا أصل لها في مصدر التشريع كمن يفرح فرحا غامرا لا أصل فيه للفرح وسيعرف زيف ما أتى به واتخذه شريعة وهمية بعد حين وفي هؤلاء يقول الله تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}[١٠١٨].

والله يطمئن الخليفة ومن سار على دربه بأنها إرادة الله سبحانه وتعالى أن هذا الاختلاف وفق إرادته أما من أحبهم وأراد لهم الرحمة فلا يعرفون الخلاف فلهم الخلافة في الدنيا والجنة في الآخرة فيقول الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[١٠١٩].

[١٠١٧] الأنبياء، ٩٢ . ٩٤.

[١٠١٨] المؤمنون، ٥٢ . ٥٤.

[١٠١٩] هود، ١٩.

ويقول جل وعلا: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[١٠٢٠].

ويقول الله عز وجلّ مخاطباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}[١٠٢١].

وعليه، الخليفة هو الذي يأمر بعدم الإسراف وما أكثر الإسراف اليوم فهو يهلك الأموال دون فائدة تذكر اللهم إلا للتباهي والفخر الزائدين عن الحد والعرف وأمثلة ذلك كثيرة فمثلا المناسبات من أفراح وأعياد مصطنعة، ففي هذه المناسبات يصرف فيها ما يكفي لبناء آلاف البيوت للشباب الذين لا يملكون بناء حجرة واحدة والمساهمة في إعداد الآلاف من بيوت الزوجية بأثاث بسيط الكلفة ولكنه ثقيل على المحتاجين الذين هم في بداية الطريق كما يكفي لإعالة آلاف الأيتام والأرامل وطلاب العلم وغير ذلك كثير وكثير، ولكنه التحدي الذي بسببه خرج إبليس من الجنة ونزل آدم إلى الأرض فما زال الملعون يدعو بالإسراف وما زال الرحمن يدعو بالاعتدال حتى يقيت الخليفة من هم دونه في الأرض فيقول الله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[١٠٢٢].

[١٠٢٠] يونس ١٩.

[١٠٢١] الروم، ٣٢.

[١٠٢٢] الإسراء ٢٧.

فالتبذير يجعل الإنسان من إخوان الشياطين أعاذنا الله من ذلك في كل حين، والتبذير هو الإسراف، لذا فالله يحذرنا منه بقوله تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[١٠٢٣].

لذا فالخليفة لابد أن يدعو إلى الاعتدال وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يقبله المقيت تعالى، وبطبيعة الحال يكون النهي بالتي هي أحسن حتى يتفاعل الخليفة مع الاسم المقيت فيقيت بعلمه ودعوته وحبه لله وحبه للناس يقيت الخلق الذي أصبح خليفة بينهم.

وعليه: لم يستخلف الله شخصا بعينه كما يقولون أو يدعون، بل استخلف النوع الإنساني الذي خلقه في أحسن تقويم، ولهذا يكون الخليفة بأحسن تقويم، ولا يكون بأسوأ تقويم، فالخليفة هو المخلوق على التمام وليس بمخلوق على النقص، ولذا فالذين في أنفسهم النقص لا يرتقون إلى مستوى أحسن تقويم وهو المستوى الذي تأسست عليه معطيات الخليفة، فلا خليفة إلا المستخلف من عند الله تعالى، والمراد بذلك الكافة، ولكن لا يتم البلوغ إلا بالهداية والعمل الصالح، مما يجعل أمر الخليفة في دائرة الممكن للجميع، فلن يحرمك أحدا من أن تكون خليفة إذا قدمت على ما يجعلك خليفة.

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرتقي الإنسان إلى درجة عالية عند الله سبحانه وتعالى لأن الذي يفعل ذلك يحب لله ويكره لله وينصح لله ويُسخّر علمه لله وبذلك يحدث

[١٠٢٣] الأنعام ١٣٨ ـ ١٤٢.

الاتزان على الأرض وهذا الاتزان من تجلي الاسم المقيت، فعن أنس بن مالك في فضل العلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله عز وجل على منابر من نور يكونون عليها. قالوا : من هم ؟ قال: الذين يحببون عباد الله إلى الله، ويحببون الله إلى عباده، وهم يمشون على الأرض نصحاء. قال: قلنا: يحببون الله إلى عباد الله، فكيف يحببون عباد الله إلى الله؟ قال: يأمرونهم بحب الله وينهونهم عما كره الله فإذا أطاعوهم أحبهم الله قال البيهقي رحمه الله: وجاء عنه صلى الله عليه وسلم قال: "علامة حب الله حب ذكر الله، وعلامة بغض الله بغض ذكره"[١٠٢٤].

لذا فآدم عليه السلام خليفة الله بالعلم الذي علمه الله له، والخليفة في كل عصر الذي له نصيب من هذا العلم، قال الله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[١٠٢٥].

والكرم والجود بالعلم والنصيحة وعدم الإسراف من الصفات الحميدة، ولذا فالمقيت تعالى هو الأكرم، والنبي صلى الله عليه وسلم كريم، وهكذا يستمد الخليفة صفة الكرم من صفة الكريم المقيت جل جلاله. قال عليه الصلاة والسلام: "ألا أخبركم بأجود الأجواد. قالوا: نعم يا رسول الله، قال: "الله تعالى أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل عالم ينشر علمه فيبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل"[١٠٢٦].

عن أنس رفعه: " أنا أجود ولد آدم، و أجودهم بعدى رجل علم علما فنشر علمه ورجل جاهد بنفسه في سبيل الله"[١٠٢٧].

والجود من الله رزق العباد بما يقيت حياتهم، والجود من الخليفة على درجات:

[١٠٢٤] شعب الإيمان للبيهقي ، ج ١ ، ص ٤٧٩

[١٠٢٥] البقرة ٣١.

[١٠٢٦] تفسير الرازي ، ج ١ ، ص ٤٧٠

[١٠٢٧] روضة المحدثين ، ج ١ ، ص ١٠ .

إن كان نبيا يكون بتبليغ رسالته ليحفظ أمته من الشرك والإلحاد والكفر، وإن كان الخليفة من العلماء فبنشر العلم الذي يحيي الأمة، ومعلوم أن الحياة في جهل هي الموت بعينه لذا ففضل النبي على الأمة بحفظها لا يقتصر على الدنيا بل يتعداه إلى الآخرة بالشفاعة الحسنة وكذلك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم ثم نجد أنه يمكن لأي إنسان أن تتحقق فيه خلافة هذا الاسم بقدر الذي يبذله ليقيت الناس من خلال مجال عمله وتخصصه وأعظم الرتب رتبة العلماء في هذا الخصوص. قال عليه الصلاة والسلام: "يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء". وقيل: أعظم مرتبة هي الواسطة بين النبوة والشهادة[١٠٢٨].

أما عن فضل العلم الذي هو أداة الخليفة فقد روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والقرب عند الغرباء، يرفع الله به أقواما، فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم، وأئمة في الخلق تقتص آثارهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم، بأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار، ومجالسة الملوك، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد الله عز وجل، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء"[١٠٢٩].

إذاً فالعلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، وهذا هو أثر الاسم المقيت في الخلق والمطلوب تنفيذه من الخليفة، بل إن الخليفة المتحقق بهذا

[١٠٢٨] تفسير الرازي ج١ ص ٤٧٠ وانظر أخلاق العلماء للآجري – ج ١ ، ص ٢٤

[١٠٢٩] المصدر السابق، ص ٢٤.

الاسم يعمل جاهدا على تحقيقه بقدر معلوم أي بقدر المستفيد (الخليفة) من (المفيد) المقيت جل جلاله الذي أنزل كل شيء بقدر ونظام حتى يستقيم أمر الكون قال الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}[١٠٣٠] جاء في تفسيرها (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) عن أبي هريرة: "أن مشركي قريش أتوا النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر، فنزلت: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وفي هذا الأمر وجهان:

أحدهما: على قدر ما أردنا من غير زيادة ولا نقصان.

الثاني: بحكم سابق وقضاء محتوم، ومنه قول الراجز في هذه الآية الكريمة: (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بَالْبَصَرِ) يعني أن ما أردناه من شيء أمرنا به مرة واحدة ولم نحتج فيه إلى ثانية، فيكون ذلك الشيء مع أمرنا به كلمح البصر في سرعته من غير إبطاء ولا تأخير. وليعلموا أنه قادر على حفظ ما أنعم به عليهم ودوامه لهم[١٠٣١]. وهذا هو مدلول اسم الله المقيت القدرة على الحفاظ على النعم التي أنعم بها على عباده ليقيتهم بها والخليفة هو الذي يسعى للحفاظ على حياة الناس بعلمه وخبرته وحكمته.

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام ما يدل على أن العلم بمقدار الأمور التي يعالجها، والذي يضع كل شيء في مكانه المناسب يقيت الناس بعلمه وحكمته ويحفظ حياتهم وهذا ما فعله سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام عندما أصبح مكيناً أميناً عند ملك مصر فطلب أن يكون على خزائن مصر ليحمي الناس من مجاعة مهلكة توقّع حدوثها فأخذ يعمل على مواجهتها، يقول الله تعالى:

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[١٠٣٢].

[١٠٣٠] القمر ٥٠.

[١٠٣١] النكت والعيون – ج ٤ ، ص ٢٠٥

[١٠٣٢] يوسف ٥٤ . ٥٦.

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) قَالَ يوسف (اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض) أرض مصر (إني حَفِيظٌ عَلِيمٌ ذو حفظ وعلم بأمرها)[١٠٣٣].

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) اجعلني على خزائن الأرض أي أرض مصر فاللام للعهد أي ولي أمرها من الإيراد والصرف إني حفيظ لها عمن لا يستحقها وعليم بوجوه التصرف فيها، وذلك انه لما عبر رؤيا الملك واخبر بإتيان السنين المجدبة قال له فما ترى يا يوسف قال تزرع زرعا كثيرا وتأخذ من الناس خمس زروعهم في السنين المخصبة وتدخر الجميع في سنبله فيكفيك وأهل مصر مدة السنين المجدبة وفى بحر العلوم قال له من حقك أن تجمع الطعام في الاهراء فيأتيك الخلق من النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك فقال الملك ومن لي بذاك فقال (اجعلني عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). وذلك لأنه علم في الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يداه على الخزانة ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عبادة الله وهى من أخلاق الخلفاء.

وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة[١٠٣٤].

إذا فمن أخلاق الخليفة الخوف على الناس واتخاذ الإجراءات المناسبة لإعانتهم على حاجتهم والنظر بتمعن لتأمين مستقبلهم ومثال لذلك ما يُبذل من جهود وما يجرى من شق الطرق ليحدث التواصل والاتصال بمنابع المياه التي منها يروى ظمئ الناس وبها يزرعون ويقتاتون. وعن طرق الاتصالات تتبادل العلوم والمعارف التي تُسهم في إحداث النقلة إلى كل مفيد ونافع لإقاتة الناس من الجوع والمرض والجهل.

وفي قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام العبرة في هذا المجال فبالفكر والجهد استطاع أن يزيل خوف الملك من الجوع القادم على البلاد وأن يبتكر وسيلة ليحافظ على الثروة

[١٠٣٣] تفسير حقي، ج ٦، ص ١٢٥.

[١٠٣٤] تفسير الجلالين ، ج ٤ ، ص ١٥٠

المتوفرة الآن ليعيد استخدامها بتوظيف جديد في المستقبل وهذا ما ستوضحه الآيات قال الله تعالى في قصة الملك مع سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ}[١٠٣٥].

(فأرسلون) فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة أي يا يوسف أيها الصديق، إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقاً لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فإن الملك رأى هذه الرؤيا (لعلي أرجع إلى الناس) يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته لعلهم يعلمون بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم. قال يوسف: معبراً لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى: (تزرعون سبع سنين دأباً) وهذا خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا عادتكم في الزراعة، والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه في سنبله) إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع في السوس وذلك ابقى له على طول الزمان (إلا قليلاً مما تأكلون) يعني ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) يعني من بعد السنين المخصبة تأتي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يعني يفنين (ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون) يعني يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من

[١٠٣٥] يوسف، ٤٦ . ٤٧.

الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع في الكلام لتحرزون وتدخرون للبذر، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع[١٠٣٦].

وهذا بتجنيب جزء زائد عن حاجة الجماعة يدخر لوقت آخر لا يتوفر فيه هذا الزرع أو أي شيء يمكن القياس عليه مثل الطاقة أو المياه أو غير ذلك من مقومات الحياة الآن ولذلك لا يقوم بقوت الناس إلا المتحقق بالاسم المقيت انطلاقا من رؤية علمية منهجية صحيحة.

ونعود للجانب الاقتصادي ونسأل من الذي يتصرف في الأموال التي هي عماد الأمم وعصب الحياة؟ وهذا السؤال يجيب عليه القرآن في قول الله تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[١٠٣٧].

فجاء في التفسير: (وَلاَ تُؤْتُواْ السفهاء) المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا قدرة لهم على إصلاحها وتثميرها والتصرف فيها، والخطاب للأولياء. وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء بقوله (أموالكم) لأنهم يلونها ويمسكونها (التي جَعَلَ الله لَكُمْ قياما) أي قواماً لأبدانكم ومعاشاً لأهلكم وأولادكم. وكان السلف يقولون: "المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس"[١٠٣٨].

وقياسا على الآية السابقة فكل من لا يحسن التصرف في المال الذي رزقه الله إياه يعد سفيها وعلى الخليفة الذي هو ولي أمره أن يعطيه هذا المال بقدر معلوم حتى ينضج فكره ويمتلك من الوسائل التي تتيح له حسن التصرف في هذا المال الذي يقيم حياته وحياة آخرين، ومن

[١٠٣٦] تفسير الخازن، ج ٤ ، ص ٢٢

[١٠٣٧] النساء، ٥، ٦،

[١٠٣٨] تفسير النسفي ، ج ١ ، ص ٢٠٩

شروط التصرف الحسن في المال الذي يقيم الأمم ويحيي الأفراد ما ورد في الآية الآتية قال الله تعالى:

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}[١٠٣٩].

(والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ) في غير حق، (وَلَمْ يَقْتُرُواْ) يعنى ولم يمسكوا عن حق، (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) يعنى بين الإسراف والإقتار مقتصداً (والذين لاَ يَدْعُونَ) يعنى لا يعبدون (مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق } قتلها بالقصاص (وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً) يلقى ذنبا لا يغتفر ومأواه جهنم[١٠٤٠].

وجاء أيضا في تفسير الإنفاق والاعتدال:

(والذين إذا أنفقوا) نفق الشيء إذا مضى ونفد إما بالبيع نحو نفق المبيع نفاقا وإما بالموت نحو نفقت الدابة نفوقا وإما بالفناء نحو نفقت الدراهم وأنفقتها (لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح فان القتر والإقتار والتقتير هو التضييق الذي هو التضييق الذي هو ضد الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة (وكان) الإنفاق المدلول عليه بقوله أنفقوا (بين ذلك) أي بين ما ذكر من الإسراف والتقتير وهو خبر كان وقوله (قواما) خبر بعد خبر. والمعنى وسطاً عدلا سمى به لاستقامة الطرفين واعتدالهما بحيث لا ترجح لإحداهما على الآخر بالنسبة إليه لكونه وسطا بينهما كمركز الدائرة فانه يكون نسبة جميع الدائرة إليه على السواء ونظير القوام السواء سمى به لاستواء الطرفين فالآية نظير قوله تعالى في الإسراء (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا).

والإنفاق ضربان: محمود ومذموم:

[١٠٣٩] الفرقان ٦٨.

[١٠٤٠] تفسير مقاتل ، ج ٢ ، ص ٤٧٥

فالمحمود: منه ما يكسب صاحبه العدالة، وهو بذل ما وجبت الشريعة بذله كالصدقة المفروضة والإنفاق على العيال ولذا قال الحسن: (ما أنفق الرجل على أهله في غير إسراف ولا فساد ولا إقتار فهو في سبيل الله) ومنه ما يكسب صاحبه أجرا وهو الإنفاق على من ألزمت الشريعة إنفاقه عليه. ومنه ما يكسب له الحرية وهو بذل ما ندبت الشريعة إلى بذله فهذا يكتسب من الناس شكرا ومن ولي النعمة أجرا.

والمذموم ضربان: إفراط (وهو التبذير) وإسراف وتفريط وهو(الإمساك والتقتير) وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية فالتبذير من جهة الكمية أن يعطى أكثر ما يحتمله حاله ومن حيث الكيفية أن يضعه في غير موضعه والاعتبار فيه بالكيفية أكثر من الكمية فرب منفق درهما من ألوف وهو في إنفاقه مسرف وببذله ظالم مفسد كمن أعطى فاجرة درهما أو اشترى خمرا، ورب منفق ألوفا لا يملك غيرها هو فيه مقتصد وبذله محمود كما روى في شأن أبى بكر الصديق رضي الله عنه حيث أنفق جميع ماله في غزوة تبوك ولما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ قال: (الله ورسوله) والحديث مقترن بآية فعن عامر الشعبي، في قوله: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) قال: أنزلت في أبي بكر، وعمر ، أما عمر فجاء بنصف ماله، حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟) قال: خلفت لهم نصف مالي. وأما أبو بكر فجاء بماله كله، يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟) قال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر، وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، ما استبقنا إلى باب خير قط، إلا كنت سابقنا إليه"[١٠٤١]، وعليه فقوله تعالى: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) يفهم منها على مستوى الخليفة في الأرض: إذا أخلص الخليفة النية لله في إنفاقه لا يضره الإجهار والإظهار وربما كان

[١٠٤١] تفسير ابن أبي حاتم ، ج ١٠ ، ص ٣٢٩.

أفضل لكي يقتدي به الناس بهذا الفعل الخير الجميل فيكثر الخلفاء في الأرض، وفي سبيل ذلك فليتنافس المتنافسون.

وقد قيل لحكيم: متى يكون بذل القليل إسرافا والكثير اقتصادا؟ قال: إذا كان بذل القليل في باطل وبذل الكثير في حق، ومن هذا الباب ما قال مجاهد: (لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهبا فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما في معصية الله كان مسرفا).

وقيل: "أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعيم واللذة ولا يلبسون ثيابا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب ما يستر عوراتهم ويكنهم عن الحر والقرّ"[١٠٤٢].

ومن تجلي اسم الله المقيت إحياء الأرض بالماء وإخراج أرزاق العباد منها لذا وجب على المتخلق بهذا الاسم والذي يكون خليفة لله في أرضه أن يحفظ تلك النعم ولا يهدرها وإن قلّت ومن هذه النعم الخبز الذي يقيت الإنسان وقد جاء في قوله تعالى ما يدعو إلى الحفاظ على النعم مهما قلت وقد دعم ذلك ما ورد في كتب التفسير فقد قال الله تعالى: {وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}[١٠٤٣].

(وآية) علامة عظيمة ودلالة واضحة على البعث والجمع والإحضار وهو خبر مقدم للاهتمام به وقوله (لهم) أي لأهل مكة (الأرض الميتة) اليابسة الجامدة: (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية كأن قائلا قال كيف تكون آية فقال أحييناها والإحياء في الحقيقة إعطاء الحياة، وهى صفة تقتضى الحس والحركة والمعنى هنا هيجنا القوى النامية فيها وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات في وقت الربيع وذلك بإقاتها بإنزال الماء من بحر الحياة وكذلك النشور فإنا نحيى الأبدان البالية المتلاشية في الأجداث بإنزال رشحات من بحر الجود فنعيدهم أحياء كما أبدعناهم أولا من العدم (وأخرجنا منها حبا) الحب الذي يطحن والبزر الذي يعصر منه الدهن وهو جمع حبة والمراد جنس الحبوب التي تصلح قواما للناس من

[١٠٤٢] تفسير حقي، ج ١١ ، ص ٣٥٠.

[١٠٤٣] يا سين، ٣٣.

الأرز والذرة والحنطة وغيرها وهي التي بها يقتات الناس وتُقات الكائنات (فمنه) أي فمن الحب (يأكلون) تقديم الصلة ليس لحصر جنس المأكول في الحب حتى يلزم أن لا يؤكل غيره بل هو لحصر معظم المأكول فيه فان الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ومنه صلاح العباد.

ومن تجليات اسم المقيت إحياء قلوب العلماء ليكونوا سببا في تنوير عقول العباد وإحياء قلوبهم وصفاء أرواحهم وطهارة نفوسهم. لذا فالخليفة يوجه الناس للإيمان بالله تعالى لتعمر عقولهم وقلوبهم بالحكمة ويتقون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض ولا يكفرون بنعمة الله ويذكرهم بالحفاظ على الأقوات التي يقتاتون بها وحثهم للسعي لاستخراج أقواتهم من الأرض محل الخلافة وخزن القوت لمن أراد أن يقتات وقيت غيره وفي هذا المعنى قال الله تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[١٠٤٤].

الخليفة المقيت هو الذي يعلم رحمة الله ويعمل بها على رحمة العباد، يتصدق ويزكي ويعطي ويجود دون إسراف، ولا غاية له إلا طاعة المقيت المطلق مصدر كل إقاتة ورزق.

فالمقيت هو الذي بيده الخير وبيده إرادة الإنفاق، وله دقة في تقدير زمن الإقاتة، وتحديد من هو في حاجة للإقاتة، ولذا فإن الإقاتة إنقاذ من الهلاك، وعودة للحياة الفاعلة، التي بها تتحقق الطمأنينة النفسية لمن يتعلق أمر الحاجة أو الفاقة به.

وأما قوله تعالى: (ذَلِكَ رَبُّ العالمين) أي ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم، فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب

[١٠٤٤] فصلت، ٩ . ١٢.

والحجر؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك:

فالأول: قوله: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا) والمراد (وَجَعَلَ فِيهَا رواسي منها الجبال، فإن قيل: ما الفائدة في قوله (مّن فَوْقِهَا) ولم يقتصر على قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شامخات}[١٠٤٥]. وقوله عز وجل: {وَجَعَلْنَا في الأرض رَوَاسِيَ}[١٠٤٦]. قلنا لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى.

والنوع الثاني: مما أخبر الله تعالى في هذه الآية قوله (وبارك فِيهَا) والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد شق الأنهار وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحي (وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها) محيياتها، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات المباركة بإذن المقيت عز وجل.

والنوع الثالث: وفيه أقوال:

الأول: أن المعنى وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، قال محمد بن كعب: قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان.

والقول الثاني: قال مجاهد: وقدر فيها أقواتها من المطر، وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان، والمعنى أن الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر كل ما تُرحم وتقتات به.

والقول الثالث: أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى، فقوله (وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها) أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها

[١٠٤٥] المرسلات، ٢٧.

[١٠٤٦] الرعد، ٣.

بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس أيضا، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض وهيأها للإنسان الذي كلما نقب وبحث وسعى أظهر شيئا منها ليقتات بنعم الله فيها. قال: (وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها) وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبها من الأرض متعيناً[١٠٤٧]، ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده: (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ) وهنا سؤالان:

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أُخر، وذكر أنه خلق السموات في يومين، فيكون المجموع ثمانية أيام، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام فلزم التناقض، واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله (وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) مع اليومين الأولين، وهذا كقول القائل رحلت من سبها إلى طرابلس في عشرة أيام، ورحلت إلى بنغازي في خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفاً في شهر وألوفاً في ثلاثة أشهر فيدخل الألف في الألوف والشهر في الشهرين.

السؤال الثاني: أنه لما ذكر أنه خلق الأرض في يومين، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط، فلم ترك هذا التصريح، وذكر ذلك الكلام المجمل؟ والجواب: أن قوله (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ) فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء في يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء، ثم قال بعده: (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ) دل ذلك على أن هذه الأيام

[١٠٤٧] تفسير الرازي ، ج ١٣ ، ص ٣٧٠

الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان. (وقدر فيها أقواتها) قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم.

وقال عكرمة والضحاك: معنى "قدر فيها أقواتها، أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم منها"[١٠٤٨].

ومن معاني المقيت المقتدر والشهيد والحفيظ وجاء ذلك في تفسير قوله تعالى:

{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}[١٠٤٩].

(وكان الله على كل شيء مقيتا) أي مقتدرا مجازيا بالحسنة والسيئة من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا[١٠٥٠].

ولا نستطيع أن نفصل بين أسماء الله الحسنى لأنها متصلة اتصالا وثيقا حتى أنه نجد الاسم له مدلولات متعددة ومتصلة وآن واحد مع بقية الأسماء بشكل بديع وهذا يتضح من تفسير الإمام الغزالي للأسماء الحسنى، قال الإمام الغزالي في شرح الأسماء الحسنى: "معنى المقيت خالق الأقوات وموصلها الى الأبدان وهى الأطعمة والى القلوب وهى المعرفة فيكون بمعنى الرازق إلا أنه أخص منه إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت والقوت ما يكتفي به في قوام البدن أو يكون معناه المستولي على الشيء القادر عليه والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم وعليه يدل قوله تعالى (وكان الله على كل شيء مقيتا) على إطلاعه تعالى وقدرته وبهذا يكون معناه راجعا الى العلم والقدرة فوصفه بالمقيت أتم من وصفه بالقادر وحده وبالعالم وحده لأنه دال على اجتماع المعنيين وبذلك يخرج هذا الاسم من الترادف[١٠٥١].

[١٠٤٨] تفسير القرطبي ، ج ١٥ ، ص ٣٤٢.

[١٠٤٩] النساء، ٨٥.

[١٠٥٠] تفسير مقاتل ، ج ٣ ، ص ١٩٦

[١٠٥١] تفسير حقي ، ج ٣ ، ص ٣٨

ولما سئل ابن عباس عن قوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا) مَا الْمُقِيتُ؟ قَالَ: قَادِرًا، قيل: وَهَلْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ النَّابِغَةِ:

وَذِي ضَغَنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ   وَإِنِّي فِي مُسَاءَتِهِ مَقِيتُ

قَالَ: صَدَقْتَ[١٠٥٢]. عن الضحاك، قال : المقيت: الرازق[١٠٥٣]. بطبيعة الحال لا يقات الشيء إلا بشيء، والشيء الذي يقات به هو رزق من عند المقيت المطلق جل جلاله.

المقيت هو الله تعالى الفعال لما يريد لمن يريد متى ما يريد كيفما يريد سبحانه جل جلاله. وقوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا) قال ابن عباس، وعطاء، وعطية، وقتادة، ومطر الوراق: (مُقِيتًا) أي: حفيظا. وقال مجاهد: شهيدا. وفي رواية عنه: حسيبا. وقال سعيد بن جبير، والسدي، وابن زيد: قديرا. وقال عبد الله بن كثير : المقيت: الواصب. وقال الضحاك: المقيت: الرزاق. وعن عبد الله بن رواحة، يُقيت كلّ إنسان على قدر عمله[١٠٥٤].

قال تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا}[١٠٥٥]. **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: – قوله تعالى: (من يشفع) أصل الشفاعة والشفعة ونحوها من الشفع وهو الزوج في العدد، ومنه الشفيع، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا. والشفع ضم واحد إلى واحد. والشفعة ضم ملك الشريك إلى ملكك، فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال المنفعة إلى المشفوع له.

الثانية: واختلف المتأولون في هذه الآية، فقال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليضر فله كفل. وقيل: الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة، والسيئة في المعاصي.

[١٠٥٢] معجم الكبير للطبراني، ج ٩ ، ص ٤٢٦.

[١٠٥٣] السابق ٤٧٣.

[١٠٥٤] تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٣٦٨

[١٠٥٥] النساء ، ٨٥.

فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن سعى بالنميمة والغيبة إثم، وهذا قريب من الأول. وقيل: يعني بالشفاعة الحسنة الدعاء للمسلمين، والسيئة الدعاء عليهم[١٠٥٦].

وقيل: المعنى من يكن شفعا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر، ومن يكن شفعا لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوزر. وعن الحسن أيضا: الحسنة ما يجوز في الدين، والسيئة ما لا يجوز فيه. وكأن هذا القول جامع. والكفل الوزر والإثم[١٠٥٧].

الثالثة: قوله تعالى: (وكان الله على كل شيء مقيتا) (مقيتا) معناه مقتدرا، ومنه قول الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن كففت النفس عنه * ** وكنت على إساءته مقيتا

وقال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت، والقوت معناه مقدار ما يحفظ الإنسان.

وجاء في الحديث: (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت) و (يقيت) ذكره الثعلبي: وحكى ابن فارس في المجمل: المقيت المقتدر[١٠٥٨].

في قوله تعالى: (وَكَانَ الله على كُلِّ شَيء مُّقِيتاً) **فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في المقيت قولان: الأول: المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير بن عبد المطلب.

وذي ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على إساءته مقيتا

وقال آخر:

ليت شعري وأشعرن إذا ما ... قربوها منشورة ودعيت

إلي الفضل أم علي إذا حو ... سبت أني على الحساب مقيت

[١٠٥٦] تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٢٩٥

[١٠٥٧] السابق ٢٩٧.

[١٠٥٨] السابق ص ٢٩٧.

وأنشد النضر بن شميل:

تجلد ولا تجزع وكن ذا حفيظة ... فإني على ما ساءهم لمقيت

فالمقيت المطلق جل جلاله هو الذي يشتق القوت منه، ولهذا فالمقيت المطلق يشتق منه كل شيء وهو لا يشتق من شيء سبحانه لا إله إلا هو، وفي هذا الأمر يقال: قت الرجل إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة. قال القفال رحمه الله: أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولا ينتقص بسبب ما يصل إلى الشافع شيء من جزاء المشفوع، وعلى الوجه الثاني أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفى عليه شيء من أحوالنا، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه فيجازى كلا بما علم منه. ولهذا أكد جل جلاله على أن من يشفع ينبغي أن يشفع شفاعة حسنة حتى لا يلحقه ذنب. فقال تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها}[١٠٥٩].

المسألة الثانية: إنما قال: (وَكَانَ الله على كُلّ شَيء مُّقِيتاً) تنبيها على أن كونه تعالى قادرا على المقدورات صفة كانت ثابتة له من الأزل، وليست صفة محدثة[١٠٦٠].

والمقيت المقتدر. يقال: أقات على الشيء يعني اقتدر. ويقال: المقيت الشاهد على الشيء، الحافظ له من التلف والهلاك، ويقال: مقيتاً يعني: بيده الرزق وعليه قوت كل دابة[١٠٦١]، كقوله تعالى {وَجَعَلَ فِيهَا رواسي مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أقواتها في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ}[١٠٦٢].

[١٠٥٩] النساء، ٨٥.

[١٠٦٠] تفسير الرازي ، ج ٥ ، ص ٣١١.

[١٠٦١] بحر العلوم للسمرقندي ، ج ١ ، ص ٤٠٦.

[١٠٦٢] فصلت ١٠.

القُوت يقوِّي البدَنَ ويحفَظُه من التلف والهلاك ومن فقدان المقدرة على البقاء والعيش، وجاء أيضا (مٌقِيتاً) بمعنى مقتدراً فيجازي كل أحد بما عمل[١٠٦٣].

(وكان الله) في الأزل (على كل شيء مقيتا) شهيدا في إيجاد المحسن والمسيء مقتدرا عليما حفيظا يعطيهما استعداد شفاعة حسنة وسيئة لا يقدران اليوم على تبديل استعدادهما لقابلية الخير والشر[١٠٦٤].

ومن خلال السياحة في عالم الاسم المقيت يتبين لنا أنه من أسماء الذات الذي يتضمن مدلولات كثيرة لأسماء إلهية أخرى ولا ينفصل عنها بل يتمم معانيها وتكمل هي من مفاهيمه والمتحقق بهذا الاسم من العلماء الحكماء المخلصين الناصحين المحرضين لجماعتهم للخير الصارفين لهم عن الشر العاملين بجهد وافر لتحقيق ما يسعدهم ويحمي حياتهم بحرية وكرامة.

وعليه: فحظ العبد: أن يقيت نفسه بما أمر الله تعالى من الهلاك، وأن يقيت من له الحق عليه من الهلاك والضياع، فالقوت قوتان:

أولا: قوت الكلمة الحق: التي بها تطمئن القلوب بالإيمان، وتعيد الثقة بالنفس، وتُحفِّز على بلوغ الطموحات والغايات العظام، وتنير العقول بالعلوم والمعارف النافعة، وتحدث النقلة في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن وانفع وأقوم.

الثاني: قوت العيش: الكريم والرزق الحلال، من مأكل ومشرب، الذي به يغاث الناس من الهلاك وبه تنقد ألأرواح من الموت. ولذلك يكون الفرق كبير بين من يُطعِمُ وبين من يُطعَمُ، فالمقيت المطلق وحده لا شريك له الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ مصداقا لقوله تعالى: {قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ}[١٠٦٥]. ولذا فإن الخليفة هو الذي يستمد صفة الإطعام والإيقاتة من المقيت المطلق، فيطعم المسكين التزاما وإيمانا راسخا بما

[١٠٦٣] تفسير الجلالين ، ج ٢ ، ص ٧٧.

[١٠٦٤] تفسير حقي ، ج ٣ ص ٣٩.

[١٠٦٥] الأنعام ١٤.

جاء في قوله تعالى: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاء ولا شكور إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا}[١٠٦٦]. ولهذا فالخليفة دائما يحض على إطعام المسكين واليتيم والمحتاج دون منة بل طاعة لله تعالى مالك الملك وهو الرزاق المقيت.

اللهم يا مقيت قتنا دائما أبدا بواسع رحمتك وفضلك وجودك وكرمك وعطائك ورزقك، اللهم إنك يا مقيت قد خلقت القوت سابقا على خلقنا فكان قوتك لخلقك رحمة في الدار الدنيا وجعلت الجنة قوتا واسع لمن آمن بربه واحداً أحداً ولا يشرك به شيئا فاجعلنا يا مقيت من الوارثين في الجنة ولا تجعلنا محرومين في جهنم، (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) اللهم اجعلنا من أصحاب الجنة الذين نادوا أصحاب النار (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) والحمد لله رب العالمين اللهم إننا على بينة منك نتبعها ولا نتبع الهوى فقتنا في الجنة بأنهار مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، اللهم قتنا فيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ واغفر لنا إنك المقيت ولا تجعلنا كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ.

[١٠٦٦] الإنسان ، ٨ . ١١.

موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ.د عقيل حسين عقيل
جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء الرابع

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

دار ابن كثير
دمشق - بيروت